(سورة البقرة)

جميعها مدنيّ بلاخلاف. وآيها مائتان وست وثمانون. وقد صح في فضلها عدة أخبار:

منها ما في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذيّ والنسائيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال[1]:

«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لايدخله الشيطان».

وقال الترمذيّ: حسن صحيح.

وروى ابن حبان في صحيحه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ. «إن لكل شيء سِناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهارا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام».

وروى مسلم عن أبي أُمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول[2]: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فِرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة».

(وقوله الزهراوين: أي المنيرتين ـ في الإعجاز أو في وفرة الأحكام ـ والغياية: ما أظلك من فوقك. والفِرْق: القطعة من الشيء. والصواف: المصطفة. والبطلة: السحرة. ومعنى لا تستطيعها: لا تستطيع النفوذ في قارئها، أو لا يمكنهم حفظها. والله أعلم).

---

(١) أخرجه الترمذيّ في: ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن، ٢ ـ باب ماجاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسيّ.

(٢) أخرجه مسلم في: ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث ٢٥٢.

القول فى تأويل قوله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ [١] (الٓمٓ)

اعلم أن للناس فى هذا وما يجرى مجراه من الفواتح مذهبان :

الأول أن هذا علم مستور ، وسِرّ محجوب ، استأثر الله تبارك وتعالى به فهو من المتشابه . ولم يرتض هذا كثير من المحققين وقالوا : لا يجوز أن يرد فى كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوماً للخلق . واحتجوا بأدلة عقلية ونقلية ، بسطها العلامة الفخر .

(المذهب الثانى) مذهب من فسرها ، وتكلم فيما يصح أن يكون مراداً منها ، وهو ما للجمهور . وفيه وجهان : (الأول) وعليه الأكثر : أنها أسماء للسور .

(الثانى) أن يكون ورود الأسماء هكذا مسرودةً على نمط التعديد : كالإيقاظ وقرع العصا لمن تُحُدِّىَ بالقرآن وبغرابة نظمه ؛ وكالتحريك للنظر فى أن هذا المتلوّ عليهم ـ وقد عجزوا عنه عن آخرهم ـ كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم تظهر مَعْجزتهم عن أن يأتوا بمثله ـ بعد المراجعات المتطاولة ـ وهم أمراء الكلام ، وزعماء الحوار ، وهم الحراص على التساجل فى اقتضاب الخطب ، والمتهالكون على الافتنان فى القصيد والرجز ، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التى بزت بلاغة كلّ ناطق ، وشقت غبار كلّ سابق ، ولم يتجاوز الحدّ الخارج من قوى الفصحاء ، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء إلّا لأنه ليس بكلام البشر ، وإنه كلام خالق القوى والقُدَر . قاله الزمخشرىّ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

أى : هذا القرآن لا شك أنه من عند الله تعالى كما قال تعالى فى السجدة « الٓمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(١) . قال بعض المحققين : اختصاص ذلك

(١) [٣٢ / السجدة / ١و٢] .

بالإشارة للبعيد حكم عرفيّ لا وضعيّ ؛ فإن العرب تعارض بين اسمى الإشارة . فيستعملون كلاً منهما مكان الآخر ، وهذا معروف فى كلامهم . وفى التنزيل من ذلك آيات كثيرة . ومن جرى على أن ذلك إشارة للبعيد يقول : إنما صحت الإشارة بذلك ، هنا إلى ماليس ببعيد، لتعظيم المشار إليه ، ذهاباً إلى بُعد درجته وعلوّ مرتبته ومنزلته فى الهداية والشرف .

والريب فى الأصل : مصدر رابنى إذا حصل فيك الريبة . وحقيقتها : قلق النفس واضطرابها . ثم استعمل فى معنى الشك مطلقاً ، أو مع تهمة . لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة .

وفى الحديث[1] : « دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبُك » .

ومعنى نفيه عن الكتاب : أنه فى علوّ الشأن، وسطوع البرهان ، بحيث ليس فيه مظنة أن يُرتاب فى حقيقته ، وكونه وحياً منزلًا من عند الله تعالى. والأمر كذلك ، لأن العرب، مع بلوغهم فى الفصاحة إلى النهاية ، عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن . وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة فى الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه ، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلا .

« هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » أى : هادٍ لهم ودالّ على الدين القويم المفضى إلى سعادتى الدارين .

قال الناصر فى الانتصاف : الهدى يطلق فى القرآن على معنيين (أحدهما) الإرشاد وإيضاح سبيل الحق . ومنه قوله تعالى « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ »[2] . وعلى هذا يكون الهدى للضالّ باعتبار أنه رشد إلى الحق ، سواء حصل له الاهتداء أوْ لا . و (الآخر) خلق الله تعالى الاهتداء فى قلب العبد ، ومنه « أُولَٰئِكَ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك ج ٣ ص ١٥٣ (طبعة الحلبيّ) .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[١] . فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو فى هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً . وعلى الأول ، فتخصيص الهدى بالمتقين للتنويه بمدحهم حتى يتبيّن أنهم هم الذين اهتدَوْا وانتفعوا به ، كما قال تعالى « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا »[٢] . وقال « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ »[٣] . وقد كان، صلى الله عليه وآله وسلم، منذراً لكل الناس ، فذكر هؤلاء لأجل أنهم هم الذين انتفعوا بإنذاره . وهذه الآية نظير آية « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ »[٤]، « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا »[٥] . وكقوله تعالى « يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »[٦] . إلى غير ذلك ، مما دلّ على أن النفع به لا يناله إلا الأبرار . والمراد بالمتقين ـ هنا ـ من نعتهم الله تعالى بقوله

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ .

(٢) [٧٩ / النازعات / ٤٥] .

(٣) [٣٦ / يس / ١١] ونصها : إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ .

(٤) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٥) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

(٦) [١٠ / يونس / ٥٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون « بِالْغَيْبِ » الغيب فى الأصل مصدر غاب . بمعنى استتر واحتجب وخفى . وهو بمعنى الفاعل ـ كالزور للزائر ـ أطلق عليه مبالغة ، والمراد به ما لا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بداية العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام . والمعنى يؤمنون بما لا يتناوله حسّهم . كذاته تعالى ، وملائكته ، والجنة ، والنار ، والعرش والكرسىّ ، واللوح ونحوها .

« وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى يؤدّونها بحدودها وفروضها الظاهرة والباطنة . كالخشوع والمراقبة وتدبر المتلوّ والمقروء .

قال الراغب : إقامة الصلاة توفية حدودها ، وإدامتها . وتخصيص الإقامة تنبيه على أنه لم يرد إيقاعها فقط . ولهذا ، لم يأمر بالصلاة ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة نحو « أَقِمِ الصَّلَاةَ »(١) ، وقوله « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ »(٢) ، و « الَّذِينَ

(١) [١١ / هود / ١١٤] ونصها : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ .

و [١٧ / الإسراء / ٧٨] ونصها : أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا .

و [٢٠ / طه / ١٤] ونصها : إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى .

و [٢٩ / العنكبوت / ٤٥] ونصها : اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٢] ونصها : لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ =

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ »[١] . ولم يقل : المصلى ، إلا فى المنافقين « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ »[٢] ، وذلك تنبيه على أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل ـ كما قال عمر رضى الله عنه : الحاجّ قليل والركب كثير ـ ولهذا قال عليه السلام[٣] « من صلى ركعتين مقبلًا بقلبه على ربه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه » . فذكر مع قوله « صلّى » الإقبال بقلبه على الله تنبيهاً على معنى الإقامة، وبذلك عظم ثوابه . وكثير من الأفعال التى حث تعالى على توفية حقه ، ذكره بلفظ الإقامة ، نحو « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ »[٤] ونحو « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ »[٥] تنبيهاً على المحافظة على تعديله . انتهى .

فالإقامة من أقام العود إذا قوّمه . و «الصلوة» فعلة من صلّى إذا دعا ، كـ«الزكوة» من زكى ـ وإنما كتبتا بالواو مراعاة للفظ المفخّم ـ وإنما سمى الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء .

« وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى يؤتون مما رزقناهم من الأموال مَن شرع لهم إيتاؤه والإنفاق عليه من الفقراء والمساكين وذوى القربى واليتامى وأمثالهم، على مابيّن فى آيات كثيرة.

= يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا .

(١) [٥ / المائدة/ ٥٥] ونصها : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .

(٢) [١٠٧ / الماعون / ٤و٥] .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

(٤) [٥ / المائدة/ ٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ .

(٥) [٥٥/ الرحمن/ ٩] ونصها : وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » والمراد « بما أنزل إليك » الكتاب المنزل كله ، وإنما عبر عنه بلفظ المضى ـ وإن كان بعضه مترقباً ـ تغليباً للموجود على مالم يوجد . كما أن المراد من قوله « وما أنزل من قبلك » الكتب الإلٰهية السالفة كلها. وهذا كقوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ »[1] الآية . والإنزال النقل من الأعلى إلى الأسفل . فنزول الكتب الإلٰهية إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام بأن يتلقاها جبريل من جنابه عزّ وجلّ فينزل بها إلى الرسل عليهم السلام . ولهذا يقال : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، منه بدأ .

قال الإمام أحمد وغيره : وإليه يعود أى هو المتكلم به . قال تعالى « وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ »[2] . وقال تعالى « قُلْ نَزَّلَهُ

(١) [٤ / النساء / ١٣٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

obeikandi.com

رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ »[١] . وقال تعالى : « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »[٢] .

« وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » الآخرة في الأصل : تأنيث الآخِر الذي هو نقيض الأول وهي صفة الدار ، بدليل قوله تعالى « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ »[٣] . سميت بذلك لأنها متأخرة عن الدنيا . وقيل للدنيا : دنيا ، لأنها أدنى من الآخرة . وهما من الصفات الغالبة . ومع ذلك فقد جريا مجرى الأسماء ، إذ قد غلب ترك ذكر اسم موصوفهما معهما ، كأنهما ليسا من الصفات .

والإيقان إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه . وفي تقديم «الآخرة» وبناء «يوقنون» على « هم » تعريض بأهل الكتاب ، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته . كزعمهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى[٤] ؛ وأن النار لن تمسّهم إلا أياماً معدودة[٥] ؛ واختلافهم في أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أو لا ؟ وهل هو دائم أو لا ؟ فاعتقادهم في أمور الآخرة بمعزل عن الصحة ، فضلًا عن الوصول إلى مرتبة اليقين!

---

(١) [١٦ / النحل / ١٠٢] ونصها : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ١] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٣] ونصها : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى [٢ / البقرة / ١١١] وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٥) إشارة إلى قوله تعالى في [٢/البقرة/٨٠] وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« أُولَٰئِكَ » أى : المتصفون بما تقدّم . « عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ » أى على نورٍ من ربهم ، وبرهانٍ ، واستقامةٍ ، وسدادٍ ـ بتسديده إياهم وتوفيقه لهم ـ . « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى المنجحون ، المدركون ماطلبوا عند الله ـ بإيمانهم ـ من الفوز بالثواب ، والخلود فى الجنات ، والنجاة مما أعدّ الله لأعدائه من العقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لمّا بيّن تعالى نعوت المؤمنين قبلُ ، شرح أحوال مقابليهم وهم الكفرة المردة بأنهم : تناهَوْا فى الغواية والضلال إلى حيث لا يجديهم الإنذار والتذكير ، كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ »(١) . وكقوله سبحانه فى المعاندين الكتابيين « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ »(٢) الآية .

و « سواء » اسم بمعنى : الاستواء ، وصف به ، كما يوصف بالمصادر ، مبالغةً ؛ ومنه

= وقوله تعالى فى [٣ / آل عمران / ٢٤] ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(١) [١٠ / يونس / ٩٦، ٩٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٥] ونصها : وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

قوله تعالى « تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » بمعنى : مستوية .

و (الإنذار) الإعلام مع تخويف . والمراد هنا : التخويف من عذابه تعالى، وانتقامه ، والاقتصار عليه لما أنهم ليسوا أهلاً للبشارة ، ولأن الإنذار أوقع فى القلوب ؛ ومن لم يتأثر به فَلأَنْ لا يرفع للبشارة رأساً ـ أَوْلَى .

وقوله « لا يؤمنون » جملة مستقلة ، مؤكّدة لما قبلها ، مبيّنة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

استئناف معلّل لِمَا سبق من الحكم ، أو بيانٌ وتأكيدٌ له . والختم على الشىء : الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه . والمراد : إحداث حالة تجعلها ـ بسبب تماديهم فى الغىّ ، وانهماكهم فى التقليد ، وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح ـ بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ، ولا ينفذ فيها الحق أصلاً .

قال أبو السعود : وإسناد إحداث تلك الحالة فى قلوبهم إلى الله تعالى ، لاستناد جميع الحوادث عندنا ـ من حيث الخلق ـ إليه سبحانه . وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوءَ صنيعهم ، ووخامة عاقبتهم ، لكون أفعالهم ـ من حيث الكسب ـ مستندةً إليهم . فإنّ خلقَها منه سبحانه ليس بطريق الجبر ، بل بطريق الترتيب ـ على ما اقترفوه من القبائح ـ كما يعرب عنه قوله تعالى « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ »(١) ونحو ذلك ،

---

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

obeikandi.com

يعنى كقوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » وقوله : « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ »(١) .

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل ، وذكروا فى ذلك عدةً من الأقاويل .

منها : أنّ القوم لما أعرضوا عن الحق ، وتمكّن ذلك فى قلوبهم ، حتى صار كالطبيعة لهم ، شبه بالوصف الخلقىّ المجبول عليه .

ومنها : أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التى خلقها الله تعالى خاليةً عن الفطن ، أو بقلوب قدّر ختم الله تعالى عليها . كما فى : سال به الوادى ـ إذا هلك ـ وطارت به العنقاء ـ إذا طالت غيبته ـ .

ومنها : أن أعراقهم لما رسخت فى الكفر ، واستحكمت ، بحيث لم يبق إلى تحصيل إيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر ؛ ثم لم يفعل ذلك محافظةً على حكمة التكليف ، عبّر عن ذلك بالختم ، لأنه سدٌّ لطريق إيمانهم بالكلية. وفيه إشعار بترامى أمرهم فى الغىّ والعناد .

ومنها : أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه . مثل قولهم : قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه ، وفى ءاذاننا وَقْرٌ ، ومن بيننا وبينك حجاب(٢) . تهكماً بهم .

ومنها : أن ذلك فى الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضى لِتَحقُّق وقوعه . ويعضده قوله تعالى « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً »(٣) . انتهى ملخصاً .

(فائدة) قال الراغب : المراد بالقلب فى كثيرٍ من الآيات : العقل والمعرفة اهـ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٠] ونصها : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٥] ونصها : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٩٧] ونصها : وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)

أصل ناس أناس ، حذفت همزته تخفيفاً ، وحذفها مع لام التعريف كاللازم . ويشهد لأصله إنسان ، وأُناس ، وأناسيّ ، وإنس . وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أى يبصرون ـ كما سمى الجن لاجتنانهم ـ ولذلك سموا بشراً . وقيل : اشتقاقه من الأُنس ـ ضدّ الوحشة ـ لأن الإنسان مدنىّ بالطبع . والأوّل أظهر .

واعلم أن صفات المنافقين إنما نزلت فى السور المدنية . لأن مكّة لم يكن فيها نفاق ؛ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب. وبها اليهود ـ من أهل الكتاب ـ وهم ثلاث قبائل : بنو قينقاع ـ حلفاء الخزرج ـ وبنو النّضير وبنو قُرَيْظة ـ حلفاء الأوس ـ فلما قدم رسول الله ﷺ المدنية ، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج، وقلّ مَنْ أسلم من اليهود ـ إلاّ عبد الله بن سلام رضى الله عنه ـ ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً ، لأنه لم يكن للمسلمين ، بعدُ، شوكة تُخاف ؛ بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادَعَ اليهودَ وقبائلَ كثيرةً ـ من أحياء العرب حوالى المدينة ـ . فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته ، وأعزّ الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبىٍّ ابنُ سلول ـ وكان رأساً فى المدينة ، وهو من الخزرج ، وكان ابنُ سيد الطائفتين فى الجاهلية ؛ وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم ، فجاءهم الخبر ، وأسلموا ، واشتغلوا عنه . فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله . فلما كانت وقعة بدر ، قال : هذا أمر قد توجّه . فأظهر الدخول فى الإسلام، ودخل معه طوائف ـ ممن هو على طريقته ونِحْلَتِهِ ـ وآخرون من أهل الكتاب ؛ فمن ثَمَّ وُجد النفاق فى أهل المدينة ، ومَنْ حولها من الأعراب .

= فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

قال القاشانىّ : المخادعة استعمال الخدع من الجانبين ، وهو إظهار الخير ، واستبطان الشر . ومخادعة الله مخادعة رسوله ، لقوله « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ »(١) . فخداعهم لله وللمؤمنين إظهار الإيمان والمحبة ، واستبطان الكفر والعداوة . وخداع الله والمؤمنين إياهم مسالمتهم ، وإجراء أحكام الإسلام عليهم . بحقن الدماء وحصن الأموال وغير ذلك . وادّخار العذاب الأليم ، والمآل الوخيم ، وسوء المغبّة لهم ، وخزيهم فى الدنيا لافتضاحهم بإخباره تعالى وبالوحى عن حالهم . لكن الفرق بين الخداعين : أن خداعهم لا ينجح إلّا فى أنفسهم . بإهلاكها ، وتحسيرها ، وإيراثها الوبال والنكال ـ بازدياد الظلمة ، والكفر ، والنفاق ، واجتماع أسباب الهلكة ، والبعد والشقاء ، عليها ـ وخداع الله يؤثر فيهم أبلغ تأثير ، ويوبقهم أشدّ إيباق ، كقوله تعالى « وَمَكَرُوا ، وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »(٢) وهم ـ من غاية تمقّهم فى جهلهم ـ لا يحسون بذلك الأمر الظاهر .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو « وَمَا يُخَادِعُونَ » بالألف .

قال ابن كثير : نبه الله سبحانه على صفات المنافقين ، لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون ، فيقع بذلك فساد عريض ـ من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم ، وهم كفّار فى نفس الأمر ـ وهذا من المحذورات : أن يُظَنَّ بأهل الفجور خيرٌ . ثم إن قول من قال : كان عليه

---

(١) [٤ / النساء / ٨٠] ونصها : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً .

(٢) [٣ / آل عمران / ٥٤] .

الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين ـ إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان(١) في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً ـ في غزوة تبوك ـ الذين همّوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عند عقبة هناك، عزموا على أن ينفّروا به الناقة ، ليسقط عنها ، فأوحى الله إليه أمرهم ، فأطلع على ذلك حذيفة .

فأما غير هؤلاء ، فقد قال الله تعالى « وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ »(٢) الآية . وقال تعالى « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » ففيها دليل على أنه لم يغربهم ولم يدرك على أعيانهم ، وإنما كان تذكر له صفاتهم ، فيتوسمها في بعضهم ، كما قال تعالى « وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ »(٣) . وقد كان من أشهرهم بالنفاق ، عبد الله بن أبيّ ابنُ سلول.

واستند ـ غير واحد من الأئمة ـ في الحكمة عن كفه ﷺ عن قتل المنافقين ، بما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه(٤) « أكره أن يتحدث العرب أن محمداً

---

(١) يشير إلى حديث حذيفة الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٩ و ١٠ و ١١ .

(٢) [٩/ التوبة / ١٠١] ونصها : وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ.

(٣) [٤٧ / محمد / ٣٠] .

(٤) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه في : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٤٣ ونصه : =

يقتل أصحابه » . ومعناه خشية أن يقع بسبب ذلك تنفيرٌ لكثيرٍ من الأعراب عن الدخول في الإسلام ، ولا يعلمون حكمة قتلهم ـ بأنّه لأجل كفرهم ـ فإنهم إنما يأخذونه بمجرد مايظهر لهم ، فيقولون : إن محمداً يقتل أصحابه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

المرض : السقم ، وهو نقيض الصحة ، بسبب ما يعرض للبدن ؛ فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويوجب الخلل في أفاعيله . استعير ههنا لعدم صحة يقينهم ، وضعف دينهم ـ وكذا توصف قلوب المؤمنين بالسلامة التي هي صحة اليقين ، وعدم ضعفه ، كما قال تعالى « إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[١] أي : غير مريض بما ذكرنا ـ أو استعير لشكّهم ، لأن الشك تردُّد بين الأمرين ، والمنافق متردّدٌ ، كما في الحديث[٢] « مثل المنافق كمثل الشاة

= عن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة ، منصرفه من حنين ، وفي ثوب بلال فضة . ورسول الله ﷺ يقبض منها . يعطي الناس . فقال : يا محمد ، اعدل . قال « ويلك ، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبتَ وخسرتَ ، إن لم أكن أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعني ، يا رسول الله ، فأقتل ، هـذا المنافق . فقال « معاذ الله ، أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي . إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن ، لايجاوز حناجرهم . يمرقون منه كما يمرق السهم من الرميّة » .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٩] .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ١٧ ونصه : عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين . تعير إلى هذا مرة ، وإلى هذا مرة » .

obeikandi.com

العائرة[1] بين الغنمين » والمريض متردّد بين الحياة والموت .

« فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً » بأن طبع على قلوبهم ، لعلمه تعالى بأنّه لا يؤثر فيها التذكير والإنذار .

وقال القاشانيّ : أى مرضاً آخر ـ حقداً وحسداً وغلّاً ـ بإعلاء كلمة الدين ، ونصرة الرسول والمؤمنين ـ ثم قال : والرذائل كلها أمراض القلوب ، لأنها أسباب ضعفها وآفتها فى أفعالها الخاصة ، وهلاكها فى العاقبة .

« وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : مُؤْلِمٌ ـ بكسر اللام ـ فعيل بمعنى فاعل ـ كسميع وبصير ـ

قال فى المحكم : الأليم من العذاب الذى يبلغ إيجاعه غاية البلوغ . ومنه . يُعلم وجه إيثاره فى عذاب المنافقين ـ على « العظم » المتقدم فى وصف عذاب الكافرين ـ ويؤيده : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »[2] .

« بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » الباء للسببيّة أو للمقابلة ـ أى بسبب كذبهم أو بمقابلته ـ وهو قولهم : ءامنا بالله وباليوم الآخر ، وهم غير مؤمنين . وفيه رمز إلى قبح الكذب ، وسماجته ، وتخييل أن العذاب الأليم لاحقٌ بهم من أجل كذبهم ـ مع إحاطة علم السامع بأنّ لحوق العذاب بهم من جهات شتى ـ ونحوه قوله تعالى « مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا »[3] ـ والقوم كفرة ـ وإنما خصّت الخطيئات استعظاماً لها ، وتنفيراً عن ارتكابها .

---

(١) العائرة : المترددة والحائرة لا تدرى أيهما تتبع . تَعِير أى تتردد وتذهب .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٥] .

(٣) [٧١ / نوح / ٢٥] ونصها: مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)

[١٢] (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ)

شروع فى تعديد بعض مِن مَساوئهم المتفرّعة ـ على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق ـ و « الفساد » خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به . ونقيضه « الصلاح » وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة . والفساد فى الأرض : تهييج الحروب والفتن ، لأن فى ذلك فسادَ مافى الأرض ، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس ، والزروع ، والمنافع الدينية والدنيوية . قال الله تعالى « وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ »(١) . «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ »(٢) ـ ومنه قيل لحربٍ كانت بين طيء : حرب الفساد ـ .

وكان إفساد المنافقين فى الأرض أنهم كانوا يُمالِئُون الكفار على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم ، وإغرائهم عليهم ، واتخاذِهم أولياء ، مع ما يدّعون فى السرّ إلى : تكذيب النبيّ ﷺ ، وجحد الإسلام ، وإلقاء الشبه ، وذلك مما يجرئُ الكفرة على إظهار عداوة النبيّ ﷺ ، ونصب الحرب له ، وطمعهم فى الغلبة . فلما كان ذلك من صنيعهم مُؤَدِّياً إلى الفساد ـ بتهييج الفتن بينهم ـ قيل لهم : لا تفسدوا ـ كما تقول للرجل : لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك فى النار ؛ إذا أقدم على ما هذه عاقبته ـ وقد قال تعالى « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ »(٣)

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٥] .

(٢) [٢ / البقرة / ٣٠] ونصها: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧٣] .

obeikandl.com

فأخبر أن موالاة الكافرين تؤدّى إلى الفتنة والفساد ، لِما تقدّم .

وقولهم « إنّما نحن مصلحون » أى : بين المؤمنين وأهل الكتاب . نُدارى الفريقين ونريد الإصلاح بينهما كما حكى الله عنهم أنهم قالوا « إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا »(١) . أو معناه : إنما نحن مصلحون فى الأرض بالطاعة والانقياد .

قال الراغب : تصوّروا إفسادهم بصورة الإصلاح ـ لِما فى قلوبهم من المرض ـ كما قال « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا »(٢) وقوله « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٣) وقوله « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا »(٤) .

وقال القاشانىّ : كانوا يَرَوْنَ الصلاح فى تحصيل المعاش ، وتيسير أسبابه ، وتنظيم أمور الدنيا ـ لأنفسهم خاصة ـ لتوغلهم فى محبّة الدنيا ، وانهماكهم فى اللذات البدنية ، واحتجابهم ـ بالمنافع الجزئية ، والملاذّ الحسية ـ عن المصالح العامّة الكلّيّة ، واللذات العقلية ؛ وبذلك يتيسر مرادهم ، ويتسهل مطلوبهم ، وهم لا يحسون بإفسادهم المدرك بالحسّ .

---

(١) [٤ / النساء / ٦٢] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا .

(٢) [٣٥ / فاطر / ٨] ونصها : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٤٣] ونصها : فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٤) [١٨ / الكهف / ١٠٤] ونصها : الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » بطريق الأمر بالمعروف ، إثر نهيهم عن المنكر ـ إتماماً للنُّصح ، وإكمالاً للإرشاد ـ « ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ » أى : الكاملون فى الإنسانية ، فإنّ المؤمنين هم الناس فى الحقيقة لجمعهم ما يُعدّ من خواصّ الإنسان وفضائله ـ « قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ » استفهام فى معنى الإنكار . و(السفه) خفّةٌ وسخافةُ رأى يورثهما : قصور العقل ، وقلّة المعرفة بمواضع المصالح والمضار ـ ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً »(١) . ـ

وإنما سفّهوهم ـ مع أنهم العقلاء المراجيح ـ لأنهم : لجهلهم ، وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم ، اعتقدوا أنّ ماهم فيه هو الحقّ ، وأنّ ما عداه باطل ـ ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً ـ ولأنهم كانوا فى رياسةٍ فى قومهم ، ويسار ؛ وكان أكثر المؤمنين فقراء ، ومنهم موالٍ ـ كصُهَيْب ، وبلال ، وخبّاب ـ فدعوهم سفهاء تحقيراً لشأنهم ! « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى

[١٤] ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا » أى : أظهروا لهم الإيمان ، والموالاة ، والمصافاة ـ نفاقاً ، ومصانعةً ، وتقيّةً وليشركوهم فيما أصابوا من خيرٍ ومغنم ـ .

(١) [٤ / النساء / ٥] .

واعلم أنّ مساق هذه الآية بخلاف ما سيقت له أوّل قصة المنافقين ، فليس بتكرير . لأنّ تلك فى بيان مذهبهم ، والترجمةِ عن نفاقهم ؛ وهذه لبيان تباينُ أحوالهم ، وتناقض أقوالهم ـ فى أثناء المعاملة والمخاطبة ـ حسب تباين المخاطبين !

« وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » يقال : خلوت بفلان وإليه أى : انفردت معه ؛ ويجوز أن يكون من خلا بمعنى : مضى ، ومنه : القرون الخالية . والمراد بـ « شَيَاطِينِهِمْ » : أصحابهم أولو التمرّد والعناد ؛ والشيطان يكون من الأنس والجنّ ، كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »(١) . وإضافتهم إليهم للمشاركة فى الكفر . واشتقاق شيطان مِن شطن ، إذا بعد ، لبعده من الصلاح والخير .

ومعنى « إِنَّا مَعَكُمْ » أى فى الاعتقاد على مثل ما أنتم عليه ، إنّما نحن فى إظهار الإيمان عند المؤمنين مستهزئون ساخرون بهم . والاستهزاء بالشىء السخرية منه . يقال : هزأت واستهزأت بمعنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » يسخر بهم للنقمة منهم ـ هكذا فسّره ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه الضحّاك ـ « وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » يزيدهم على وجه الإملاء ، والترك لهم فى عتوّهم وتمرّدهم ، كما قال تعالى « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »(٢) .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٠] .

و (الطغيان) المراد به هُنا : الغلو فى الكفر ومجاوزة الحد فى العتوّ . وأصل المادة هو المجاوزة فى الشىء ، كما قال تعالى « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ »(١) .

و (العمه) مثل العمى ـ إلّا أنّ العمى عامّ فى البصر والرأى ، والعمه فى الرأى خاصة ـ وهو التحيّر والتردّد ، لا يدرى أين يتوجه .

أى فى ضلالهم وكفرهم ـ الذى غمَرَهم دَنَسُهُ ، وعلاهم رِجْسُهُ ـ يتردّدون حيارى ، ضُلّالاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً .

والمشهور فتح الياء من « يمدّهم » ، وقرئ ـ شاذاً ـ بضمها ، وهما بمعنى واحد . يقال : مدّ الجيش وأمده ـ إذا زاده ، وألحق به ما يقوّيه ويكثره ـ وكذلك مدّ الدواة وأمدها زادها ما يصلحها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ » إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميِّزة لهم عمن عداهم أكمل تمييز ، بحيث صاروا كأنّهم حضّار مشاهدون على ماهم عليه . وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الشّرّ وسوء الحال ، ومحلُّه الرفع على الابتداء ، خبره قوله تعالى « الَّذِينَ اشْتَرَوُا » الخ . والجملة مَسُوقَةٌ لتقرير ماقبلها ، وبيانٌ لكمال جهالتهم ـ فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال ـ بإظهار غاية سماجتها ، وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز ـ فضلًا عن العقلاء ـ . و« الضلالة » الجور عن القصد ؛ و « الهُدَى » التوجّه إليه . وقد استعير الأول : للعدول عن الصواب فى الدين ، والثانى : للاستقامة عليه . و« الاشتراء » استبدال السلعة بالثمن ـ أى أخذها به ـ

(١) [٦٩ / الحاقة / ١١] .

فاشتراء الضلالة بالهدى مستعار لأخذها بدلًا منه أخذا منوطاً بالرغبة فيها والإعراض عنه.

فإن قيل : كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وما كانوا على هدى ؟

قلت : جعلوا لتمكُّنهم منه ـ بتيسير أسبابه ـ كأنه فى أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطّلوه ، واستبدلوها به ؛ فاستعير ثبوته لتمكُّنهم بجامع المشاركة فى استتباع الجدوى ، ولا مِرْيَةَ فى أنّ هذه المرتبة ـ من التمكُّن ـ كانت حاصلة لهم بما شاهدوه ـ من الآيات الباهرة ، والمعجزات القاهرة ـ من جهة النبىّ ﷺ .

« فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » عطف على الصلة داخل فى حيزها . والفاء للدلالة على ترتُّب مضمونه عليها . والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدِّى للبيع والشراء ، لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال ، وإسناد عدمه ـ الذى هو عبارة عن الخسران ـ إليها ؛ وهو لأصحابها ، من الإسناد المجازىّ وهو : أن يسند الفعل إلى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ـ كما تلبست التجارة بالمشترين ـ وفائدته : المبالغة فى تخسيرهم ، لِما فيه من الإشعار بكثرة الخسار ، وعمومه المستتبع ، لسرايته إلى ما يلابسهم .

فإن قلتَ : هب أنّ شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح ، والتجارة كأنّ ثَمّ مبايعة على الحقيقة ؟

قلتُ : هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تُساق كلمةٌ مساقَ المجاز ، ثم تقفَّى بأشكال لها ، وأخَواتٍ ـ إذا تلاحقن ـ لم ترَ كلاماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر ماءً ورونقاً ، وهو المجاز المرشَّح ؛ فإيرادها ـ إثْرَ الاشتراء ـ تصويرٌ لِمَا فاتهُم من فوائد الهدى بصورة خسار التجارة ـ الذى يتحاشى عنه كل أحدٍ ـ للإشباع فى التخسير والتحسير . وهذا النوع قريب من التتميم الذى يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء :

وإنّ صخراً لتأتمُّ الهُداةُ به ... كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارُ . . !

لَمَّا شبهتْه ـ فى الاهتداء به ـ بالعَلَم المرتفع ، أتبعتْ ذلك ما يناسبه ويحققِّه ، فلم تقنع بظهور الارتفاع حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر ، باشتعال النار فى رأسه .

وقوله : « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى : لزوال استمدادهم ، وتكدير قلوبهم بالرَّيْن الموجب للحجاب والحرمان الأبديّ .

قال الزمخشريّ : فإن قيل : لِمَ عطف بالواو عدم اهتدائهم على انتفاء ربح تجارتهم ، ورتّبا معاً بالفاء على اشتراء الضلالة بالهدى ؟ وما وَجْه الجمع بينهما ـ مع ذلك الترتيب ـ على أن عدم الاهتداء قد فُهم من استبدال الضلالة بالهدى ، فيكون تكراراً لِما مضى ؟

فالجواب : أن رأس مالهم هو الهدى ، فلمَّا استبدلوا به مايضادُّه ـ ولا يجامعه أصلًا ـ انتفى رأس المال بالكلية ، وحين لم يبق فى أيديهم إلا ذلك الضد ـ أعنى الضلالة ـ وصفوا بانتفاء الربح والخسارة . لأنَّ الضالّ فى دينه خاسرٌ هالكٌ ـ وإن أصاب فوائد دنيوية ـ ولأنَّ مَنْ لم يسلم له رأس ماله لم يوصف بالربح ، بل بانتفائه ؛ فقد أضاعوا سلامة رأس المال بالاستبدال ، وترتّب على ذلك إضاعة الربح .

وأما قوله : « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » فليس معناه عدم اهتدائهم فى الدين ـ فيكون تكراراً لما سبق ـ بل لَما وُصِفوا بالخسارة فى هذه التجارة أشير إلى عدم اهتدائهم لطرق التجارة ـ كما يهتدى إليه التجار البصراء بالأمور التى يربح فيها ويخسر ـ فهذا راجع إلى الترشيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)

ولما جاء بحقيقة صفتهم ، عقّبها بضرب المثل ـ زيادة فى الكشف ، وتتميماً للبيان ـ فقال تعالى : « مَثَلُهُمْ » أى : مثالهم فى نِفاقهم ، وحالهم فيه « كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ » أى أوقد « نَارًا » فى ظلمة ـ والتنكير للتعظيم ـ « فَلَمَّا أَضَاءَتْ » أى : أنارت النار

« مَا حَوْلَهُ » فأبصر ، واستدفأ ، وأمن مما يخافه « ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ » أى : أطفأ الله نَارَهُم ـ التى هى مدار نورهم ـ فبقوا فى ظُلْمَةٍ وخوف ـ وجمع الضمير مراعاة لمعنى الذى كقوله « وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا »(١) . « وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » ما حولهم ـ متحيّرين عن الطريق ، خائفين ـ فكذلك هؤلاء استضاؤوا قليلًا بالانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم ، حيث أمنوا على أنفسهم وما يتبعها . ثم وراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ـ ظلمة النفاق ـ التى ترمى بهم إلى ظلمة سخط الله ، وظلمة العقاب السرمد ؛ ومحصوله : أنهم انتفعوا بهذه الكلمة مدّة حياتهم القليلة ، ثم قطعه الله تعالى بالموت .

ونُقِلَ ـ عن كثيرٍ من السلف ـ تفسير آخر ، وهو : تمثيل إيمانهم أوّلًا ، ثم كفرهم ثانياً . فيكون إذهاب النور فى الدنيا ، كما قال تعالى « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا »(٢) الآية ، فلمّا آمنوا أضاء الإيمان فى قلوبهم ـ كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ناراً ـ ثمّ لمّا كفروا ، ذهب الله بنورهم : انتزعه ـ كما ذهب بضوء هذه النار ـ وعلى هذا فالتمثيل مرتبط بما قبله . فإنهم ـ لمّا وُصِفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ـ مثّل هداهم ـ الذى باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد ـ والضلالةَ ـ التى اشتروها وطبع بها على قلوبهم ـ بذهاب الله بنورهم ، وتركه إيّاهم فى الظلمات .

قال الزمخشرىّ فى الكشاف : واضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المُثُل

---

(١) [٩ / التوبة / ٦٩] ونصها : كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

(٢) [٦٣ / المنافقون / ٣] ونصها : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

والنظائر شأنٌ ليس بالخفىّ فى إبراز خبيّات المعانى ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيَّل فى صورة المحقَّق ، والمتوهَّم فى معرض المتيقَّن ، والغائب كأنَّه مشاهَد ــ وفيه تبكيتٌ للخصم الألدّ ، وقمعٌ لسورة الجامح الأبىّ .

ولأمرٍ ما ، أكثر الله ــ فى كتابه المبين ، وفى سائر كتبه ــ أمثالَه ، وفشت فى كلام رسول الله ﷺ ، وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ »(١) .

و (المَثَل) فى أصل كلامهم بمعنى : المِثْل وهو النظير . يقال : مِثْل ، ومَثَل ، ومثيل ـ كشِبه وشَبَه وشَبيه ـ ثم قيل للقول السائر الممثّل مضربه بمورده : مَثَل . ولم يضربوا مثلًا ، ولا رأوْه أهلًا للتسيير ولا جديراً بالتداول والقبول ، إلّا قولًا فيه غرابة من بعض الوجوه . ومن ثَمَّ حوفظ عليه ، وحُمِىَ من التغيير .

فإنه(٢) ــ لو غُيِّرَ ــ لربّما انتفى الدلالة على تلك الغرابة . وقيل: إنّ المحافظة على المثل إنّما هى بسبب كونه استعارة . فوجب لذلك أن يكون هو بعينه لفظ المشبه به . فإن وقع تغيير ، لم يكن مَثَلًا ، بل مأخوذاً منه ، وإشارة إليه ــ كما فى قولك : بالصيف ضيعتَ اللبن(٣) . بالتذكير .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٣] .

(٢) فى حاشية الجرجانىّ على الكشاف .

(٣) قال فى اللسان : ومن أمثالهم : الصيفَ ضيّعتِ اللبنَ . إذا فرّط فى أمره فى وقته . معناه طلبتِ الشىء فى غير وقته . وذلك أن الألبان تكثر فى الصيف . فيضرب مثلا لترك الشىء وهو ممكن ، وطلبه وهو متعذر . قال ذلك ابن الأنبارىّ .

وأول من قاله عمرو بن عمرو بن عُدَس لدَخْتَنُوسَ بنت لقيط : وكانت تحته ففركته . وكان موسرا . فتزوجها عمرو بن معبد ، وهو ابن عمها ، وكان شابا مقترا . فمرت به إبل عمرو فسألته اللبن فقال لها ذلك .

o p e n k a n a l . c o m

وقال بعضهم : قد استعير المثل للحال ، أو القصّة ، أو الصّفة ـ إذا كان لها شأن ، وفيها غرابة ـ كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الذى استوقد ناراً . وكذلك قوله « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »(١) أى ـ فيما قصصنا عليك من العجائب ـ قصة الجنة العجيبة الشأن ، ثمّ أخذ فى بيان عجائبها « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ »(٢) أى : الوصف الذى له شأنٌ من العظمة والجلالة . « مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ »(٣) أى : صفتهم وشأنهم المتعجّب منه .

ولِما فى المثل من معنى الغرابة قالوا : فلان مثلة فى الخير والشر ، فاشتقّوا منه صفةً للعجيب الشأن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ » الصمم : آفة مانعة من السماع ، سمّى به فقدان حاسّة السمع ، لما أنّ سببه اكتناز باطن الصّماخ ، وانسداد منافذه ، بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموّجه . والبكم : الخرس . والعمى : عدم البصر عمّا من شأنه أن يُبصر .

---

(١) [١٣ / الرعد / ٣٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ .

(٢) [١٦ / النحل / ٦٠] ونصها : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٣) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

وُصِفوا بذلك ـ مع سلامة حواسّهم المذكورة ـ لما أنّهم سدّوا عن الإصاخة إلى الحقّ مسامعَهم ، وأبَوْا أن يُنطِقوا به أَلْسِنَتَهم ، وأن ينظروا ويتبصّروا بعيونهم ، فجعلوا كأنما أصيب بآفةٍ مشاعرُهم ـ كقوله ـ :

صُمٌّ إذا سمِعُوا خيراً ذُكِرْتُ بِهِ وإن ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

وكقوله :

أصمُّ عن الشيءِ الذى لا أُرِيدُهُ وأَسْمَعُ خلقِ اللهِ حينَ أُرِيدُ

« فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى ـ بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة ـ لا يعودون إلى الهدى ـ بعد أن باعوه . أو عن الضلالة ـ بعد أن اشترَوْها . فالآية الكريمة تتمّةٌ للتمثيل بأنّ ما أصابهم ، ليس مجرّدَ انطفاء نارهم ، وبقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة ـ مع بقاء حاسة البصر بحالها ـ بل اختلّت مشاعرهم جميعاً ، واتصفوا بتلك الصفات فبقُوا جامدين فى مكانهم لا يرجعون ، ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخّرون ؟ وكيف يرجعون إلى ما ابتدأوا منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

« أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » تمثيل لحالهم إثْرَ تمثيلٍ ، ليعمّ البيانُ منها كلَّ دقيق وجليل ، ويوفى حقّها من التفظيع والتهويل . فإنّ تفنّنهم فى فنون الكفر والضلال حقيقٌ بأن يضرب فى شأنه الأمثال . وكما يجب على البليغ ـ فى مظانّ الإجمال والإيجاز ـ أن يجمل ويوجز ، فكذلك الواجب عليه ـ فى موارد التفصيل والإشباع ـ أن يفصّل ويشبع .

و« الصيّب » السحاب ذو الصوْب . والصوْب المطر . والمراد بالسماء : السحاب ، كما قال تعالى « ءَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ »(١) . وهى فى الأصل : كل ما علاك من سقف ونحوه .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٩] .

« فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ » التنوين فى الكل للتفخيم والتهويل ـ كأنه قيل : فيه ظلمات داجية ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف ـ « يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ » الصاعقة : الصوت الشديد من الرعدة يسقط معها قطعة نار تنقدح من السحاب ـ إذا اصطكت أجرامه ـ لاتأتى على شىء إلا أحرقته « حَذَرَ » ـ أى خوف ـ « الْمَوْتِ » ـ من سماعها ـ « وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » علماً وقدرة فلا يفوتونه . والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا ـ من سد الآذان بالأصابع ـ لا يغنى عنهم شيئاً ، فإن القدر لا يدافعه الحذر ، والحيل لا ترد بأس الله عز وجل . وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير ـ الراجع إلى أصحاب الصيب ـ الإيذان بأن ما دهمهم ـ من الأمور الهائلة المحكية ـ بسبب كفرهم ، فيظهر استحقاقهم شدة الأمر عليهم ، على طريقة قوله تعالى : « أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا »(١) فإن الإهلاك الناشىء عن السخط أشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ » استئناف آخر وقع جواباً عن سؤال مقدر ـ كأنه قيل : فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ فقيل : يكاد يخطف أبصارهم ، أى : يأخذها بسرعة « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ » أى : فى ضوئه « وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا » أى : وقفوا ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٧] ونصها : مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

وثبتوا فى مكانهم ـ ومنه : قامت السوق ، إذا ركدت وكسدت . وقام الماء ، جمد ـ وهذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين : بشدّته على أصحاب الصيّب ، وما هم فيه من غاية التحيُّر والجهل ـ بما يأتون وما يذرون ـ إذا صادفوا من البرق خفقةً ـ مع خوف أن يخطف أبصارهم ـ انتهزوا تلك الخفقة فرصةً ، فخَطَوْا خطواتٍ يسيرةً ، فإذا خفى ، وفتر لمعانه ، بقوا واقفين متقيدين عن الحركة « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ » أى : لزاد فى قصيف الرعد فأصمّهم ، أو فى ضوء البرق فأعماهم . ومفعول « شاء » محذوف ، لأنّ الجواب يدلّ عليه . والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها . ولقد تكاثر هذا الحذف فى « شاء » و « أراد » . لا يكادون يبرزون المفعول إلا فى الشىء المستغرب ـ كنحو قوله : فلو شئت أن أبكى دماً لبكيته(١) ؛ وقوله تعالى « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا »(٢) . « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تعليلٌ للشرطيّة ، وتقريرٌ لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق البرهانىّ .

تنبيهات :

الأول : محصول التمثيلين ـ غِبَّ وصف أربابهما بوقوعهم فى ضلالتهم التى استبدلوها بالهدى ـ هو أنه شبّه ، فى الأول ، حيرتهم وشدّةَ الأمر عليهم بما يكابد مَن طَفِئَت ناره بعد إيقادها فى ظلمة الليل . وفى الثانى : شبّه حالهم بحال مَنْ أخذتهم السماء فى ليلة تكاثف ظلماتها ـ بتراكم السحب ، وانتساج قطراتها ، وتواتر فيها الرعود الهائلة ، والبروق المخيفة ، والصواعق المختلفة المهلكة ، وهم فى أثناء ذلك يزاولون غمرات الموت . وبذلك يعلم أنّ التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة ، وهو الذى تقتضيه جزالة المعانى ـ لأنه يحصل فى النفس من تشبيه الهيئات المركبة مالا يحصل من تشبيه مفرداتها . فإنك إذا تصورت حال مَنْ طفِئَت ناره بعد إيقادها ... الخ ، وحالَ من أخذتهم السماء .. الخ حصل فى نفسك

(١) استشهد به فى الكشاف . وعجزه : عليه ولكن ساحة الصبر أوسع .
(٢) [٢١ / الأنبياء / ١٧] .

هيئة عجيبة توصلك إلى معرفة حال المنافقين ، على وجهٍ يتقاصر عنه تشبيه المنافق ـ فى التمثيل الأول ـ بالمستوقد ناراً ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانتفاء النار ؛ وتشبيه دين الإسلام ـ فى الثانى ـ بالصيّب ، وما يتعلق به ـ مِن شُبَهِ الكفار ـ بالظلمات، وما فيه ـ من الوعد والوعيد ـ بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة ـ من الإفزاع والبلايا والفتن ـ من جهه أهل الإسلام بالصواعق . وأيضاً فى تشبيه المفردات ، وطىّ ذكر المشبهات تكلّف ظاهر . وأيضاً فى لفظ (المثل) نوع إنباء عن التركيب ، إذ المتبادر منه القصة التى هى فى غرابتها كالمثل السائر ، وهى فى الهيئة المركبة دون كل واحد من مفرداتها . وأيضاً فى التمثيل المركب اشتمال على التشبيه فى المفردات إجمالاً ، مع أمر زائد : هو تشبيه الهيئة بالهيئة ، وإيذانه بأن اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئةٍ عجيبةٍ حقيقة بأن تكون مثلاً فى الغرابة .

التنبيه الثانى :

قال الإمام العلامة « ابن القيّم » فى كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)

« فى هذه الآية ، شبَّه ، سبحانه ، أعداءه المنافقين : بقومٍ أوقدوا ناراً لتضىء لهم ، وينتفعوا بها ، فلمّا أضاءت لهم النار ، فأبصروا فى ضوئها ما ينفعهم ويضرهم ، وأبصروا الطريق ـ بعد أن كانوا حيارى تائهين ـ فهم كقوم سَفْرٍ ضلّوا عن الطريق ، فأوقدوا النار لتضىء لهم الطريق ، فلما أضاءت لهم ـ فأبصروا وعرفوا ـ طَفِئت تلك الأنوار ، وبقوا فى الظلمات لا يبصرون ، قد سُدت عليهم أبواب الهدى الثلاث ـ فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب : مما يسمعه بإذنه ، ويراه بعينه ، ويعقل بقلبه ـ وهؤلاء قد سُدَّت عليهم أبواب الهدى : فلا تسمع قلوبهم شيئاً ، ولا تبصره ، ولا تعقل ما ينفعها . وقيل : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة مَن لا سمع له ، ولا بصر ، ولا عقل . والقولان متلازمان .

وقال فى صفتهم «فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» لأنهم قد رأوا فى ضوء النار ، وأبصروا الهدى ، فلمّا طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا . وقال سبحانه وتعالى «ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ» ولم يقل : ذهب نورهم ؛ وفيه سرّ بديع : وهو انقطاع سر تلك المعيّة الخاصة ـ التى هى للمؤمنين ـ من الله تعالى ، فإن الله تعالى مع المؤمنين [1] ، وإن الله مع الصابرين [2] ، و«إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» [3] . فذهاب الله بذلك النور : انقطاع المعيّة ـ التى خصّ بها أولياءه ـ فقطعها بينه وبين المنافقين ، فلم يبق عندهم ـ بعد ذهاب نورهم ـ ولا معهم ، فليس لهم نصيب من قوله «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا» [4]

---

(١) [٨ / الأنفال / ١٩] ونصها : إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٢/ البقرة/ ١٥٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

و [٢ / البقرة / ٢٤٩] ونصها: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

و [٨ الأنفال / ٤٦] ونصها: وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ =

ولا مِن « كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ »(١) .

وتأمّل قوله تعالى « أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » كيف جعل ضوءها خارجاً عنه ، منفصلاً ، ولو اتصل ضوؤها به ، ولا بسه ، لم يذهب ، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة ، وكان الضوء عارضاً والظلمة أصلية ، فرجع الضوء إلى معدنه ، وبقيت الظلمة فى معدنها ، فرجع كلٌّ منهما إلى أصله اللائق به : حجة من الله قائمة ، وحكمة بالغة ، تعرَّفَ بها إلى أولى الألباب من عباده .

وتأمّل قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » ولم يقل بنارهم ، ليطابق أول الآية ، فإن النار فيها إشراق وإحراق : فذهب بما فيها من الإشراق ـ وهو النور ـ وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق ـ وهو النارية ـ وتأمّل كيف قال « بِنُورِهِمْ » ولم يقل : بضوئهم ـ مع قوله « فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » ـ لأن الضوء هى زيادة فى النور ؛ فلو قيل : ذهب الله بضوئهم ، لأَوْهَمَ الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ؛ فلما كان النور أصلَ الضوء ، كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته ؛ وأيضاً فإنه أبلغ فى النفى عنهم ، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم ؛ وأيضاً فإن الله تعالى سمّى كتابه (نوراً) ، ورسوله ﷺ (نوراً) ، ودينه (نوراً) ، وهُداه (نوراً) ، ومن أسمائه (النور) ، والصلاة (نور) ؛ فذهابه سبحانه بهم : ذهابٌ بهذا كله . وتأمل مطابقة هذا المثل ـ لِمَا تقدمه من قوله « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »(٢) كيف

= الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٦٢] ونصها : قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦] .

obeikandi.com

طابق هذه التجارة الخاسرة التى تضمّنت هول الضلالة والرضاء بها ، وبدّل الهدى فى مقابلتها ، وهول الظلمات ـ التى هى الضلالة والرضاء بها ـ بدلاً عن النور ـ الذى هو الهدى والنور ـ فبدّلوا الهدى والنور ، وتعوّضوا عنه بالظلمة والضلالة . فيالها مِن تجارةٍ ما أخسرَها ، وصفقةٍ ما أشدَّ غبْنَها . وتأمّل كيف قال تعالى « ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ » فوحّده ثم قال « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ » فجمعها . فإن الحقّ واحد : هو صراط الله المستقيم ـ الذى لا صراط يوصل إليه سواه ـ وهو عبادته وحده لا شريك له ، بما شرعه على لسان رسوله ﷺ ، لا بالأهواء ، والبدع ، وطرق الخارجين عن مّا بعث الله به رسوله ﷺ ـ من الهدى ودين الحق ـ بخلاف طرق الباطل فإنها متعدّدة متشعّبة . ولهذا ، يُفرِدُ ، سبحانه ، الحق ، ويجمع الباطل ، كقوله تعالى « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ »(١) وقال تعالى « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ »(٢) فجمع سُبُل الباطل ، ووحدّ سبيل الحق . ولا يناقض هذا قوله « يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ »(٣) فإنّ تلك هى طُرُق مرضاته التى يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم ، فإنّ طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحدٍ ، وسبيلٍ واحدٍ ، وهى سبيله التى لا سبيل إليه إلا منها . وقد صحّ عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه خط خطًّا مستقيماً ، وقال(٤) « هذا سبيل الله »

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٦] .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى السنن فى المقدمة ، ١ ـ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ، حديث ١١ : عن جابر بن عبدالله قال: كنا عند النبىّ ﷺ . فخطّ خطًّا . وخطّ خطين =

ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، وقال « هذه سُبُل ، على كلّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه » ثم قرأ قوله تعالى « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وقد قيل : إنّ هذا مَثَلٌ للمنافقين ، وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام ، ويكون بمنزلة قول الله تعالى « كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ »(١) . ويكون قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » مطابقا لقوله تعالى « أَطْفَأَهَا اللَّهُ » ويكون تخييبهم ، وإبطال ما راموه ، هو : تركهم في ظلمات الحيرة ، لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه ، ولا يُبصرون سبيلاً ؛ بل هم « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ » . وهذا التقدير ـ وإن كان حقاً ـ ففي كونه مراداً بالآية نظر ، فإنّ السياق إنما قصد لغيره ، ويأباه قوله تعالى « فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » وموقدُ نارِ الحرب لا يضيء ما حوله أبداً . ويأباه قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » وموقد نار الحرب لا نور له . ويأباه قوله تعالى « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة ، إلى ظلمة الشك والكفر .

= عن يمينه . وخط خطين عن يساره . ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال « هذا سبيل الله » ثم تلا هذه الآية « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [٦ / الأنعام / ١٥٣]

(١) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

قال الحسن رحمه الله : هو المنافق أبصَرَ ثم عمى ، وعرف ثم أنكر . ولهذا قال « فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى لا يرجعون إلى النور الذى فارقوه . وقال تعالى فى حقّ الكفار « صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون » فسلب العقل عن الكفار ـ إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان ـ وسلب الرجوع عن المنافقين ـ لأنهم آمنوا ثمّ كفروا ـ فلم يرجعوا إلى الإيمان.

فصل

ثم ضرب الله ، سبحانه ، لهم مثلاً آخرَ مائياً ، فقال تعالى « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » . فشبّه نصيبهم ـ مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ ـ من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التى طَفِئت عنه أحوجَ ما كان إليها ، وذهب نوره ، وبقى فى الظلمات حائراً ، تائهاً ، لا يهتدى سبيلاً ، ولا يعرف طريقاً ؛ وبنصيب أصحاب الصيّب ـ وهو المطر الذى يصوّب (أى ينزل) من علوّ إلى أسفل ـ فشبّه الهدى ـ الذى هدى به عباده ـ بالصيّب ، لأن القلوب تحيي به حياة الأرض بالمطر . ونصيب المنافقين من هذا الهدى ، بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيّب إلاّ ظلمات ورعد وبرق . ولا نصيب له ـ فيما وراء ذلك ـ مما هو المقصود بالصيّب ـ من حياة البلاد ، والعباد ، والشجر ، والدوابّ ؛ وأن تلك الظلمات التى فيه ، وذلك الرعد ، والبرق ، مقصود لغيره ، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيّب . فالجاهل ـ لفرط جهله ـ يقتصر على الإحساس بما فى الصيّب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من بردٍ شديد ، وتعطيل المسافر عن سفره ، وصانعٍ عن صنعته ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيّب من الحياة والنفع العام. وهكذا شأن كلّ قاصر النظَر ، ضعيف العقل ، لا يجاوز نظره الأمرَ المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كلّ محبوب . وهذه حال أكثر الخلق ـ إلّا مَن صحت بصيرته ـ

obeikandi.com

فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب ، والمشاقّ ، والتعرّض لإتلاف المهجة ، والجراحات الشديدة ، وملامة اللوّام، ومعاداة من يخاف معاداته ـ لم يقدم عليه . لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من المواقب الحميدة ، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون ، وفيها تنافس المتنافسون . وكذلك مَن عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام ، فلم يعلم ـ من سفره ذلك ـ إلّا مشقّة السفر ، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد ، وفراق المألوفات ؛ ولا يجاوز نظره وبصيرته آخِرَ هذا السفر ، ومآله ، وعاقبته ـ فإنه لا يخرج إليه ، ولا يعزم عليه . وحال هؤلاء ، حال الضعيفِ البصيرةِ والإيمان ، الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد ، والزواجر والنواهي ، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات ـ والفطام على الصبيّ أصعب شيء ، وأشقّه ـ والناس كلهم صبيان العقول ، إلّا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء ، وأدرك الحقّ علماً ، وعملًا ، ومعرفةً ؛ فهو الذي ينظر إلى ماوراء الصيّب ، وما فيه ـ من الرعد والبرق والصواعق ـ ويعلم أنّه حياة الوجود.

التنبيه الثالث :

قال القاشانيّ : « إنّما بولغ في ذكرِ فريقِ المنافقين ، وذمّهم ، وتعييرهم ، وتقبيح صورة حالهم ، وتهديدهم ، وإبعادهم ، وتهجين سيرهم وعاداتهم : لإمكان قبولهم للهداية ، وزوال مَرَضِهم العارض . عسى التقريع يكسر أعواد شَكائِمهم ، والتوبيخ يقلع أصول رذائلهم ، فتتزكّى بواطنُهم ، وتتنوّر قلوبهم ، فيسلكوا طريق الحقّ . ولعلّ موادعة المؤمنين ، وملاطفتهم إيّاهم ، ومجالستهم معهم ـ تستميل طباعهم ، فتهيج فيهم محبّةٌ ما ، وشوقا تلين به قلوبهم إلى ذكر الله ، وتنقاد به نفوسهم لأمر الله ، فيتوبوا ويصلحوا ، كما قال تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا »(١) .

---

(١) [٤ / النساء / ١٤٥و١٤٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ » لمّا ذكر الله علوّ طبقة كتابه الكريم ، وتحزّب الناس فى شأنه إلى ثلاث فرقٍ : مؤمنة به محافظة على مافيه من الشرائع والأحكام، وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق ؛ وما اختصت به كلّ فرقة مما يسعدها ويشقيها ، ويحظيها عند الله ويرديها ؛ أقبل عليهم بالخطاب ـ وهو من الالتفات المذكور عند قوله جلّ ذكره « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » ـ وهو فنّ من الكلام جزْلٌ ، فيه هزٌّ وتحريك من السامع ـ كما أنك إذا قلتَ لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما : إنّ فلاناً من قصته كيت وكيت ، فقصصتَ عليه ما فرط منه ، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث ، فقلت : يا فلان! مِن حقّك أن تلزم الطريقة الحميدة فى مجارى أمورك ، وتستوى على جادّة السّداد فى مصادرك ومواردك ـ نبهته بالتفاتك نحوه فضلَ تنبه ، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء ؛ وأوجدته ، بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازًّا من طبعه ، ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة . وهكذا الافتنان فى الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف ، يستفتح الآذان للاستماع ، ويستهش الأنفس للقبول . وإنما كثر النداء فى كتابه تعالى على طريقة (يا أيها الناس) لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد ، وأسبابٍ من المبالغة . كالإيضاح بعد الإبهام ، واختيار لفظ البعيد وتأكيد معناه بحرف التنبيه . ومعلوم أنّ كل مانادى الله له عباده : من أوامره ، ونواهيه ، وعظاته ، وزواجره ، ووعده ، ووعيده ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك . . . مما أنطق به كتابه ـ أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعانٍ علّمهم أن يتيقّظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون. فاقتضت الحال أن يُنادوا بالآكد الأبلغ ـ أفاده الزمخشرىّ ـ.

obeikandi.com

والمراد بالناس : كافة المكلفين ـ مؤمنهم وكافرهم ـ فطلبُ العبادة من المؤمنين طلبُ الزيادة فيها ، والثبات عليها ؛ ومن الكافرين ، ابتداؤها . « الَّذِي خَلَقَكُمْ » أنعم عليكم بإخراجكم من العدم إلى الوجود « وَ » ـ خلق ـ « الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى كى تتقون ، كقوله تعالى « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »(١) ، وقوله سبحانه « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »(٢) . وفى إيراد « لعلّ » تشبيه طلبه تعالى برجاء الراجى من المرجوّ منه أمراً هيّن الحصول . فإنّه تعالى لما وضع فى أيدى المكلفين زمام الاختيار ، وطلب منهم الطاعة ، ونصب لهم أدلّةً عقليّةً ونقليّةً داعية إليها ؛ ووعد ، وأوعد ، وألطف بما لايحصى كثرة ـ لم يبق للمكلف عذر ، وصار حاله فى رجحان اختياره للطاعة مع تمكنه من المعصية كحال المترجى منه فى رجحان اختياره لما يرتجى منه ـ مع تمكّنه من خلافه ـ وصار طلب الله تعالى لعبادته واتقائه بمنزلة الترجّى ـ فيما ذكرناه ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ،
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« الَّذِي جَعَلَ » ـ خلق ـ « لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا » بساطاً ومهاداً غير حزنة ، « وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » البناء ، فى الأصل ، مصدر سمى به المبنىّ ـ بيتاً كان ، أو قبّةً ، أو خباءً . قال بعض علماء الفلك فى معنى الآية : أى كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً . و « السماء » يُراد بها الجنس كالسموات ، والمعنىّ بها الكواكب السيارات ـ قال ـ : فجميع السموات

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .
(٢) [٦٧ / الملك / ٢] .

أو الكواكب كالبناء المرتبط بعضه ببعض من كلّ جهة ، المتماسك كأجزاء الجسم الواحد بالجاذبية التي تحفظ نظامها في مداراتها ، وهو جذب الشمس لها .

« وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أي : السحاب « مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » النهي متفرع على مضمون ذلك الأمر، كأنَّه قيل: إذا أُمِرتُم بعبادة مَنْ هذا شأنُه ـ من التفرّد بهذه الأفعال الجليلة ـ فلا تجعلوا له أنداداً شركاء في العبادة، أي أمثالًا تعبدونهم كعبادته ـ جمع ندّ . وهو المثل ، ولا يقال إلّا للمثل المخالف المناوئ ـ فإن قيل : كيف صلح تسميتها أنداداً وهم ما كانوا يزعمون أنها تخالفه وتناوئه ، بل كانوا يجعلونها شفعاء عنده ؟ . أجيب : بأنَّهم لما تقرَّبوا إليها ، وعظموها ، وسمَّوْها آلهة ـ أشبهت حالهم حالَ من يعتقد أنَّها آلهة مثله قادرة على مخالفته ، ومضادّته ، فقيل لهم ذلك على سبيل التهكُّم . وكما تهكَّم بهم بلفظ الندّ شنّع عليهم، واستفظع شأنهم ، بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصحُّ أن يكون له ندّ قط .

« وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ما بينه وبينها من التفاوت ، وأنها لا تفعل مثل أفعاله ، كقوله «هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ»[1]؛ أو وأنتم من أهل العلم والمعرفة ـ والتوبيخ فيه آكد ـ أي أنتم العرافون المميزون ، ثمَّ ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً ـ هو غاية الجهل ، ونهاية سخافة العقل .

ومما ينبغي التفطُّن له ـ في الاعتبار بهذه الآية ـ ما قاله الزمخشريّ : من أنَّه سبحانه وتعالى قدَّم من موجبات عبادته ، وملزمات حقِّ الشكر له : خَلْقَهُمْ أحياء قادرين أوّلا ـ لأنه سابقة أصول النعم ، ومقدِّمتها ، والسبب في التمكُّن من العبادة والشكر وغيرهما ـ ؛ ثمَّ خلق الأرض ـ التي هي مكانهم ، ومستقرُّهم الذي لابدَّ لهم منه ـ وهي بمنزلة عرصة المسكن، ومتقلَّبه ، ومفترشه ؛ ثمَّ خلق السماء ـ التي هي كالقبَّة المضروبة ، والخيمة المطنَّبة ـ على هذا القرار ؛ ثمَّ ما سوَّاه عزَّ وجلَّ من شبه عقد النكاح بين المُقِلَّة والمُظِلَّة .

(١) [٣٠ / الروم/ ٤٠]

بإنزال الماء منها عليها ، والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان ـ من ألوان الثمار ـ رزقاً لبنى آدم ، ليكون لهم ذلك معتبراً ، ومتسلقاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف . ونعمةً يتعرّفونها فيقابلونها بلازم الشكر ، ويتفكّرون فى خلق أنفسهم ؛ وخلق ما فوقهم وتحتهم ، وأنَّ شيئاً من هذه المخلوقات كلّها لا يقدر على إيجاد شىء منها ، فيتيقّنوا ـ عند ذلك ـ أن لا بُدَّ لها من خالق ـ ليس كمثلها ـ حتى لا يجعلوا المخلوقات له أنداداً ، وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر .

ونظير هذه الآية قوله تعالى « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(١) . فمضمونه أنّه الخالق ، الرازق ، مالك الدار وساكنيها، ورازقهم . فبهذا يستحقّ أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره .

ولمّا احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ، ويحققها . ويبطل الإشراك ، ويهدمه . وعلم الطريق إلى إثبات ذلك ، وتصحيحه . وعرّفهم أن مَن أشرك فقد كابر عقلَه ، وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه ـ عطف على ذلك ماهو الحجّة على إثبات نبوّة محمد ﷺ ، وما يدحض الشبهة فى كون القرآن معجزة ، وأراهم كيف يتعرّفون : أهو من عند الله ـ كما يدّعى ـ أم هو من عند نفسه ـ كما يدّعون ـ ؟ بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ، ويذوقوا طباعهم ، وهم أبناء جنسه ، وأهل جلدته . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا » ـ أى من القرآن الذى نزّلناه ـ « عَلَىٰ

---

(١) [٤٠ / غافر / ٦٤] .

عَبْدِنَا » محمد ﷺ أنه من عند الله تعالى ، والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب ـ مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر ـ كما يعرب عنه قوله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » إمّا للإيذان بأنّ أقصى ما يمكن صدوره عنهم ـ وإن كانوا فى غاية ما يكون من المكابرة والعناد ـ هو الارتياب فى شأنه (وأما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال ، كما أنّ تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقّه أن يكون ضعيفاً مشكوكَ الوقوع) وإمّا للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ، ونهاية قوّتها . وإنّما لم يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا ... الخ ، لِمَا أشير إليه ـ فيما سلف ـ من المبالغة فى تنزيه ساحة التنزيل عن شائبه وقوع الريب فيه ـ حسبما نطق به قوله تعالى « لَا رَيْبَ فِيهِ » ـ والإشعار بأن ذلك ـ إنْ وقع ـ فمن جهتهم لا مِنْ جهته العالية . واعتبار استقرارهم فيه ، وإحاطته بهم ، لا ينافى اعتبار ضعفه وقلّته : لِمَا أنّ ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به ، لا قلّته ولا كثرته . وفى ذكره ﷺ بعنوان العبودية ، مع الإضافة إلى ضمير الجلالة ـ من التشريف ، والتنويه ، والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ ، وانقياده لأوامره تعالى ـ ما لا يخفى . والأمر فى قوله تعالى : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ » من باب التعجيز وإلقام الحجر، كما فى قوله تعالى « فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ »(١)، أو من باب المجاراة معهم ـ بحسب حسبانهم ـ حيث كانوا يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا . و « السورة » الطائفة من القرآن العظيم المترجمة ، وأقلّها ثلاث آيات ، وواوها أصلية . منقولة من سور البلد ـ لأنها محيطةٌ بطائفةٍ من القرآن مفرزةٍ ، مُحوزَةٍ . أو محتويةٌ على فنونٍ رائقة من

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

العلوم ، احتواءَ سور المدينة على ما فيها . أو من السورة التى هى الرتبة . فإن سُوَرَ القرآن مع كونها فى أنفسها رتباً ـ من حيث الفضل والشرف ، أو من حيث الطول والقصر ـ فهى من حيث انتظامها مع أخواتها فى المصحف : مراتب يرتقى إليها القارىء شيئاً فشيئاً . و « من » فى قوله تعالى « مِنْ مِثْلِهِ » بيانيّة متعلقة بمحذوف صفة لسورة ، والضمير « لما نزلنا » أى بسورةٍ كائنةٍ من مثله فى علو الرتبة ، وسموّ الطبقة ، والنظم الرائق ، والبيان البديع ، وحيازة سائر نعوت الإعجاز . وقيل « من » زائدة ـ على ما هو رأى الأخفش ـ بدليل قوله تعالى « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ »(١) « بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ »(٢) .

وقوله تعالى « وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ » إرشادٌ لهم إلى إنهاض أمّةٍ جمّةٍ ، ليحتشدوا فى حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم ، ويتعاونوا على الإتيان بقدرٍ يسير مماثل فى صفات الكمال لما أتى بجملته واحدٌ من أبناء جنسهم . وهذا كقوله تعالى فى سورة هود « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٢) و « الشهداء » جمع شهيد ، بمعنى : الحاضر ، أو القائم بالشهادة ، أو الناصر . و « من » لا بتداء الغاية متعلّقة بـ « ادعوا » والظرف مستقرّ . والمعنى : ادعوا ، متجاوزين الله تعالى للاستظهار ، مَنْ حضركم ـ كائناً من كان ـ أو الحاضرين فى مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم ـ الذين تفزعون إليهم فى الملمات ، وتعوّلون عليهم فى المهمّات ـ أو القائمين بشهاداتكم الجارية فيما بينكم ـ من

(١) [١٠ / يونس / ٣٨] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) [١١ / هود / ١٣] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

أمنائكم المتولّين لاستخلاص الحقوق ، بتنفيذ القول عند الولاة ـ أو القائمين بنُصْرتكم ـ حقيقةً أو زعماً ـ من الإنس والجنّ ليعينوكم . وإخراجه ، سبحانه وتعالى ، من حكم الدعاء فى الأوّل ـ مع اندراجه فى الحضور ـ لتأكيد تناوله لجميع ما عداه ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه ؛ فإنّ ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه . وأمّا فى سائر الوجوه : فللتصريح من أوّل الأمر ببراءتهم منه تعالى ، وكونهم فى عدوة المحادّة والمشاقة له ، قاصرين استظهارهم على ما سواه ؛ والالتفات لإدخال الروعة ، وتربية المهابة « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى زعمكم أنه من كلامه ﷺ ، واستلزام المقدّم للتالى من حيث أنّ صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله ، بقضية مشاركتهم له ﷺ فى البشرية والعربية ، مع ما بِهِم من طول الممارسة للخطب والأشعار ، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، لا سيما عند المظاهرة والتعاون ـ ولا ريب فى أن القدرة على الشىء مِن موجبات الإتيان به ، ودواعى الأمر به ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

« فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا » أى : ما أمرتم به من الإتيان بالمثل ، بعد ما بذلتم فى السعى غاية المجهود « وَلَنْ تَفْعَلُوا » اعتراض بين جزأى الشرطية ، مقررٌ لمضمون مقدمها ، ومؤكدٌ لإيجاب العمل بتاليها ، وهى معجزة باهرة : حيث أخبر بالغيب الخاص ـ علمه به عز وجل ـ وقد وقع الأمر كذلك « فَاتَّقُوا النَّارَ » جواب للشرط ، على أن اتقاء النار كنايةٌ عن الاحترازِ من العناد ، إذ ـ بذلك ـ يتحقّق تسبُّبه عنه ، وترتبه عليه ، كأنه قيل : فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله ـ كما هو المقرر ـ فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه ، فإنه مستوجب للعقاب بالنار ، لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنيّة على

تصوير العناد بصورة النار ، وجَعْلِ الاتصاف به عين الملابسة بها ، للمبالغة فى تهويل شأنه ، وتفظيع أمره ، وإظهار كمال العناية ـ بتحذير المخاطبين منه ، وتنفيرهم عنه ، وحثهم على الجدّ فى تحقيق المكنىّ به ـ وفيه من الإيجاز البديع مالا يخفى . حيث كان الأصل : فإن لم تفعلوا فقد صحّ صدقه عندكم ، وإذا صحّ ذلك كان لزومكم العناد ، وترككم الإيمان به ، سبباً لاستحقاقكم العقاب بالنار ، فاحترزوا منه واتقّوا النار «الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» صفة للنار مورثةٌ لها زيادةَ هولٍ وفظاعة ـ أعاذنا الله منها برحمته الواسعة ـ و « الوقود » ماتوقد به النار ، وترفع من الحطب . وقُرِئَ بضمّ الواو ، وهو مصدرٌ سمّى به المفعول مبالغة ـ كما يقال : فلانٌ فَخْرُ قومه ، وزين بلده ـ فإن قيل: صلة الذى والتى يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب ، فكيف علم أولئك أنّ نار الآخرة توقد بالناس والحجارة ؟

قلت : لا يمتنع أن يتقدّم لهم بذلك سماع من آيات التنزيل المتقدّمة عليها ، أو من رسول الله ﷺ ، أو من أهل الكتاب . والمراد بالحجارة الأصنام، وبالناس أنفسهم ـ حسبما ورد فى قوله تعالى « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(١) فإنها مفسّرةٌ لما نحن فيه ـ وحكمة اقترانهم مع الحجارة فى الوقود : أنهم لمّا اعتقدوا فى حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستنفعون بهم ، ويستدفعون المضارّ عن أنفسهم بمكانهم ، جعلها الله عذابهم ، فقرنهم بها مُحماةً فى نار جهنم ـ إبلاغاً فى إيلامهم ، وإغراقاً فى تحسيرهم . ونحوه ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذهبهم وفضّتهم عدةً وذخيرة ، فشحّوا بها ، ومنعوها من الحقوق ، حيث يحمى عليها فى نار جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى جباههم وجنوبهم « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » هُيِّئَت لهم ، وجعلت عدةً لعذابهم . والمراد : إما جنس الكفّار ـ والمخاطَبُون داخلون فيهم دخولاً أوّليًّا ـ وإمّا هم خاصة ، ووضع الكافرين موضع ضميرهم ـ لذمّهم ، وتعليل الحكم بكفرهم ـ والجملة مستأنفة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، ومبيّنة لمن أريد بالناس ، دافعة لاحتمال العموم .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٩٨] .

(تنبيه) هـذه الآية الجليلة من جملة الآيات التى صدعت بتحدِّى الـكافرين بالتنزيل الـكريم . وقد تحدَّاهم الله تعالى فى غير موضع منه ، فقال فى سورة القصص « قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[١] . وقال فى سورة سبحان « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[٢] . وقال فى سورة هود « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[٣] . وقال فى سورة يونس « وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[٤] . وكل هذه الآيات مكيّة . ثمّ تحدَّاهم أيضاً فى المدينة بقوله « وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ ... إلى آخر هذه الآية »[٥] فعجزوا عن آخرهم : ـ وهم فرسان الـكلام ، وأرباب النظام ، وقد خُصوا من البلاغة والحـكم ، ما لم يخص به غيرهم من الأمم . وأوتوا من ذرابة اللسان ، ما لم يؤت إنسان . ومن فصل الخطاب ، ما يقيّد الألباب . جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقةً ، وفيهم غريزةً وقوّةً . يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويُدلون به إلى كل سبب . فيخطبون بديهاً فى المقامات وشديد الخَطْب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب . ويمدحون ، ويقدحون ، ويتوسلون ، ويتوصّلون ، ويرفعون ، ويضعون ، فيأتون بالسحر

---

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .
(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٨] .
(٣) [١١ / هود / ١٣] .
(٤) [١٠ / يونس / ٣٧و٣٨] .
(٥) [٢ / البقرة / ٢٣] .

الحلال ، ويطوّقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب . ويذهبون الإحَن ، ويهيجون الدِّمَن . ويُجرِّئون الجبان ، ويبسطون يدَ الجمد البنَان . ويصيّرون الناقصَ كاملا ، ويتركون النبيه خاملًا . منهم البدويّ: ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل ، والكلام الفخم ، والطبع الجوهريّ ، والمنزع القويّ . ومنهم الحضريّ : ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرُّف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية . وكلا البابين فلهما ــ فى البلاغة ــ الحجّة البالغة ، والقوّة الدامغة ، والقِدْح الفالج ، والمهيع الناهج . لا يشكّون أنّ الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قَدَحُوا فنونها ، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كلِّ بابٍ من أبوابها، وَعَلَوْا صرحاً لبُلوغ أسبابها ، فقالوا فى الخطير والمهين، وتفنّنوا فى الغثّ والسمين ، وتقاولوا فى القلّ والكثر ، وتساجلوا فى النظم والنثر ــ ومع هذا ــ فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم ، ولم ينهض ــ لمقدار أقصر سورة منه ــ ناهضٌ من بلغائهم، على أنّهم كانوا أكثر من حصى البطحاء ، وأوفر عددًا من رمال الدهناء، ولم ينبض منهم عرق العصبيّة مع اشتهارهم بالإفراط فى المضادّة والمضارّة ، وإلقائهم الشراشر على المُعَازّة والمُمارّة ، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخُطط، وركوبهم فى كل مايرومونه الشطَط : إن أتاهم أحدٌ بمفخرةٍ أتوْه بمفاخر ، وإنْ رماهم بمأثرةٍ رموْه بمآثر . وقد جرَّدَ لهم الحجّة أوّلًا ، والسيف آخراً ، فلم يعارضوا إلا السيف وحده . فما أعرضوا عن معارضة الحجّة إلا لعلمهم أنّ البحر قد زخر فطمّ على الكواكب، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب ؛ وبذلك يظهر أنّ فى قوله تعالى « وَلَنْ تَفْعَلُوا » معجزةً أخرى ، فإنهم ما فعلوا ، وما قدروا ، ومَن تعاطى ذلك من سخفائهم ــ كمسيلمة ــ كشف عواره لجميعهم.

قال الحافظ ابن كثير : ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة : ماذا أُنزل على صاحبكم فى هذه المدة ؟ فقال له عمرو : لقد

أُنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال: وماهى؟ فقال «وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أُنزل علىَّ مثلها . قال : وما هو ؟ فقال : يا وَبْرُ يا وَبْرُ[1] ! إنما أنت أُذنان وصدر . وسائرك حَفْر نَقْر ــ ثم قال ــ : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم إنى أعلم أنك تـكذب ! . .

وحيث عجز عرب ذلك العصر ، فما سواهم أعجز فى هذا الأمر . . ! وقد مضى ــ إلى الآن ــ أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، ولم يوجد أحدٌ من معاديه البلغاء إلا وهو مسلم ، أو ذو استسلام ؛ فدلَّ على أنه ليس من كلام البشر ، بل كلام خالق القُوَى والقُدَر ، أنزله تصديقاً لرسوله ، وتحقيقاً لمقوله . وهذا الوجه ــ أعنى بلوغه فى الفصاحة والبلاغة إلى حدٍّ خرج عن طوق البشر ــ كافٍ وحده فى الإعجاز ، وقد انضمَّ إليه أوجه :

(منها) : إخباره عن أمور مغيبة ظهرت كما أخبر . و (منها) كونه لا يملّه السمع مهما تكرر. و (منها) جمعه لعلوم لم تكن معهودة ، عند العرب والعجم. و (منها) إنباؤه عن الوقائع الخالية ، وأحوال الأمم . والحال أنَّ مَن أُنزل عليه ، ﷺ ، كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ ، لاستغنائه بالوحى ، وليكون وجه الإعجاز بالقبول أحرى . وبذلك يُعلم أنَّ القرآن أعظم المعجزات ، فإنَّه آية باقية مدى الدهر ، يشاهدها ــ كلَّ حين بعين الفكر ــ كلُّ ذى حِجْر . وسواه ــ من المعجزات ــ انقضت بانقضاء وقتها ، فلم يبق منها إلا الخبر.

وقد ذهب بعض علماء الشيعة ــ فى وجه إعجازه ــ إلى : كونه قاهراً لمن يقاومه ،

(١) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (ج ٤ ص ٥٤٧) بعد أن ساق هذا ، مانصه : الوَبْر دويبة تشبه الهرّ ، أعظم شىء فيه أذناه وصدره ، وباقيه دميم . فأراد مسيلمة أن يركّب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن ، فلم يَرُجْ ذلك على عابد الأوثان ، فى ذلك الزمان.

وغالباً على من يغالبه ، ونافذاً فى إزهاق ما يخالفه . وكونه مؤثراً فى إيجاد الأمة ، وبقاء الشريعة ، ونفوذ الحكم ، وثبوت الكلمة ، لِما جعل الله فيه من النور ، والهداية ، والرحمة . وعبارته : إنّ كلام الله تعالى يمتاز عن غيره بالنفوذ ، والغلبة فى هداية الخلق ، وإنشاء أمة مستقلّة ، وإبقاء شريعةٍ جديدة . وهى علامة كافية فى معرفة الكلمات الالآهية، والآيات السماوية . ثم قال : وخلاصة تقرير الدليل أن الكلام ـ الذى يتحدّى الداعى به ، وينسبه إلى الله ـ إذا ظهر منه التأثير التام فى هداية النفوس المستعدة الطالبة ، وقهر الأمم المنكرة المانعة ، فأوجدأمةً مستقلةً ناميةً ، وشريعةً جديدة باقية ، فلا يبق ثمّتَ شك أنه هو كلام الله النازل من السماء ، والقدرة الظاهرة منه هى القدرة التى منذ القديم ظهرت من المرسلين والأنبياء . وإلى هذه النكتة أشير فى قوله تعالى « يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ »(١) وقال تعالى « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ »(٢) وهذه العلامة لاتوجد إلّا فى كتب الله تعالى. ويتمكن كل إنسان أن يدركها ويفهمها منها. سواء كان عالـماً ، أو أمياً. عربياً ، أو عجمياً . شرقياً، أو غربياً ..! فمن الذى يشك أن بنى إسرائيل ما خرجوا عن ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ، وعن ذلّة العبودية إلى عزّ الاستقلال إلا بسبب التوراة ..؟! ومن الذى يجهل أن الأمم الأوروبية ما وصلوا إلى عبادة الله تعالى ـ بعد عبادة الأوثان ـ إلّا بواسطة الإنجيل ..؟! ومن الذى لا يعرف أن الأمم الكبرى ـ من حدود الشرق الأقصى إلى أقاصى إفريقيّة ـ ما خرجوا عن ربقة الوثنيّة ،

---

(١) [٨ / الأنفال / ٧] ونصها : وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٤٢ / الشورى/ ١٦] .

obeikandl.com

وعبادة النار إلى التوحيد وعبادة الله إلّا بهداية القرآن العظيم ؟ وما تحرروا عن أغلال العقائد الفاسدة ، والأعمال القبيحة ، وما وصلوا إلى الأخلاق الفاضلة ، والعقائد الصحيحة إلّا بنور هذا السِّفْرِ الكريم ..؟! ثم قال : والخلاصة إن هذه العلامة وهى هداية النفوس، وإيجاد الديانة الجديدة ـ بقهر الأديان القديمة ، وتبديل العوائد العتيقة ـ هى العلامة الظاهرة المميّزة بين الكلمات الالهية ! والمصنفات البشرية . حتى أن أوّل نفس أذعنت بحقيقة رسالة رسول ، وصدق شريعته ، لو لم تعرف فى نفسها هذه الهداية ، ولم تشعر فى ذاتها بهذه المغلوبية لما كانت أوّل مَن صدّقه ولبّاه ، واتبعه وآساه ؛ فإن محبّة الدين القديم الموروث راسخةٌ فى جميع النفوس . والخوف من تبديل أركانه وآدابه متمكّنٌ فى أعماق القلوب . فالهِدايَةُ أظهر علامة فى صدق النبوة والرسالة ، إذ هى صفة الفعل ، ومرتبطة بالدعوة ـ كالإبراء للطب ، ومعرفة السطوح للهندسة ، والبيع والشراء للتجارة ، وصنع الأسرّة والأبواب وغيرها للنجارة ـ ثم قال : وإذا تصفّحت القرآن المجيد ، تجد أن الله تعالى استدلّ بها فى مواضع متعدّدة ، ووصف القرآن بأنه حجّة ـ بما أودع فيه من الهداية والرحمة ـ ولا ترى موضعاً واحداً وصفه بأنه أفصح الكتب وأبلغ الصحف ، فانظر فى قوله تعالى « فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ، أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ۞ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(١) . أترى أن الله تعالى ألجمهم بقوله : فأتوا بكتاب من عند الله هو أفصح منهما أو أبلغ منهما ؟ وكذلك لما انتقدوا على النبىّ ﷺ بعدم صدور معجزة منه كالمعجزات السالفة ، فقال تعالى « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ

(١) [٢٨ / القصص / ٤٨و٤٩] .

فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[١] فبين الله تعالى مزية القرآن على سائر المعجزات ، وكفايته عن غيره بأن فيه الذكرى والرحمة . وقال تعالى فى أول هذه السورة « الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » وماقال فيه فصاحة وبلاغة يعجز عن مثلها جميع العالمين . وذلك لأن الفصاحة والبلاغة من الأوصاف الخفية الغامضة الدقيقة ـ التى تختلف فيها الأذواق ، وتتشعّب فيها الآراء والأنظار ـ ولكن ما ظهر من الرسول عليه السلام ـ بسبب نزول القرآن عليه ـ من العلم والقدرة على هداية الأمم ، وإزالة أسقام أهل العالم ، وتأسيس الشريعة الإلهامية ، وإيجاد الأمة الإسلامية رغماً للأمم الكبرى ، ومبايناً للديانات العظمى : أمر ظاهر محسوس ، تصعب فيه المناقشة ، ولا تفيد معه المغالطة . فمن الذى يمكنه أن ينكر أن الأمم العظيمة ـ كالعرب ، والفرس ، والخزر ، والترك ، والهنود ، والصينيين ، وأهالى إفريقيّة ـ خرجوا من ظلمات الشرك ، وعبادة النار والأوثان ، وإنكار الأنبياء ؛ ودخلوا فى نور التوحيد ، وعبادة الله وحده ، والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه ، بنور الكتاب المبين ..!!

ـ كذا فى كتاب (الدرر البهية) لأبى الفضائل الإيرانىّ ـ ولا يخفى أن ما ذكره هو وجه متين ، ولكن لا يسوغ نفى ما عداه لأجله ، بل يجدر أن يضم إليها ، ويكون فى مقدمتها والله أعلم .

ثم إن من عادته تعالى ، فى كتابه ، أن يذكر الترغيب مع الترهيب ، ويشفع البشارة بالإنذار . وهذا معنى تسمية القرآن مثانى ـ على الأصح ـ وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر ـ أو عكسه ـ أو حال السعداء ثم الأشقياء ـ أو عكسه ـ وحاصله ذكر الشىء ومقابله . والحكمة فى ذلك : هى إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف ، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف . فلما ذكر الكفار وأعمالهم ، وأوعدهم بالعقاب ، قفّاه ببشارة عبادهِ الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة مِن فعل الطاعات وترك المعاصى ـ فقال عز وجلّ :

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » (البشارة) : الإخبار بما يظهر سرور المخبر به . ومنه البَشَرَة : لظاهر الجلد . وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه . وأمّا « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » فمن العكس فى الكلام الذى يقصد به الاستهزاء ـ الزائد فى غيظ المستهزأ به ، وتألّمه ، واغتمامه ـ ففيه استعارة أحد الضدّين للآخر تهكّماً وسخرية . و « الصالحات » ما استقام من الأعمال أى صلح لترتب الثواب عليه . وقد أجمع السلف على أنّ الإيمان : قولٌ وعملٌ ، يزيد وينقص . ثم إنه إذا أطلق دخلت فيه الأعمال ، لقول النبيّ ﷺ [١] :

« الإيمان بضع وستون شعبة ـ أو بضع وسبعون شعبة ـ أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبةٌ من الإيمان » .

وإذا عطف عليه ـ كما فى هذه الآية ـ فهنا ، قد يقال : الأعمال دخلت فيه ، وعطفت عطف الخاص على العام . وقد يقال : لم تدخل فيه ، ولكن مع العطف ـ كما فى اسم الفقير

(١) أخرجه ابن ماجه فى : المقدمة ، ٩ ـ باب فى الإيمان ، حديث ٥٧ (طبعتنا) ونصه: عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الإيمان بضع وستون أو سبعون بابا . أدناها إماطة الأذى عن الطريق . وأرفعها قول : لا إله إلا الله . والحياء شعبة من الإيمان » .

والمسكين . إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان ـ وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البرّ ، والتقوى ، والمعروف . وفي الإثم ، والعدوان ، والمنكر . تختلف دلالتها في الإفراد والاقتران لمن تدبّر القرآن .

وقد بيّن حديث جبريل أنّ الإيمان أصله في القلب ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ـ كما في المسند عن النبيّ ﷺ ـ أنّه قال(١) :

« الإسلام علانية والإيمان في القلب » .

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح(٢) :

« ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » .

فإذا كان الإيمان في القلب ، فقد صلح القلب . فيجب أن يصلح سائر الجسد ، فلذلك هو ثمرة ما في القلب . فلهذا قال بعضهم : الأعمال ثمرة الإيمان . وصحته ، لما كانت لازمةً لصلاح

---

(١) أخرجه الإمام أحمد : ج ٣ ص ١٣٥ (طبعة الحلبيّ) ونصه :
عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يقول « الإسلام علانية والإيمان في القلب » قال ، ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات . قال ، ثم يقول « التقوى ههنا . التقوى ههنا » .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٩ ـ باب فضل من استبرأ لدينه .
ونصه :
عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلال بيّن والحرام بيّن . وبينهما مُشبّهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه . ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد القلب كله . ألا وهي القلب » .

القلب، دخلت فى الاسم . كما نطق بذلك الكتاب والسنة فى غير موضع ، هذا ما أفاده الإمام ابن تيميّة رحمه الله .

وقوله تعالى « أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ » جمع (جَنّة) : وهى البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلّل بالتفاف أغصانه . وإنما سميت « دار الثواب » بها مع أنّ فيها مالا يوصف من الغرفات والقصور، لِما أنّها مناط نعيمها ، ومعظم ملاذّها . وجمعها مع التنكير : لاشتمالها على جِنانٍ كثيرةٍ فى كلٍّ منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها . وقوله « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » صفة جنّات ، ثم إن أريد بها الأشجار، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ؛ وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها ، فلابدّ من تقدير مضاف ـ أى من تحت أشجارها ـ وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار ، فاعتبار التحتيّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحّح لإطلاق اسم الجنّة على الكل ، وإنما جيءَ ذكر الجنات ـ مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية ـ لِما أنّ أنزهَ البساتين ، وأكرمَها منظراً ، ما كانت أشجاره مظلّلة ، والأنهار فى خلالها مطّردة ، وفى ذلك النعمة العظمى واللذة الكبرى . واللام فى الأنهار : للجنس ـ كما فى قولك : لفلان بستان فيه الماء الجارى ـ أو للعهد . والإشارة إلى ما ذكر فى قوله تعالى « فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ... »(١) الآية .

« كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا » ـ أى : أُطعموا من تلك الجنات ـ « مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ » ـ أى: مثل الذى رزقناه من قبل هذا الذى أحضر إلينا ـ فالإشارة إلى المرزوق فى الجنّة لتشابه ثمارها. بقرينة قوله « وَأُتُوا بِهِ » ـ أى : أتتهم الملائكة والولدان

---

(١) [٤٧ / محمد / ١٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

برزق الجنّة ـ « مُتَشَابِهاً » يشبه بعضه بعضاً لوناً ، ويختلف طعماً ، وذلك أجْلَبُ للسرور ، وأَزْيَدُ فى التعجُّب ، وأَظْهَرُ للمزّية ، وأَبْيَنُ للفضل . وترديدهم هذا القول ، ونطقهم به ـ عند كلّ ثمرةٍ يُرزَقونها ـ دليل على تناهى الأمر فى استحكام الشَّبَه ، وأنه الذى يستملى تعجُّبهم ، ويستدعى استغرابهم ، ويفرط ابتهاجهم . فإن قيل: كيف موقع قوله « وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً » من نظم الكلام ؟ قلت : هو كقولك : فلان أحسن بفلان ، ونعم ما فعل . ورأي من الرأى كذا ، وكان صواباً . ومنه قوله تعالى « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ »(١) . وما أشبه ذلك من الجمل التى تساق فى الكلام معترضة للتقرير .

« وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » من الحيض والاستحاضة وما لا يختصّ بهنّ من الأقذار والأدناس ـ ويجوز ، لمجيئه مطلقاً ، أن يدخل تحته الطهر من دَنَس الطباع، وسوء الأخلاق وسائر مثالبهنّ وكيدهنّ .

وقوله تعالى « وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » هذا هو تمام السعادة ؛ فإنّهم ـ مع هذا النعيم ـ فى مقامٍ أمينٍ من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء . بل فى نعيمٍ سرمديٍّ أبديٍّ على الدوام . والله المسؤول أن يحشرنا فى زمرتهم. إنه البرّ الرحيم .

ولمّا ضرب تعالى ـ فيما تقدم ـ للمنافقين مَثَلَيْن : فى قوله « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ... الخ » وقوله « أَوْ كَصَيِّبٍ ... الخ » إلى أمثالٍ أخرى تقدَّمت على نزول هذه السورة ، من السُّوَر المكية ، ضربت للمشركين ـ نبّه تعالى إلى موضع العبرة بها ، والحكمة منها، وتضليلِ مَن لا يقدّرها قدرها ـ ممَّن يتجاهل عن سِرِّها ، ويتعامى عن نورها ، ويحول دون الاهتداء بها ، والأخذ بسببها ـ فقال سبحانه :

---

(١) [٢٧ / النمل / ٣٤] ونصها : قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » أى : يذكر مثلًا ما . يقال : ضرب مثلًا ، ذكره ، فيتعدّى لمفعولٍ واحد . أو صيّر ، فلمفعولَيْن .

قال أبو إسحاق فى قوله تعالى « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا »(١) أى : اذكر لهم . وعبارة الجوهرىّ : ضرب الله مثلًا أى وَصَفَ وبَيَّن . وفى شرح نظم الفصيح : ضرب المثل: إيراده ليمتثل به ، ويتصوّر ما أراد المتكلم بيانه للمخاطب . يقال : ضرب الشيء مثلاً ، وضرب به ؛ وتَمَثَّله ، وتمثّل به . ثم قال : وهذا معنى قول بعضهم : ضرب المثل اعتبار الشيء بغيره، وتمثيله به. و«ما» هذه اسميّة إبهاميّة ، وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً، وزادته شياعا وعموماً ـ كقولك : أعطنى كتاباً مّا ، تريد أىّ كتاب كان ـ كأنه قيل : مثلاً مّا من الأمثال أىّ مثل كان . فهى صفة لما قبلها . أو حرفية مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها ـ كما فى قوله تعالى « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ »(٢) ـ كأنه قيل: لا يستحيي أن يضرب مثلاً حقًّا ، أو البتّة .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٣٢] ونصها : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا .

و [٣٦/ يس/ ١٣] ونصها: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ =

و « بعوضة » بدل من « مثلاً » . أو هما مفعولا « يضرب » لتضمّنه معنى الجعل والتصيير . ومعنى الآية : إنه تعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ، تَرْكَ من يستحيي أن يتمثّل بها لحقارتها . أي لا يستصغرُ شيئاً يضرب به مثلاً ـ ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة ـ كما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها . كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله « يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »(١) وقال « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »(٢) وغيرذلك من أمثال الكتاب العزيز . فما استنكره السُّفهاء وأهلُ العناد والمِراء ، واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل ـ ليس بموضعٍ للاستنكار والاستغراب . مِنْ قِبَلِ أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهَّم من المشاهَد . فإن كان المتمثّل له عظيماً ، كان المتمثّل به مثله . وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك . فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذاً ، إلّا أمراً تستدعيه حال المتمثَّل له وتستجرّه إلى نفسها ، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضيّة . الا ترى إلى الحقّ لما كان واضحاً ، جلياً أبلج ، كيف تمثّل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضدّ صفته ، كيف تمثل له بالظلمة ؟ أفاده الزمخشريّ .

« فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا » شروع في تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم إثر

= وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] .

تحقيق حقية صدوره عنه تعالى ـ أى : فأمّا المؤمنون « فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » ـ كسائر ما وَرَد منه تعالى ـ والحقّ هو الثابت الذى لا يسوغ إنكاره . وذلك لأن التمثل به مسوق على قضيّة مضربه ، ومحتذى على مثالِ ما يستدعيه ـ كما جعل بيت العنكبوت مثل الآلهة التى جعلها الكفّار أنداداً لله تعالى ـ وجعلت أقلّ من الذباب ، وأخسّ قدراً . وضربت لها البعوضة فما دونها مثلاً ، لأنه لاحال أحقر من تلك الأنداد وأقلّ ..! فالمؤمنون ـ الذين عادتهم الإنصافُ ، والعملُ على العدل والتسوية ، والنظرُ فى الأمور بناظر العقل ـ إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنّه الحقُّ الذى لا تمرّ الشبهة بساحته ، والصوابُ الذى لا يرتع الخطأ حوله « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » مِمَّن غلبهم الجهل على عقولهم ، وغشيهم على بصائرهم ـ فلا يتفطّنون ، ولا يلقون أذهانهم . أو عرفوا أنّه الحق ، إلّا أنّ حب الرياسة ، وهوى الإلف والعادة ، لا يخليهم أن يُنْصِفُوا « فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا » أى : فإذا سمعوه عاندوا ، وكابروا ، وقضَوْا عليه بالبطلان ، وقابلوه بالإنكار . وَلاَ خفاء فى أنّ التمثيل بالبعوضة وبأحقر منها ـ مما لا تغبى استقامته وصحته على من به أدنى مسكة . ولكنّ ديدن المحجوج المبهوت الذى لا يبقى له متمسك بدليل ، ولا متشبّث بأمارة ولا إقناع ، أن يرمى لفرط الحيرة ، والعجز عن إعمالِ الحِيلَةِ ، بدفع الواضح ، وإنكار المستقيم ، والتعويل على المكابرة والمغالطة ـ إذا لم يجد سوى ذلك معوّلاً . « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا » جوابٌ عن تلك المقالة الباطلة ، وردّ لها ببيان أنه مشتملٌ على حكمةٍ جليلةٍ ، وغاية جميلة ، هى كونه ذريعة إلى هدايةِ المستعدّين للهداية ، وإضلال المنهمكين فى الغواية . وقدّم الإضلال على الهداية ـ مع تقدّم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ، ليكون أول مايقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيعاً يسوؤهم ، ويفت فى أعضادهم ، وهو السرّ فى تخصيص هذه الفائدة بالذكر « وَمَا يُضِلُّ بِهِ » أى بالمثل أو بضربه « إِلَّا الْفَاسِقِينَ » تكملة للجواب والردّ ، وزيادة تعيين لمن أريد إضلالهم ، ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

« الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ » صفة للفاسقين، للذم . و « العهد » الذى وصفوا بنقضه : هو وصيّة الله إلى خلقه ، وأمره إيّاهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إيّاهم عمّا نهاهم عنه من معصيته ـ فى كتبه ، وعلى لسان رسله ـ ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » عامٌّ فى كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى : كقطع الرحم ، والإعراض عن موالاة المؤمنين ، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب فى التصديق ، وسائر مافيه رفض خيرٍ أو تعاطى شرّ ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التى هى المقصودة بالذات من كلّ وصل وفصل « وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » بالمنع عن الإيمان ، والاستهزاء بالحقّ ، وقطع الوُصَل التى بها نظام العالم وصلاحه « أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » لأنّهم استبدلوا النقضَ بالوفاء ، والقطعَ بالوصل ، والفساد بالصلاح ، وعقابها بثوابها . وهذه الصفات المسوقة فى الآية صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين ، كما قال تعالى فى سورة الرعد : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ »(١) الآيات ـ إلى أن قال ـ : « وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »(٢) .

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٩ و٢٠ و٢١] .

(٢) [١٣ / الرعد / ٢٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ » التفات إلى خطاب المذكورين، مبنىٌّ على إيراث ما عدّد من قبائحهم السابقة ، لتزايد السخط الموجب المشافهة بالتوبيخ والتقريع . والاستفهام إنكارىّ بمعنى إنكار الواقع ، واستبعاده ، والتعجيب منه ، لأن معهم مايصرف عن الكفر ، ويدعو إلى الإيمان « وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا » أجساماً لا حياةَ لها ـ عناصر ، وأغذية ، ونطفاً ، ومضغاً مخلَّقةً وغير مخلَّقة ـ وإطلاق الأموات على تلك الأجسام الجمادية ، إمَّا حقيقة ـ بناء على أنّ الميت عادم الحياة مطلقاً ، كما فى قوله تعالى « بَلْدَةً مَيْتاً »(١) و « وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ »(٢) . أو استعارة ، جرياً على أنّ إطلاق الميت فيما تصح فيه الحياة ، لاجتماعهما فى أن لا روح ولا إحساس . « فَأَحْيَاكُمْ » بخلق الأرواح ، ونفخها فيكم . وإنما عطفه بالفاء لأنه متصل بما عطف عليه ، غير متراخٍ عنه، بخلاف البواقى « ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » عند تقضى آجالكم « ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » بالنشور ، والبعث ، للحساب والجزاء « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ـ بعد الحشر ـ فيجازيكم بأعمالكم : إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ . فما أعجب كفركم مع علمكم بحالتكم هذه ..!

فإن قيل : إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم ، لم يعلموا أنَّه يُحْيِيهم ثم إليه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٤٩] ونصها : لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا .

و [٥٠ /ق / ١١] ونصها: رِزْقًا لِلْعِبَادِ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا، كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ .

(٢) [٢٦ / يس / ٣٣] ونصها : وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ .

يرجعون ، فكيف نظم ما ينكرونه ، من الإحياء الأخير والرجع ، في سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة ..؟

قلتُ : تمكّنهم من العلم بهما ـ لما نصب لهم من الدلائل ـ منزل منزلة علمهم في إزاحة العذر . سيّما وفي الآية تنبيه على مايدلّ على صحتهما . وهو أنّه تعالى لما قدر على إحيائهم أولاً ، قدر على أن يحييهم ثانياً . فإنّ بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته ..! أو الخطاب ، مع أهل الكتابَيْن . وإنكار اجتماع الكفر ـ مع القصة التي ذكرها الله تعالى ـ إمّا لأنها مشتملة على آيات بيّنات تصرفهم عن الكفر ، أو على نعمٍ جسامٍ حقّها أن تُشكر ولا تكفر . أو لإرادة الأمرين جميعاً . فإنّ ما عدّده آيات ، وهي ـ مع كونها آيات ـ من أعظم النعم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » بيان نعمةٍ أخرى مرتبةٍ على الأولى ، فإنها خلقهم أحياء قادرين مرّة بعد أخرى . وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ، ويتمّ به معاشهم . ومعنى « لكم » لأجلكم ، ولانتفاعكم . وفيه دليل على أنّ الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل . ولا فرق بين الحيوانات وغيرها ، مما ينتفع به من غير ضرر . وفي التأكيد بقوله « جميعاً » أقوى دلالة على هذا . « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » قال أبو العالية الرياحي : استوى إلى السماء أي : ارتفع . نقله عنه البخاريّ في صحيحه[1] ، ورواه محمد بن جرير الطبريّ[2] في تفسيره عن الربيع بن أنس .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم .

(٢) جزء أول ص ٤٢٩ (طبعة المعارف) .

وقال البغوىّ : قال ابن عباس وأكثر المفسّرين : ارتفع إلى السماء . وقال الخليل بن أحمد فى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » : ارتفع . رواه أبو عمرو ابن عبد البر فى شرح الموطّأ ، نقله الذهبىّ فى كتاب العلوّ ـ . وقد استدل بقوله « ثُمَّ اسْتَوَىٰ » على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، وكذلك الآية التى فى (حم السجدة) . وقوله تعالى فى سورة (والنازعات) « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا »(١) إنما يفيد تأخّر دحوّها ، لا خلْق جرمها ؛ فإنّ خلق الأرض وتَهْيِئَتَها ـ لما يراد منها ـ قبل خلق السماء . ودحوّها بعد خلق السماء . والدحوّ هو البسط ، وإنبات العشب منها ، وغير ذلك . مما فسّره قوله تعالى « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا »(٢) الآية ـ وكانت قبل ذلك خربة وخالية . على أنّ « بعد » تأتى بمعنى « مع » كقوله « عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ »(٣) أى : مع ذلك، فلا إشكال . وتقديم الأرض ـ هنا ـ لأنها أدل لشدّة الملابسة والمباشرة . « فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ » أى : صيّرهن ، كما فى آية أخرى « فَقَضَاهُنَّ »(٤) .

(تنبيه) قال بعض علماء الفلك : السموات السبع ـ المذكورة كثيراً فى القرآن ـ هى هذه السيارات السبع . وإنما خصّت بالذكر ـ مع أن السيارات أكثر من ذلك ـ لأنها أكبر السيارات وأعظمها ؛ على أنّ القرآن الكريم لم يذكرها فى موضع واحد ـ على سبيل الحصر ـ فلا ينافى ذلك أنها أكثر من سبع .

وقال بعض علماء اللغة : إن العرب تستعمل لفظ سبع ، وسبعين ، وسبعمائة للمبالغة

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٠] .

(٢) [٧٩ / النازعات / ٣١] .

(٣) [٦٨ / القلم / ١٣] .

(٤) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

فى الكثرة . فالعدد إذن غير مراد . ومنه آية « سَبْعَ سَنَابِلَ »(١) وآية « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ »(٢) وآية « سَبْعِينَ مَرَّةً »(٣) والله أعلم .

وذهب بعض علماء الفلك إلى أن الحصر فى السبع حقيقىّ ، وأن المرادَ به العالم الشمسىّ وحده دون غيره . وعبارته : إن قيل : إن كلّ ما يعلو الأرض ـ من الشمس والقمر والكواكب ـ هو سماء ، فلماذا خصّص تعالى عدداً هو سبع ؟ فالجواب : لا شكّ أنّه يشير إلى العالم الشمسىّ ـ الذى أحطنا الآن به علماً ـ وأنّ حصْر العدد لا يدل على احتمال وجود زيادة عن سبع ، لأن القول بذلك ، يخرج تطبيق القرآن على الفلك ، لأنّ العلم أثبتها سبعاً كالقرآن الذى لم يوجد فيه احتمال الزيادة ـ لأن الجمع يدخل فيه جميع العوالم التى لا نهاية لها ـ حتى يمكن أن يقال : إنّ سبعاً للمبالغة ـ كسبعين وسبعمائة ـ ولا يصحّ أن يكون العدد سبعة للمبالغة لأنه قليل جداً بالنسبة إلى العوالم التى تمد بالملايين ـ مثل العالم الشمسىّ ـ ويؤيد الحصرَ فى هذا العدد آيةُ « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا »(٤) فأخرج الشمس لأنها مركز،

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٧] ونصها : وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ٨٠] ونصها : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

(٤) [٧١ / نوح / ١٥و١٦] .

وأخرج القمر لأنه تابع للأرض ، ولم يبق بعد ذلك إلا سبع ..!

قال : وبذلك تتجلّى الآن معجزة واضحة جليّة . لأنه فى عصر التقدّم والمدنية العربية ، حينما كان العلم ساطعاً على الأرض بعلماء الإسـلام ، كان علماء الفلك لا يعرفون من السيارات إلّا خمساً ـ بأسمائها العربية إلى اليوم ـ وهى : عطارد ، الزهرة ، المريخ ، المشترى ، زحل . وكانوا يفسّرونها بأنها هى السموات المذكورة فى القرآن . ولمّا لم يمكنهم التوفيق بين السبع والخمس ، أضافوا الشمس والقمر لتمام العدد . مع أنّ القرآن يصرّح بأنّ السموات السبع غير الشمس والقمر . وذلك فى قوله تعالى « ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى »(١) فلفظ « وسخّر » دليل يفصل تعداد الشمس والقمر عن السبع السموات . ولذلك كان المفسّرون ـ الذين لا يعرفون الهيئة ـ لا يرون أن تعدّ الشمس سماء ، ولا القمر ، لعلمهم أن السموات السبع مسكونة . وأمّا الشمس فنارٌ محرقة . فذهبوا ـ فى تفسير السموات ـ على تلك الظنون . ولمّا اكتشف بعد (بالتلسكوب) سيّارٌ لم يكن معلوماً ، دعوه « أورانوس » ثم سيّار آخر سمّوه «نبتون» ـ صارت مجاميع السيارات سبعاً . فهذا الاكتشاف ـ الذى ظهر بعد النبيّ ﷺ بألف ومائتى سنة ـ دلّ على معجزة القرآن ، ونبوّة المنزّل عليه ﷺ .

ثم قال : وأمّا كون السموات هى السيارات السبع بدون توابعها ، فلا يفهم من الآية ، لأن الأقمار التى نثبتها ، والنجوم الصغيرة التى مع المريخ ، يلزم أن تكون تابعة للسموات السبع ـ لأنها تعلونا ـ وهى فى العالم الشمسىّ . وحينئذٍ ، فالسموات السبع هى مجاميع السيارات السبع . بمعنى : أن مجموعة زحل ـ بما فيها هو نفسه أى مع أقماره الثمانية ـ تعد سماء ، لأن فلكها طبقة فوق طبقةِ فلكِ مجموعة المشترى . ويدل على هذا

---

(١) [١٣ / الرعد / ٢] .

التطبيق قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ »(١) يشير إلى أن السماء الدنيا ـ أى السماء التى تلى الأرض ـ فلك المرّيخ . فهو وما حوله من النجوم العديدة التى تسمى مصابيح ، وتعتبر كلها سماء ، وليس السيّار نفسه ..! انتهى .

وقوله تعالى « وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » اعتراض تذييلىّ مقرر لما قبله ـ من خلق السموات والأرض وما فيها ـ على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الفائقة ، والمصالح اللائقة . فإن علمه عز وجل بجميع الأشياء يستدعى أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق .

ولما ذكر تعالى الحياة والموت ـ المشاهدَيْن ـ تنبيهاً على القدرة على ما اتبعهما به من البعث ، ثم دل على ذلك أيضاً بخلق هذا الكون كلّه على هذا النظام البديع ، وخَتَم ذلك بصفة العلم ـ ذكَرَ ابتداء خلق هذا النوع البشرىّ ـ المودع من صفة العلم ـ ماظهر به فضله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً ، قرناً بعد قرنٍ . كما قال تعالى « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ »(٢) وقال

---

(١) [٦٧ / الملك / ٥] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٥] ونصها : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ »(١) وقال « وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ »(٢) وقال « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ »(٣) . ويجوز أن يراد : خليفة منكم ، لأنهم كانوا سكان الأرض ، فخلفهم فيها آدم وذرّيته ؛ وأن يراد : خليفة مني ، لأن آدم كان خليفة الله في أرضه . وكذلك كل نبيّ « إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ »(٤) والغرض من إخبار الملائكة بذلك ، هو أن يسألوا ذلك السؤال ، ويُجابوا بما أجيبوا به ، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم ، صيانةً لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم ؛ أو الحكمة : تعليم العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم ـ وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة ـ أو تعظيم شأن المجعول ، وإظهار فضله ، بأن بَشَّرَ بوجود سُكّان ملكوته ، ونوّه بذكره في الملأ الأعلى قبل إيجاده ، ولقَّبه بالخليفة .

« قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » هذا تعجب من أن يستخلف ـ لعمارة الأرض وإصلاحها ـ من يفسد فيها ، واستعلامٌ عن الحكمة في ذلك . أي : كيف تستخلف هؤلاء ، مع أنّ

(١) [٢٧ / النمل / ٦٢] ونصها : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٠] .

(٣) [١٩ / مريم / ٥٩] ونصها : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٦] ونصها : يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك ، فنحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ـ أى ولا يصدر عنا شىء من ذلك ـ وهلّا وقع الاقتصار علينا ..؟ فقال تعالى مجيباً لهم « إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : إنّ لى حكمة ـ فى خلْق الخليقة ـ لا تعلمونها .

فإن قلتَ : من أين عرف الملائكة ذلك حتى تعجّبوا منه ، وإنما هو غيب ؟ أجيب : بأنهم عرفوه : إمّا بعلمٍ خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية . فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف « مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ »[1] أو فهموا من « الخليفة » أنه الذى يفصل بين الناس ، ما يقع بينهم من المظالم ، ويردَعُهم عن المحارم والمـآثم .

قال العلّامة برهان الدين البقاعىّ فى تفسيره : وما يقال من أنه كان قبل آدم ، عليه السلام ، فى الأرض خلقٌ يعصون ، قاس عليهم الملائكةُ حال آدم عليه السلام ـ كلامٌ لا أصل له . بل آدم أوّل ساكنيها بنفسه . انتهى .

وقوله تعالى « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ » أى : ننزّهك عن كل ما لا يليق بشأنك ، ملتبسين بحمدك ـ على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التى من جملتها توفيقنا لهذه العبادة .

وقوله « نقدّس لك » أى : نصفك بما يليق بك ـ من العلوّ والعزّة ـ وننزّهك عمّا لا يليق بك . وقيل : المعنى نُطهِّر نفوسنا عن الذنوب لأجلك . كأنهم قابلوا الفساد ، الذى أعظمه الإشراك ، بالتسبيح . وسفك الدماء ، الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم ، بتطهير النفس عن الآثام . لا تمدّحاً بذلك ، ولا إظهاراً للمنّة ، بل بياناً للواقع .

---

(١) [١٥/الحجر/٢٦] ونصها : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .
و [١٥/الحجر/٢٨] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .
و [١٥/الحجر/٣٣] قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .

تنبيهات

فى وجوه فوائد من الآية

الأول : دلت الآية على أن الله تعالى ـ فى عظمته وجلاله ـ يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته فى صنعه ، وما يخفى عليهم من أسراره فى خلقه ، لاسيّما عند الحيرة . والسؤال يكون بالمقال ، ويكون بالحال ، والتوجّه إلى الله تعالى فى إفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التى جرت سنته تعالى بأن يفيض منها ـ كالبحث العلمىّ ، والاستدلال العقلىّ ، والإلهام الإلهىّ ـ .

الثانى : إذا كان من أسرار الله تعالى ، وحكمه ، ما يخفى على الملائكة ، فنحن أولى بأن يخفى علينا ، فلا مطمع للإنسان فى معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها ، لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلًا . . !

الثالث : إنّ الله تعالى هدى الملائكة فى حيرتهم ، وأجابهم عن سؤالهم بإقامة الدليل ـ بعد الإرشاد ـ إلى الخضوع والتسليم . وذلك أنه ـ بعد أن أخبرهم بأنه يعلم مالا يعلمون ـ علّم آدم الأسماء ، ثم عرضهم على الملائكة ، كما سيأتى بيانه .

الرابع : تسلية النبىّ ﷺ ، عن تكذيب الناس ، ومحاجتهم فى النبوة بغير برهان ، على إنكار ما أنكروا ، وبطلان ما جحدوا . فإذا كان الملأ الأعلى قد مُثّلوا على أنهم يختصمون ، ويطلبون البيان والبرهان ، فيما لايعلمون ، فأجدرْ بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين . أى فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين . وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها . وكون الكلام لايزال فى موضوع الكتاب ، وكونه لا ريب فيه ؛ والرسولِ ، وكونه يبلغ وحى الله تعالى ، ويهدى به عباده ، واختلاف الناس فيها .

ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها . مع كون الجميع فى سياق موضوع واحد ، ـ كذا فى تفسير مفتى مصر ـ .

ولما بين سبحانه وتعالى لهم أولًا على وجه الإجمال والإبهام ، أن فى الخليفة فضائل غائبة عنهم ، ليستشرفوا إليها ، أبرز لهم طرَفاً منها ، ليعاينوه جهرة ، ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته ، وتنزاح شبهتهم بالكلية ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

« وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » إما بخلق علم ضرورىّ بها فيه ، أو إلقاء فى رُوعه .

وآدم اسم عبرانىّ مشتق من أَدَمَه ، وهى لفظة عبرانية معناها التراب ، لأنه جُبل من تراب الأرض . كما أن حوّاء كلمة عبرانية معناها « حىّ » ، وسميت بذلك لأنها تكون أم الأحياء . والمراد بالأسماء ، أسماء كل شىء . قال ابن عباس : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وفى التوراة مصداق الآية : وهو أنه تعالى صوّر من الأرض كل حيوانات البر ، وكل طيور السماء ، وأحضرها إلى آدم ، لينظر ما يسميها ، وكل ما سماه آدم من نفس حية ، فهو اسمه . وسمى آدم جميع الحيوانات بأساميها وجميع طيور السماء ، وجميع وحوش الأرض .

قال ابن جرير: وفى هذه الآيات العبرة لمن اعتبر ، والذكرى لمن ادّكر ، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله عز وجل فى هذا القرآن، من لطائف الحكم التى تعجز عن أوصافها الألسن . وذلك أن الله جل ثناؤه ، احتج فيها لنبيّه ﷺ ، على من كان بين ظهرانيّه ، من يهود بنى إسرائيل ، بإطلاعه إياه من علوم الغيب ، التى لم يكن تعالى

أطلع عليها من خلقه إلّا خاصًّا ، ولم يكن مدركاً علمه إلا بالأنباء والأخبار ، لتتقرر عندهم صحة نبوته ، ويعلموا أن ما آتاهم به فمن عنده .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك ، لمناسبة ما بين هذا المقام ، وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة ، حين سألوا عن ذلك . فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام ، عقيب هذا ، ليبين لهم شرف آدم بما فضل عليهم في العلم « ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ » أي عرض أهل الأسماء ، فالضمير للمسميات المدلول عليها ضمناً « فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ » أي التي علمها آدم . وإنما استنبأهم ، وقد علم عجزهم عن الإنباء ، تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة . فإن التصرف والتدبير ، وإقامة المعدلة ، بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ، ومقادير الحقوق ، مما لا يكاد يمكن « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أي في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته ، كما ينبىء عنه مقالكم . والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه ، قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الأخبار . فإن أدنى مراتب الاستحقاق ، هو الوقوف على أسماء ما في الأرض . ولما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم ، وبدت لهم هفوة زلتهم ، أنابوا إلى الله تعالى بالتوبة ، وذلك ما أفاده قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

« قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه ، إلا بما شاء . وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى . واعتراف منهم بالعجز والقصور عما كلفوه . وأنه العالم بكل المعلومات التي من جملتها استعداد آدم عليه السلام ، لما نحن بمعزل من الاستعداد له ، من العلوم الخفية المتعلقة بما في الأرض من أنواع المخلوقات التي عليها يدور فلك خلافة الحكيم الذي لا يفعل

إلا ما تقتضيه الحكمة . ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية ، والمعارف الجزئية ، المتعلقة بالأحكام الواردة على ما فى الأرض ، وبناء أمر الخلافة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)

« قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُم » أى أعلمهم « بِأَسْمَائِهِمْ » التى عجزوا عن علمها « فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ » عز وجل تقريراً لما مر من الجواب الإجمالىّ واستحضاراً له « أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إيراد ما لا تعلمون بعنوان الغيب مضافاً إلى السموات والأرض للمبالغة فى بيان كمال شمول علمه المحيط ، وغاية سعته . مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم ، وعلم آدم عليه السلام، من الأمور المتعلقة بأهل السموات والأرض . وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون ، فيما سبق ، ما أشير إليه هناك ، كأنه قيل : ألم أقل لكم إنى أعلم فيه من دواعى الخلافة ما لا تعلمونه فيه ، هو هذا الذى عاينتموه . وفى الآية تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى ، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن يبين لهم « وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ » عطف على جملة « ألم أقل لكم » لا على « أعلم » ، إذ هو غير داخل تحت القول . أى ما تظهرونه بألسنتكم ، وما كنتم تخفون فى أنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ » لما أنبأهم بأسماء ، وعلمهم ما لم يعلموا ، أمرهم بالسجود له ، على وجه التحية والتكرمة تعظيماً له ، واعترافاً بفضله ، واعتذاراً عما قالوا فيه . وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم عليه السلام «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ» أى امتنع عن السجود « وَاسْتَكْبَرَ » أى تكبر وقال : أنا خير منه ، فالسين للمبالغة « وَكَانَ » فى سابق علم الله أو صار « مِنَ الْكَافِرِينَ » .

« تنبيهات »

الأول : للناس فى هذا السجود أقوال : أحدها أنه تكريم لآدم ، وطاعة لله ، ولم يكن عبادةً لآدم . وقيل : السجود لله ، وآدم قِبْلة ، أو السجود لآدم تحية ، أو السجود لآدم عبادة بأمر الله ، وفرضه عليهم . ذكر ابن الأنبارىّ عن الفرّاء وجماعة من الأئمة ؛ أن سجود الملائكة لآدم ، كان تحية ، ولم يكن عبادة . وكان سجود تعظيم وتسليم وتحية ، لا سجود صلاة وعبادة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال أهل العلم : السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه . وعلى هذا إجماع كل من يسمع قوله . فإن الله تعالى قال «اسْجُدُوا لآدَمَ» ولم يقل: إلى آدم . وكل حرف له معنى . وفرق بين « سجدت له » وبين « سجدت إليه » قال تعالى «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ»(١) «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

(٤) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(١) أجمع المسلمون على أن السجود للأحجار والأشجار والدواب محرّم . وأما الكعبة ، فيقال : كان النبيّ ﷺ يصلي إلى بيت المقدس ، ثم صلى إلى الكعبة ، ولا يقال صلى لبيت المقدس ، ولا للكعبة . والصواب أن الخضوع بالقلوب ، والاعتراف بالعبودية ، لا يصلي على الإطلاق إلا لله سبحانه . وأما السجود فشريعة من الشرائع يتبع الأمر . فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحد من خلقه ، لسجدنا طاعة واتباعاً لأمره . فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقربة يتقربون بها إليه . وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم . وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام . ولم يأت أن آدم سجد للملائكة. بل لم يؤمر بالسجود إلا لله رب العالمين . وبالجملة ، أهل السنة قالوا: إنه سجود تعظيم وتكريم وتحية له . وقالت المعتزلة : كان آدم كالقبلة يسجد إليه ، ولم يسجدوا له . قالوا ذلك هرباً من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم . فإن أهل السنة قالوا : إبليس من الملائكة ، وصالح البشر أفضل من الملائكة ، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم . وخالفت المعتزلة في ذلك وقالت : الملائكة أفضل من البشر ، وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة ، ويبطله ما حكى الله سبحانه عن إبليس « قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا »(٢) .

الثاني : اختلفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود ، فقيل: هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض . قال تقي الدين بن تيمية : هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى . وقيل : هم جميع الملائكة ، حتى جبريل وميكائيل . وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة . قال ابن تيمية : ومن قال خلافه فقد ردّ القرآن بالكذب والبهتان ،

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٥] ونصها : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٦٢] .

لأنه سبحانه قال « فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ »(١) وهذا تأكيد للعموم .

الثالث : للعلماء فى إبليس ، هل كان من الملائكة أم لا ؟ قولان : أحدهما أنه كان من الملائكة . قاله ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن المسيّب ، واختاره الشيخ موفق الدين والشيخ أبو الحسن الأشعرىّ وأئمة المالكية وابن جرير الطبرىّ . قال البغوىّ : هذا قول أكثر المفسرين ، لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم . قال تعالى « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ » فلولا أنه من الملائكة ، لما توجه الأمر إليه بالسجود ، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصياً ، ولما استحق الخزى والنكال . والقول الثانى أنه كان من الجن ، ولم يكن من الملائكة . قاله ابن عباس ، فى رواية ، والحسن وقتادة ، واختاره الزمخشرىّ وأبو البقاء العكبرىّ والكواشىّ فى تفسيره. لقوله تعالى « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ »(٢) فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ، ولا ذرية للملائكة .

قال فى الكشاف : إنما تناوله الأمر ، وهو للملائكة خاصة ، لأن إبليس كان فى صحبتهم ، وكان يعبد الله عبادتهم ، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له ، كان الجنىّ الذى معهم أجدر بأن يتواضع . والقول الأول هو الصحيح الذى عليه جمهور العلماء. وصححه البغوىّ . وأجابوا عن قوله تعالى « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ » أى من الملائكة الذين هم خزنة الجنة .

(١) [١٥ / الحجر / ٣٠] و [٣٨ / ص / ٧٣] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

قال ابن القيم : الصواب التفصيل فى هذه المسألة ، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد . فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله . كان أصله من نار ، وأصل الملائكة من نور . فالنافى كونه من الملائكة، والمثبت، لم يتواردا على محل واحد . وكذلك قال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية فى الفتاوى المصرية : وقيل إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار . سموا « جنًا » ، لاستتارهم عن الأعين ، فإبليس كان منهم . الدليل على ذلك قوله تعالى « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا »(١) وهو قولهم: الملائكة بنات الله. ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية .

سئل الشعبى : هل لإبليس زوجة ؟ قال : ذلك عرس لم أشهده ! قال : ثم قرأت هذه الآية ، فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة . فقلت : نعم . وقال قوم : ليس له ذرية ولا أولاد ، وذريته أعوانه من الشياطين .

الرابع : فى قوله تعالى « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » قولان : أحدهما أنه وقت العبادة كان منافقاً ، والثانى أنه كان مؤمنا ثم كفر ، وهذا قول الأكثرين . فقيل فى معنى الآية « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » فى علم الله ، أى كان عالماً فى الأزل أنه سيكفر . والذى عليه الأكثرون أن إبليس أول كافر بالله . أو يقال: معنى الآية أنه صار من الذين وافقوه فى الكفر بعد ذلك . واختلف الناس بأى سبب كفر إبليس، لعنه الله . فقالت الخوارج : إنما كفر بمعصية الله ، وكل معصية كفر ، وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة . وقال آخرون : كفر بترك السجود لآدم ومخالفته أمر الله . وقال آخرون : كفر لأنه خالف الأمر الشفاهى من الله ، فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود . ومخالفةُ الأمر الشفاهى أشد قبحاً . وقال جمهور الناس : كفر إبليس لأنه أبى السجود واستكبر وعاند وطعن

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥٨] ونصها : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

واعتقد أنه محق فى تمرده ، واستدل بـ « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »[١] كما يأتى . فكأنه ترك السجود لآدم ، تسفيهاً لأمر الله وحكمته . وهذا الكبر عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله[٢] « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » كذا فى كتاب الاستعاذة للإمام مفلح الحنبلىّ رحمه الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وخلق له زوجه وأقرهما فى الجنة ، أباحهما الأكل منها بقوله « وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا » أى أكلاً واسعاً. و « حيث » للمكان المبهم ، أىْ أىّ مكان من الجنة شئتما . أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة. حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة . حتى لا يبقى لهما عذر فى التناول مما منعا منه بقوله تعالى « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ » أى هذه الحاضرة من الشجر ، أى لا تأكلا منها ، وإنما علق النهى بالقربان منها ، مبالغة فى تحريم الأكل ، ووجوب الاجتناب عنه . لأن القرب من الشىء مقتضى الألفة . والألفة داعية للمحبة . ومحبة الشىء تعمى وتصمّ . فلا يرى قبيحاً ، ولا

---

(١) [٧/ الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٧ عن عبد الله بن مسعود (طبعتنا) .

يسمع نهياً ، فيقع . والسبب الداعي إلى الشرّ منهيّ عنه . كما أن السبب الموصل إلى الخير مأمور به . وعلى ذلك قوله ﷺ[١] « العينان تزنيان » لما كان النظر داعياً إلى الألفة ، والألفة إلى المحبة ، وذلك مفضٍ لارتكابه ، فصار النظر مبدأ الزنا . وعلى هذا قوله تعالى « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى »[٢] ، « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ »[٣] .

قال ابن العربيّ: سمعت الشاشي في مجلس النظر يقول : إذا قيل : لا تقرَب ، بفتح الراء ، كان معناه لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء ، معناه لا تدْنُ ، نقله ابن مفلح في كتاب الاستعاذة . ونقل الفرق المذكور بينهما أيضاً السيد مرتضى في شرح القاموس عن شيخه العلامة الفاسي . قال : إن أرباب الأفعال نصّوا عليه ، وظاهر القاموس أنهما مترادفان ، فإنه قال: قرب منه ، ككرم ، وقرِبه كسمع قرباً وقرباناً وقِرباناً دنا ، فهو قريب . للواحد والجمع . انتهى .

---

(١) أخرجه الأمام أحمد في المسند . جزء ثان ص ٣٤٣ (طبعة الحلبيّ) . ونصه :
عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لكل بني آدم حظ من الزنى . فالعينان تزنيان وزناهما النظر . واليدان تزنيان وزناهما البطش . والرِّجلان تزنيان وزناهما المشي . والفم يزني وزناه القبل . والقلب يهوى ويتمنى . والفرْج يصدّق ذلك أو يكذبه » .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

و [١٧ / الإسراء / ٣٤] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا .

لطيفة :

جاء فى آية الأعراف « فَكُلَا »(١) وهنا بالواو ، لأن كل فعل عطف عليه شىء ، وكان ذلك الفعل كالشرط ، وذكر الشىء كالجزاء ، عطف بالفاء دون الواو ، كقوله تعالى « وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا »(٢) لما كان وجود الأكل منها متعلقًا بدخولها ذكر بالفاء ، كأنه قال : إن دخلتموها أكلتم منها ، فالأكل يتعلق وجوده بوجود الدخول . وقوله فى الأعراف « وَاسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا »(٣) بالواو دون الفاء ، لأنه من السكنى ، وهو فى المقام مع اللبث الطويل ، والأكل لا يختص وجوده بوجوده ، لأن من دخل بستانًا قد يأكل منه ، وإن كان مجتازاً . فلما لم يتعلق الثانى بالأول تعلق الجزاء بالشرط ، عطف بالواو . وإذا ثبت هذا فنقول : قد يراد بـ « اسكن » الزم مكاناً دخلته ، ولا تنتقل عنه ، وقد يراد ادخله واسكن فيه . ففى البقرة ، ورد الأمر ، بعد أن كان آدم فى الجنة ، فكان المراد المكث . والأكل لا يتعلق به ، فجىء بالواو . وفى الأعراف ورد قبل أن دخل الجنة . والمراد الدخول والأكل متعلق به ، فورد بالفاء .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٩] ونصها : وَيَاءَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٥٨] ونصها : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٦١] ونصها : وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

تنبيه :

لم يرد فى القرآن المجيد ، ولا فى السنة الصحيحة تعيين هذه الشجرة ، إذ لا حاجة إليه ، لأنه ليس المقصود تعرف عين تلك الشجرة . ومالا يكون مقصودا ، لا يجب بيانه . وقوله « مِنَ الظَّالِمِينَ » أى من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله تعالى .

قال ابن مفلح الحنبلىّ فى كتاب الاستعاذة : قال ابن حزم : حملُ الأمرِ على الندب ، والنَّهْىِ على الكراهة ، يقع فيه الفقهاء والأفاضل كثيرا ، وهو الذى يقع من الأنبياء عليهم السلام ، ولا يؤاخذون به ، وعلى السبيل أكل آدم من الشجرة . ومعنى قوله « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » أى ظالمين لأنفسكما ، والظلم فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه ، فمن وضع الأمر والنهى فى موضع الندب والكراهة ، فقد وضع الشىء فى غير موضعه . انتهى .

ثم قال : وقال أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل : لا براءة من المعصية أعظم من حال من ظن أن أحدا لا يحلف حانثا . وهكذا فعل آدم عليه السلام ، فإنه أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ناسياً لنص القرآن ، ومتأولاً وقاصدا إلى الخير ، لأنه قدّر أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملكاً مقرباً أو خالدا فيما هو فيه أبدا . فأداه ذلك إلى خلاف ماأمره الله به ، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره ، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه . ولو فعل هذا عالم من علماء المسلمين لكان مأجورا ، ولكن آدم لما فعل وأخرج عن الجنة إلى الدنيا ، كان بذلك ظالمًا لنفسه . وقد سمى الله تعالى قاتل الخطأ قاتلاً ، كما سمى العامد . والمخطىء لم يعمد معصية . وجعل فى مثل الخطأ عتق رقبة ، وهو لم يعمد ذنباً . انتهى .

وقال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية وجماعة من المتأخرين : الصواب أن آدم عليه السلام ، لما قاسمه عدوّ الله أنه ناصح ، وأكد كلامه بأنواع من التأكيدات : أحدها القسم . والثانى الإتيان بجملة اسمية لا فعلية . والثالث تصديرها بأداة التأكيد . الرابع الإتيان بلام التأكيد فى الخبر . الخامس الإتيان به اسم فاعل لا فعلاً دالّا على الحدث . السادس

تقديم المعمول على القليل فيه . ولم يظن آدم أن أحدا يحلف بالله كاذباً يمين غموس ، فظن صدقه ، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة ، ورأى أن الأكل ، وإن كان فيه مفسدة، فمصلحة الخلود أرجح ، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة اليمين فى أثناء ذلك باعتذار أو توبة ، كما تجد هذا التأويل فى نفس كل مؤمن أقدم على معصية . اه

قال ابن مفلح : فآدم عليه السلام لم يخرج من الجنة إلا بالتأويل ، فالتأويل لنص الله أخرجه ، وإلا فهو لم يقصد المعصية ، والمخالفة ، وأن يكون ظالما مستحقا للشقاء . انتهى

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

« فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا » أى أذهبهما عن الجنة ، وأبعدهما . يقال : زلّ عن مرتبته ، وزل عنى ذاك ، إذا ذهب عنك ؛ وزلّ من الشهر كذا . وقال ابن جرير : فأزلها ، بتشديد اللام ، بمعنى استزلها ، من قولك زل الرجل فى دينه ، إذا هفا فيه وأخطأ ، فأتى ما ليس له إتيان فيه ، وأزله غيره إذا سبب له ما يزل من أجله فى دينه أو دنياه . وقرئ « فأزالهما » بالألف ، من التنحية « فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ » من الرغد والنعيم والكرامة « وَقُلْنَا اهْبِطُوا » أى انزلوا إلى الأرض، خطاب لآدم وحواء والشيطان . أو خطاب لآدم وحواء خاصة ، لقوله فى الآية الأخرى « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً » وجمع الضمير لأنهما أصلا الإنس ، فكأنهما الإنس كلهم «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» متعادين يبغى بعضكم على بعض «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ» منزل وموضع استقرار « وَمَتَاعٌ » تمتع بالعيش« إِلَى حِينٍ » أى إلى الموت .

---

(١) [٢٠ / طه / ١٢٣] ونصها : قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ﴿ فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

« فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَاتٍ » استقبلها بالأخذ والقبول ، والعمل بها حين علمها . قال ابن جرير : وهى الكلمات التى أخبر عنه أنه قالها متنصلاً بقيلها إلى ربه ، معترفاً بذنبه ، وهو قوله « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا »(١) الآية ، فدعا بها لكى تكون عنواناً له ولأولاده على التوبة « فَتَابَ عَلَيْهِ » فرجع عليه بالرحمة والقبول ، وتجاوز عنه ، وقوله تعالى « إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » فى الجمع بين الاسمين وعد للتائب بالإحسان مع العفو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

« قُلْنَا » لآدم وحواء « اهْبِطُوا مِنْهَا » من الجنة « جَمِيعًا » ثم ذكر ذرية آدم فقال « فَإِمَّا » بإدغام نون « إن » الشرطية فى « ما » الزائدة « يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى » كتاب أنزله عليكم ، ورسول أبعثه إليكم « فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ » أقبل على الهدى وقبل « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » فى الآخرة بأن يدخلوا الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بالكتاب والرسول « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » لا يموتون ولا يخرجون .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٢٣] ونصها : قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

تنبيه :

إنما كرر الأمر بالهبوط للتأكيد والإيذان بتحتم مقتضاه . وتحققه لا محالة . أو لاختلاف المقصود . فإن الأول دل على أن هبوطهم الى دار بلية يتمادون فيها ولا يخلدون . والثانى أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف . فمن اتبع الهدى نجا ، ومن ضله هلك .

« فوائد »

الأولى :

ذهب كثيرون إلى أن الجنة التى أهبط منها آدم عليه السلام ، كانت فى الأرض . قال بعضهم : هى على رأس جبل بالمشرق تحت خط الاستواء . وحملوا الهبوط على الانتقال من بقعة إلى بقعة ، كما فى قوله تعالى : « اهْبِطُوا مِصْرًا »(١) ، واحتجوا عليه بوجوه :

أحدها : أن هذه الجنة ، لو كانت هى دار الثواب ، لكانت جنة الخلد ، ولو كان آدم فى جنة الخلد ، لما لحقه الغرور من الشيطان بقوله « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ »(٢) ولما صح قوله « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ »(٣) .

وثانيها : أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى «وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ»(٤) .

(١) [٢ / البقرة / ٦١] ونصها : . . . اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ . . .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

(٤) [١٥ / الحجر / ٤٨] ونصها : لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ .

وثالثها : لا نزاع فى أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام فى الأرض ، ولم يذكر فى هذه القصة أنه نقله إلى السماء ، ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء ، لكان ذلك أولى بالذكر ، لأن نقله من الأرض إلى السماء ، من أعظم النعم . فدل ذلك على أنه لم يحصل . وذلك يوجب أن المراد من الجنة غير جنة الخلد .

ورابعها : روى مسلم(١) فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال « سيحان وجيحان والفرات والنيل ، كل من أنهار الجنة » .

قال ابن مفلح: أكثر الناس على أن المراد بالجنة التى أسكنها آدم جنة الخلد، دار الثواب. ثم قال : قال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية : وهـذا قول أهل السنة والجماعة ، ومن قال إنها جنة فى الأرض بالهند أو جدّة ، أو غير ذلك ، فهو من الملحدة المبتدعين . والكتاب والسنة يرد هـذا القول . وقد استوفى الكلام فيها فى « مفتاح دار السعادة » وكتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » .

الفائدة الثانية :

انفق الناس أن الشيطان كان متولياً إغواء آدم . واختلف فى الكيفية . فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة ، ودليل ذلك قوله « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ »(٢) ، وقوله « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ »(٣) ومقاسمته لهما

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٢٦ (طبعتنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ .

(٣) [٧/الأعراف/٢٠] ونصها: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ =

« إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ »(١) . والمقاسمة ظاهرها المشافهة ، ومنهم من قال : كان ذلك بالوسوسة ، كما قال « فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ »(٢) فإغواؤه إغراؤه بوسواسه وسلطانه الذى جعل له ، كما قال ﷺ(٣) « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

وزعموا أن الشيطان لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها . والوسوسة ، لغةً ، حديث النفس والأفكار . وحديث الشيطان بما لا نفع فيه ولا خير ، والكلام الخفىّ . وظاهر الآيات يؤيد القول الأول .

الفائدة الثالثة :

لم يسمّ الشيطان فى الآية ، إذ لا حاجة ماسة إلى اسمه ، كما تقدم فى الشجرة .

ولما قدم الله تعالى دعوة الناس عموماً ، وذكر مبدأهم ـ دعا بنى إسرائيل خصوصاً ، وهم اليهود ، لأنهم كانوا أولى الناس بالإيمان بالنبىّ ﷺ ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة ، وقد جرى الكلام معهم (من هنا إلى الآية رقم ١٤٢) فتارة دعاهم بالملاطفة ، وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم . وتارة بالتخويف ، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم ، وذكر عقوباتهم التى عاقبهم بها ، كما سيأتى تفصيله ، فقال تعالى :

= عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

(١) [٧ / الأعراف / ٢١] ونصها : وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٣ ص ١١٢ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٢١ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولايته القضاء أو قبل ذلك للخصم . ونصه : عن علىّ بن الحسين أن النبىّ ﷺ أتته صفية بنت حيىّ . فلما رجعت انطلق معها . فمر به رجلان من الأنصار فدعاهما فقال « إنما هى صفية » قالا : سبحان الله . قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » أى أولاد يعقوب . وقد هيجهم تعالى بذكر أبيهم إسرائيل ، كأنه قيل : يا بنى العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم ، كما تقول : يا ابن الكريم ، افعل كذا، ويا ابن العالم، اطلب العلم «اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ» قال ابن جرير: نعمه التى أنعم بها على بنى إسرائيل : اصطفاؤه منهم الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب ، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه، إلى التمكين لهم فى الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام المنّ والسلوى . فأمر ، جل ثناؤه ، أعقابهم أن يكون ماسلف منه إلى آبائهم على ذُكْرٍ ، وأن لاينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم ، فيحل بهم من النقم ، ماأحل بمن نسى نعمه عنده منهم وكفرها ، وجحد صنائعه عنده . « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » العهد هو الميثاق ، وقد أشير إليه فى قوله تعالى « وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »(١) الآية . فعهد الله هو وصيته لهم ، بما ذكر فى الآية . ومنها : الإيمان برسله المتناول لخاتمهم

(١) [٥ / المائدة/ ١٢] ونصها : وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

عليه السلام ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة . وعهده تعالى إياهم ، هو أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة . وقوله تعالى « وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » قال ابن جرير: أى اخشونى واتقوا، أيها المضيعون عهدى من بنى إسرائيل، والمكذبون رسولى الذى أخذت ميثاقكم فيما أنزلت على أنبيائى أن تؤمنوا به وتتبعوه، أن أحل بكم من عقوبتى إن لم تتوبوا إلىّ باتباعه والإقرار بما أنزلت إليه ، ما أحللت بمن خالف أمرى ، وكذب رسلى من أسلافكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)

« وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ » أى من القرآن « مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ » أى موافقاً بالتوحيد ، وصفة محمد ﷺ ونعته، وبعض الشرائع، لما معكم من الكتاب ـ كما فى التنوير ـ قال ابن جرير: أمرهم بالتصديق بالقرآن ، وأخبرهم أن فى تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة ، لأن الذى فى القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه ، نظير الذى من ذلك فى الإنجيل والتوراة . فنى تصديقهم بما أنزل على محمد ، تصديق منهم لما معهم من التوراة . وفى تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة . انتهى .

وتقييد المنزل بكونه مصدقاً لمامعهم، لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر، فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضى الإيمان بما يصدقه قطعاً .

تنبيه :

كثيراً ما يستدل مجادلة أهل الكتاب على عدم تحريف كتبهم بهذه الآية وأمثالها ، كآية « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ »(١) ، وآية « وَلَٰكِنْ

(١) [٢ / البقرة / ٨٩] ونصها : وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا =

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ »(١) وغيرها . مع أنه ثبت بالبراهين القاطعة ذهاب قدر كبير من كتبهم ، واختلاط حقها بباطلها فيما بقي ، كما صنفت في ذلك مصنفات عدة . وقد رُدَّ استدلالهم بهذه الآية وأمثالها على ماادعوه، بأن معنى كون القرآن مصدقاً لما معهم ، ماذكرناه قبل في تأويلها . وحاصله أن ما أنزل عليه ﷺ هو طبق ما عندهم من حقية نبوته ، وصحة البشائر عنه ، كما قال تعالى « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ » أي أنه عليه السلام جاء طبق ماعندهم عنه في التوراة والإنجيل، بمعنى أن أحواله جميعاً توافق البشائر « وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ » يعني من جنسكم أهل الكتاب ، بعد سماعكم بمبعثه . فالأولية نسبية ، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن ، أو هو تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته ، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه ، والمستفتحين على الذين كفروا به ، وكانوا يعدون أتباعه أول الناس كلهم، فلما بعث كان أمرهم على العكس ، لقوله « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » .

« وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا » أي لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي، بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية ، فالاشتراء استعارة للاستبدال . « وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ » بالإيمان واتباع الحق ، والإعراض عن حطام الدنيا .

مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

(١) [١٠ / يونس / ٣٧] ونصها : وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و [١٢ / يوسف / ١١١] ونصها : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[٤٣] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

« وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

اللبس الخلط ، وقد يلزمه الاشتباه بين المختلطين . والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى يخترعونه أو يذكرونه فى تأويله حتى يشتبه أحدهما بالآخر ، وقوله « وَتَكْتُمُوا » مجزوم داخل تحت حكم النهى . وتكرير الحق ، لزيادة تقبيح المنهىّ عنه ، إذ فى التصريح باسم الحق ، ما ليس فى ضميره ، والتقييد بقوله « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » لزيادة تقبيح حالهم ، إذ الجاهل عسى يعذر . وقوله « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » الآية ، أمر بلزوم الشرائع عليهم بعد الإيمان . وذلك إقامة الصلاة بأدائها بفروضها ، والمحافظة عليها . وإعطاء الصدقة المفروضة ، والركوع لله ، أى الخضوع لأوامره بإطاعتها .

قال ابن جرير : هذا أمر من الله، جل ثناؤه، لمن ذكر من أحبار بنى إسرائيل ومنافقيها بالإنابة والتوبة إليه ، وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والدخول مع المسلمين فى الإسلام والخضوع له بالطاعة . ونهىٌ منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد ﷺ ، بعد تظاهر حججه عليهم، وبعد الإعذار لهم والإنذار . وبعد تذكيره نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفاً منه بذلك عليهم ، وإبلاغاً إليهم فى القدرة اهـ .

وقد قيل فى قوله « وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ » حث على إقامة الصلاة فى الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » أى بما فيه لله رضا من القول أو الفعل . وجماع البر كل مافيه طاعة لله تعالى . والهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم « وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ » أى تتركونها من البر كالمنسيات . والمعنى تخالفون ما تأمرون به من ذلك إلى غيره . وقوله « وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ » تبكيت مثل قوله « وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » يعنى تتلون التوراة وفيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول العمل . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » توبيخ عظيم بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وكأنكم فى ذلك مسلوبوا العقول ، لأن العقول تأباه وتدفعه .

روى الحافظ ابن كثير الدمشقى فى تفسيره عن إبراهيم النخعى قال : إنى لأكره القصص لثلاث آيات : قوله تعالى « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ »(١) وقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ »(٢) وقوله إخباراً عن شعيب « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ »(٣) .

---

(٣) [٢ / البقرة / ٤٤] ونصها : أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(٤) [٦١ / الصف / ٢و٣] .

(٥) [١١ / هود / ٨٨] ونصها : قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

« وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ » أى على الوفاء بالعهد « وَالصَّلَاةِ » أى التى سرها خشوع القلب للرب . فإنها من أكبر العون على الثبات فى الأمر . قال ابن جرير : أى استعينوا على الوفاء بعهدى الذى عاهدتمونى فى كتابكم من طاعتى واتباع أمرى وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمرى واتباع رسولى محمد ﷺ بالصبر عليه والصلاة . فالآية متصلة بما قبلها . كأنهم لما أمروا بما شق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك . « وَإِنَّهَا » الضمير للصلاة. وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر ؛ وجوّز عود الضمير على الاستعانة بهما « لَكَبِيرَةٌ » لشاقة ثقيلة، كقوله تعالى « كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ »(١) « إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

« الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى محشورون إليه يوم القيامة للجزاء. والظن

= مِنْ رَبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] ونصها : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

هنا بمعنى اليقين ومثله « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »(١) .

قال ابن جرير : العرب قد تسمى اليقين ظنا نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة والمغيث صارخا والمستغيث صارخا وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضده . والشواهد على ذلك من أشعار العرب أكثر من أن تحصر « وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » أى بعد الموت فيجازيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » كرر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به « وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ » عطف على نعمتى ، عطف الخاص على العام لكماله . أى فضلت آباءكم « عَلَى الْعَالَمِينَ » أى عالمى زمانهم بإنزال الكتاب عليهم وإرسال الرسل فيهم وجعلهم ملوكا، وهم آباؤهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا . وتفضيل الآباء شرف الأبناء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾

« وَاتَّقُوا يَوْمًا » يريد يوم القيامة أى حسابه أو عذابه « لَا تَجْزِي » فيه « نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » أى لا تقضى عنها شيئاً من الحقوق. فانتصاب «شيئاً» على المفعولية. أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية. وإيراده منكرا مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكلى

(١) [٦٩ / الحاقة / ٢٠] .

« وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ » لا يقبل « مِنْهَا عَدْلٌ » أى فدية « وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » يمنعون من عذاب الله . وجُمِع لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة . وذكر لمعنى العباد أو الأناسيّ .

(تنبيه) تمسكت المعتزلة بهذه الآية على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقا أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع . فعلم أنها لا تقبل للعصاة . والجواب : أنها خاصة بالكفار . ويؤيده أن الخطاب معهم كما قال « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »(١) ، وكما قال عن أهل النار « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ۞ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »(٢) فمعنى الآية أنه تعالى لايقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ، ولا يُنقذ أحداً من عذابه منقذٌ ولا يخلص منه أحد .

وفى الانتصاف : من جحد الشفاعة فهو جدير أن لاينالها . وأما من آمن بها وصدقها، وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين وإنما ادخرت لهم . وليس فى الآية دليل لمنكريها ، لأن قوله « يوما » أخرجه منكرا . ولاشك أن فى القيامة مواطن . ويومها ممدود بخمسين ألف سنة. فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة. وبعضها هو الوقت الموعود، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد وردت آى كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها. منها قوله تعالى « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ »(٣) مع قوله « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »(٤)

(١) [٧٤ / المدثر/ ٤٨] .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ١٠٠و١٠١] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] ونصها : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ .

(٤) [٣٧ / الصافات / ٢٧] . و [٥٢ / الطور / ٢٥] .

فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتين متغايرين : أحدهما محل للتناول والآخر ليس محلاله ، وكذلك الشفاعة . وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة . رزقنا الله الشفاعة . وحشرنا فى زمرة أهل السنة والجماعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

« وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » تذكير لتفاصيل ماأجمل فى قوله تعالى « نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » من فنون النعماء. أى واذكروا وقت تنجيتنا إياكم ، أى آباءكم . فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم . والمراد بالآل، فرعون وأتباعه ، فإن الآل يطلق على الشخص نفسه وعلى أهله وأتباعه وأوليائه (قاله فى القاموس) .

ثم بين ما أنجاهم منه بقوله « يَسُومُونَكُمْ » أى يبغونكم « سُوءَ الْعَذَابِ » أى أفظعه وأشده « يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ » أى يتركونهم أحياء « وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » البلاء إما المحنة ، إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون ؛ أو النعمة ، إن أشير به إلى الإنجاء . قال ابن جرير : العرب تسمى الخير بلاء والشر بلاء .

فائدة : فرعون لقب لمن ملك مصر كافراً . ككسرى لملك الفرس . وقيصر لملك الروم. وتبّع لمن ملك اليمن كافرا . والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وخاقان لملك الترك . ولعتوّه اشتق منه : تفرعن الرجل ، إذا عتا وتمرد .

وسبب سَوْمه بنى إسرائيل سوء العذاب من تذبيح أبنائهم (على ما روى فى التوراة) خوفُه من نموّهم وكثرة توالدهم . وكانت أرض مصر امتلأت منهم . فإن يوسف ، عليه

السلام، لما استقدم أباه وإخوته وأهلهم من أرض كنعان إلى مصر ، أعطاهم ملكا فى أرض مصر فى أفضل الأرض كما أمره ملك مصر . وكان لهم فى مصر مقام عظيم بسبب يوسف عليه السلام . فتكاثروا وتناسلوا . ولما توفى يوسف عليه السلام والملك الذى اتخذه وزيرا عنده ، انقطع ذلك الاحترام عن بنى إسرائيل . إلى أن قام على مصر أحد ملوكها الفراعنة . فرأى غوّ الإسرائيليين . فقال لقومه : أضحى بنو إسرائيل شعباً أكثر منا وأعظم . فهلمّ نحتال لهم لئلا ينموا . فيكون ، إذا حدثت حرب ، أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا . ويخرجون من أرضنا . فسلط عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم . وكانوا كلما اشتد تعبدهم إزدادوا كثرة وشدة . فشق على المصريين كثرتهم واختشوا منهم . فجعل أهل مصر يستعبدونهم جورا ويمرّرون عليهم حياتهم بالعمل الشديد بالطين واللّبِن ، وكل فلاحة الأرض، وكل الأعمال التى استعبدوهم بها بالمشقّة .

وأمر فرعون بذبح أبنائهم كما قصه الله تعالى . ولم يزل الأمر فى هذه الشدة عليهم حتى نجاهم سبحانه بإرسال موسى عليه السلام. وقوله جل ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

« وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ » بيان لسبب التنجية ، وتصوير لكيفيتها ، إثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها . وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الإنجاء من الغرق . أى واذكروا إذ فلقناه بسلوككم أو ملتبساً بكم أو بسبب إنجائكم . وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك . فالباء على الأول استعانة . مثلها فى : كتبت بالقلم . وعلى الثانى للمصاحبة . مثلها فى : أسندت ظهرى بالحائط . وعلى الثالث للسببية . والوجه الأول

ضعيف من حيث إن مقتضاه أن تفريق البحر وقع ببنى إسرائيل والمنصوص عليه فى التنزيل أن البحر إنما انفرق بعصا موسى . قال تعالى « أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ »(١) فآلة التفريق العصا لا بنو إسرائيل « فَأَنجَيْنَاكُمْ » أى من الغرق بإخراجكم إلى الساحل « وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ » أريد فرعون وقومه . وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم « وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ » أى إلى ذلك وتشاهدونه لاتشكون فيه. ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ فى إهانة عدوكم .

وكانت قصة إغراق آل فرعون المشار لها فى هـذه الآية ، على ما روى ، أن الحق تعالى لما شاء إخراج بنى إسرائيل من مصر من بيت العبودية ، أوقع فى نفس فرعون أن يطلقهم من مصر. بعد إباء شديد منه ورؤية آيات إلٰهية كادت تحل به وبقومه البوارَ . فدعا موسى وهارون وقال : اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل جميعا . و اذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم . فلما ارتحلوا وأخبر فرعون أن الشعب قد هرب ، تغير قلبه عليهم وقال : ماذا فعلنا حتى أطلقناهم من خدمتنا ؟ فشد مركبته وأخذ قومه معه وسعى وراءهم وأدركهم وهم نازلون عند بحر القلزم . وهو المشهور ببحر السويس . فلما رأت بنو إسرائيل عسكر فرعون وراءهم قالوا : يا موسى أين ما وعدتنا من النصر والظفر ؟ فلو بقينا على خدمة المصريين لكان خيراً لنا من أن نهلك فى هذه البرية « قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »(٢) وقال « عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »(٣) . وأوحى

(٢) [٢٦/ الشعراء / ٦٣] ونصها : فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٢٩] ونصها : قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن =

الله إلى موسى عليـه السلام أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق وأيبس قعره . فدخل بنو إسرائيل فيه . فتبعهم فرعون وجنوده . فخرج موسى وقومه من الجهة الثانية . وانطبق البحر على فرعون ومن معه فغرقوا كلهم . وسيأتى الإشارة إلى هذه القصة فى مواضع من التنزيل . ومن أبسطها فيه سورة الشعراء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

« وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ » أى بعد فراغه من مقاومة آل فرعون وإهلاكهم « أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » أى لنعطيه عنـد انقضائها التوراة لتعملوا بها . وقد روى فى ترجمة التوراة أنه تعالى قال لموسى : اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك ألواحا من حجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعلمهم . فصعد موسى إلى الجبل وبقى هناك أربعين يوماً وأربعين ليلة . وموسى كلمة عبرانية معناها منشول من المـاء « ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ » أى إلهاً ومعبوداً « مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد مضيّه للميقات « وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » أى بوضع العبادة فى غير موضعها. وهو حال من ضمير اتخذتم . أو اعتراض تذييلىّ . أى وأنتم قوم عادتـكم الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

« ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ » أى محونا ذنوبكم « مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى الاتخاذ والظلم القبيح « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » لـكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة .

= بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

« وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ » يعنى الجامع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل . يعنى التوراة . كقولك : رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة. ونحوه قوله تعالى « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ »(١) يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياءً وذكراً . أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات . أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام . وقيل : الفرقان انفراق البحر . وقيل : النصر الذى فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى « يَوْمَ الْفُرْقَانِ »(٢) يريد به يوم بدر « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى لكى تهتدوا بالعمل فيه من الضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٨] .

(٢) [٨ / الأنفال / ٤١] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذه الآية بيان لكيفية وقوع العفو المذكور فى الآية قبلُ . روى أن موسى عليه السلام لما رجع من الميقات ورأى ماصنع قومه بعده من عبادة العجل، غضب ورمى باللوحين من يده . فكسرها فى أسفل الجبل . ثم أحرق العجل الذى صنعوه . ثم قال: من كان من حزب الرب فليُقْبِل إلىّ . فاجتمع إليه جميع بنى لاوى . وقال لهم : هذا مايقول الرب إله إسرائيل : ليتقلد كل رجل منكم سيفه . فجوزوا فى وسط المحلة من باب إلى باب. وارجعوا . وليقتل الرجل منكم أخاه وصاحبه وقريبه . فصنع بنو لاوى كما أمرهم موسى فقتلوا فى ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل (وفى رواية نحو ثلاثة آلاف رجل) وفى غد ذلك اليوم كلم موسى الشعب وقال لهم : أنتم قد أخطأتم خطيئة عظيمة . وإنى الآن أصعد إلى الرب فأتضرع إليه من أجل خطيئتكم . فصعد موسى وتضرع للرب وسأل المغفرة لقومه اه .

ولاوى ، ثالث مولود ليعقوب عليه السلام من أولاده الاثنى عشر ، معناه فى العربية ملتصق أو متصل .

والأحبار اللاويّون ينسبون إليه . وقد اختارهم تعالى من بنى إسرائيل على لسان موسى عليه السلام للخدمة المقدسة . وجعلهم من المقربين لديه . وبما سقناه يعلم أن قوله تعالى «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» أمرٌ لمن لم يعبد العجل ، أعنى اللاويين ، أن يقتلوا العبدة. لا كما فهمه بعضهم من قتل بعضهم بعضاً مطلقاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

[٥٦] (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ

الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق . إذ سألتم رؤيتى عيانا مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم فى دار الدنيا . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن القائلين لموسى ذلك هم السبعون المختارون . ويؤيده آية الأعراف . « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ ـ الآية .

وقد غلط أهل الكتاب فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك . فمنع منه . فكيف يناله هؤلاء السبعون ؟ أفاده ابن كثير . وقد رأيت دعواهم المذكورة فى الفصل الرابع والعشرين فى سفر الخروج . وهذا من المواضع المحقق تحريفها . ويدل عليه ما فى الفصل الثالث والثلاثين من السفر المذكور أنه تعالى قال لموسى : لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش اه .

وجهرة ، فى الأصل ، مصدر قولك جهرت بالقراءة . استعيرت للمعاينة ، لما بينهما من الاتحاد . فى الوضوح والانكشاف. إلا أن الأول فى المسموعات ، والثانى فى المبصرات. ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية ، فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس . أو على الحال من الفاعل أو المفعول .

قال ابن جرير : وأصل الصاعقة كل أمر هائل رآه أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وإلى ذهاب عقل وغمور فهم ، أو فقد بعض آلات الجسم . صوتا كان ذلك أو نارا . أو زلزلة أو رجفا (قال) ومما يدل على أنه قد يكون مصعوقا وهو

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٥] ونصها : وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

حيّ غير ميت قول الله عز وجل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ يعني مغشيا عليه. ومنه قول جرير:

وَهَلْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ غَيْرَ قِرْدٍ أَصَابَتْهُ الصَّوَاعِقُ فَاسْتَدَارَا(١)

فقد علم أن موسى لم يكن ، حين غشي عليه وصعق ، ميتا . لأن الله، جل وعز، أخبر عنه أنه لما أفاق قال : تبت إليك . ولا شبَّه جريرٌ الفرزدقَ، وهو حيّ ، بالقرد ميتا ، ولكن معنى ذلك ما وصفناه .

وقوله تعالى «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » أي إلى تلك الصاعقة . وقوله تعالى « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » قال الراغب الأصبهانيّ في تفسيره : البعث إرسال المبعوث من المكان الذي فيه . لكن فرق بين تفاسيره بحسب اختلاف المعلق به ، فقيل : بعثت البعير من مبركه أي أثرته . وبعثته في السير أي هيجته ، وبعث الله الميت أحياه . وضرب البعث على الجند إذا أمروا بالارتحال . وكل ذلك واحد في الحقيقة ، وإنما اختلف لاختلاف صور المبعوثات (ثم قال) والموت حُمل على المعروف، وحُمل أيضا على الأحوال الشاقة الجارية مجرى

---

(١) قال السيد محمود محمد شاكر، في تعليقه على هذا البيت، في تفسير ابن جرير ، مانصه : ديوانه : ٢٨١ ، والنقائض : ٢٥١ وبعده في هجاء الفرزدق ، وهو من أشده :

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارًا

وما أشد ما قال ! وقال في النقائض في شرح البيت: « ولفته ـ يعني جريرا ـ الصواقع . فاستدار : أي استدار إنسانا بعد أن كان قرداً .

وكأنه أخطأ المعنى ، فإنه أراد أنه مسخ قرداً على هيئته التي كان عليها قبل أن يكون إنسانا . فقوله « استدار » عاد إلى الموضع الذي ابتدأ منه . ومن ذلك قوله ﷺ في حجة الوداع « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أي عاد كما بدأ . فهو يقول : كان الفرزدق في أصل نشأته قرداً . ثم تحول إنسانا . فلما أصابته صواعق شعري عاد كما كان في أصل نشأته قردا صريحا اه . وهو كما قال .

الموت ، وليس يقتضي قوله « فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ » أنهم ماتوا . ألا ترى إلى قوله : « فَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا » لكن الآية تحتمل الأمرين ، وحقيقة ما كان إنما يعتمد فيها على السمع المتعدى عن الاحتمالات. انتهى. وقد يؤيد الثانى آية الأعراف المذكورة وهى « وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ »(١) فالرجفة هى المسماة بالصاعقة هنا ، والتنزيل يفسر بعضه بعضا، والأصل توافق الآى . وقد ذكر ابن إسحق والسدّى أن الذين أخذتهم الرجفة هم الذين سألوا موسى رؤية الله جهرة ، وسيأتى فى الأعراف بسط ذلك إن شاء الله .

دلت الآية على أن طلب رؤيته تعالى فى الدنيا مستنكر غير جائز، ولذا لم يذكر، سبحانه وتعالى، سؤال الرؤية إلا استعظمه. وذلك فى آيات. منها هذه. ومنها قوله تعالى « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ »(٢) ومنها قوله تعالى « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا »(٣) فدلت هذه التهويلات الفظيعة الواردة لطالبيها فى الدنيا على امتناعها فيها . وكما أخبر تعالى بأنه لا يرى فى الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته فى الدار الآخرة فى آيات عديدة ، كما تواترت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وهى قطعية الدلالة . لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها .

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٢٨ .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٣] وباقى الآية : ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ، وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

« وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

لما ذكر تعالى مادفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم ، فمنها تظليل الغمام عليهم. وذلك أنهم كانت تظلهم سحابة إذا ارتحلوا . لئلا تؤذيهم حرارة الشمس. وقد ذكر تفصيل شأنها فى توراتهم فى الفصل التاسع من سفر العدد . ومنها إنزال المنّ . وقد روى فى التوراة أنهم لما ارتحلوا من إيليم وأتوا إلى برّية سين ، التى بين إيليم وسيناء ، فى منتصف الشهر الثانى بعد خروجهم من مصر ، تذمروا على موسى وهرون فى البرية ، وقالوا لهما: ليتنا متنا فى أرض مصر إذ كنا نأكل خبزا ولحما . فأخرجتمانا إلى هذه البرية لتهلكا هذا الجمع بالجوع. فأوحى تعالى لموسى عليه السلام إنى أمطر عليكم خبزاً من السماء . فليخرج الشعب، ويلتقطون حاجة اليوم بيومها طعامهم من أجل أنى أمتحنهم ، هل يمشون فى شريعتى أم لا ، وليكونوا فى اليوم السادس أنهم يهيئون ضعف مايلتقطونه يوماً فيوماً. لأن اليوم السابع يوم عيد لايُشخص فيه لأمر المعيشة ولا لطلبة شىء . فقال لهم موسى : إن الرب تعالى يعطيكم عند المساء لحما تأكلون . وبالغداة تشبعون خبزاً . فكان فى المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة ، وبالغداة أيضاً وقع الندى حول المحلة . ولما غطى وجه الأرض تباين فى البرية شىء رقيق كأنه مدقوق بالمدقة . يشبه الجليد على الأرض . فلما نظر إليه بنو إسرائيل قالوا : ما هذا ؟ لأنهم لم يعرفوه . فقال لهم موسى : هذا هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا. وقد أمركم أن يلقط كل واحد على قدر ما فى بيته ، وقدر مأكله . ففعل بنو إسرائيل كذلك ولقطوا ما بين مكثّر ومقلّل ، وقال لهم موسى : لا تبقوا منه شيئاً إلى الغد . فلم يطيعوا

موسى . واستفضل منه رجال إلى الغد ؛ فضرب فيه الدود ونتن . فغضب عليهم موسى . وكانوا يلقطون غدوة. كل إنسان يلقط على قدر ما يأكل . فإذا أصابه حر الشمس ذاب . وقد أعطوا فى اليوم السادس خبز يومين ليجلس كل رجل منهم فى مكانه فى اليوم السابع . راحةً وتقديسا له . وكان إذا خرج بعض الشعب ليلتقط ، يوم السابع ، لا يجد فى الأرض منه شيئاً . ودعا آل إسرائيل اسمه المنّ . وكان مثل حب الكُزْبُرَة أبيض ، وطعمه كرقاق بعسل ، وأكل بنو إسرائيل المنّ أربعين سنة حتى أتوا إلى الأرض العامرة ودنوا من تخوم أرض كنعان . وروى فى ترجمة التوراة أيضاً أن المنّ كان يشبه لون اللؤلؤ . وكان يطوف الشعب ويلتقطونه ويطحنونه بالرحى . ويدقونه فى الهاون ويطبخونه فى القدور . ويعملون منه رغفاً طعمها كالخبز المعجون بالدهن. ومتى نزل الندى على المحلّة ليلاً كان ينزل المن معه اه .

هذا ما كان من أمر المن . وأما السلوى فروى أيضا : أن جماعة ممن صعد مع بنى إسرائيل من مصر تاقت أنفسهم للحم وجلسوا يبكون ، ووافقهم بنو إسرائيل على اشتهائه أيضا . وقالوا : من يطعمنا لحما لنأكل؟ قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله بمصر من غير ثمن . والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم . والآن قد يبست نفوسنا ولا تنظر عيوننا إلا المنّ . فلما سمع موسى الشعب يبكون بمشائرهم، وعلم غضب الرب عليهم ؛ لذلك ، ابتهل إلى ربه وقال : من أين لى لحم أطعم منه هذا الجمع وهم يبكون علىّ ويقولون أعطنا لحما لنأكل ؟ فأوحى إليه ربه أن يجمع سبعين رجلا من شيوخ شعبه وعرفائه . ويقبل بهم إلى خيمة الاجتماع فيكونوا معه . ثم كلمه ربه ووعده أن يعطيه لحما يأكلون منه شهراً حتى يأنفوا منه. فأخبر موسى الشعب بذلك . ثم انحاز إلى المحلة هو وشيوخ قومه . فخرجت ريح وحملت السلوى من البحر وألقتها على المحلة مسيرة يوم حول المحلة من كل جانب ، وكانت تطير بالجوّ ذراعين على الأرض وقام الشعب يومهم ذلك كله ، والليل . وفى غد اليوم الثانى . فجمعوا السلوى أقل من جمع عشرة أكرار . سطحوه سطيحاً وبيسوه حول المحلة .

وقبل أن ينقطع اللحم من عندهم غضب الرب تعالى على الشعب . فضربه ضربة عظيمة جدا . ودعى اسم ذلك الموضع قبور الشهوة . لأنهم هناك دفنوا القوم الذين اشتهوا . ثم خرجوا من قبور الشهوة وارتحلوا لغيره . انتهى .

وقوله تعالى « كلوا » على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا . وقوله « وما ظلمونا » كلام عدل به عن نهج الخطاب السابق للإيذان باقتضاء جنايات المخاطبين للإعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة . معطوف على مضمر قد حذف للإيجاز ، والإشعار بأنه أمر محقق غنيّ عن التصريح به . أى فظلموا بأن أكثروا من التضجر والتذمر على ربهم وشكوى سكناهم فى البرية وفراقهم مصر . وما ظلمونا بذلك ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، بالعصيان . إذ لا يتخطاهم ضرره وبذلك حق عليهم العذاب الذى ضربوا به كما ذكرناه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

[٥٩] (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » .

هذا إشارة إلى ما حلّ ببنى إسرائيل ـ لما نكلوا عن الجهاد ـ ودخولهم الأرض

المقدسة ـ أرض كنعان ـ لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام . وإنما أطلق على الأرض المذكورة قرية ، لأنّ القرية : كل مكان اتصلت به الأبنية واتُّخِذَ قراراً . وتقع على المدن وغيرها ـ كذا فى كفاية المتحفّظ ـ ثمّ إنّ ما قصّ ـ هنا ـ ذكر فى سورة المائدة فى قوله تعالى « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ »(١) الآيات .

وقوله تعالى « ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا » فى التأويلات : يحتمل المراد من الباب حقيقة الباب ، وهو باب القرية التى أمروا بالدخول فيها . ويحتمل من الباب القرية نفسها ، لا حقيقة الباب ـ كقوله « وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ » ذكر القرية ولم يذكر الباب ـ وذلك فى اللغة جائز . (ويقال : فلان دخل فى باب كذا ـ لا يعنون حقيقة الباب ، ولكن كونه فى أمر هو فيه) .

وقوله « سُجَّدًا » يحتمل المراد من السجود : حقيقة السجود . فيخرّج على وجوه : على التحية لذلك المكان ؛ ويحتمل على الشكر له لما أهلك أعداءهم الجبارين ؛ ويحتمل الكناية عن الصلاة ـ إذ العرب قد تسمّى السجود (صلاةً) ـ كأنّهم أُمِروا بالصلاة فيها ؛ ويحتمل أن الأمر بالسجود ـ لا على حقيقة السجود والصلاة ـ ولكن أمر بالخضوع له والطاعة والشكر على أياديه . والله أعلم .

وقوله تعالى « وَقُولُوا حِطَّةٌ » خبر محذوف ، أى مسألتنا حطة ـ والأصل النصب ـ بمعنى : حطَّ عنّا ذنوبنا حِطّةً ، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات .

---

(١) [٥ / المائدة / ٢٠] .

وقوله سبحانه « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ » أى : بدّلوا أمره تعالى لهم ـ بدخول الأرض مجاهدين ـ بالإحجام عنه ، وتثبيط الناس . ولذا قال أبو مسلم «قوله تعالى « فَبَدَّلَ » يدلّ على أنهم لم يفعلوا ما أمروا به ، لا على أنهم أتوا له ببدل . والدليل عليه : أن تبديل القول قد يستعمل فى المخالفة . قال تعالى « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ ـ إلى قوله ـ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ »(١) ولم يكن تبديلهم إلّا الخلاف فى الفعل لا فى القول . فكذا هنا ، فيكون المعنى : إنهم لما أمروا بدخول الأرض ـ وما ذكر معه ـ لم يمتثلوا أمر الله ، ولم يلتفتوا إليه » .

وفى تكرير « الَّذِينَ ظَلَمُوا » زيادةٌ فى تقبيح أمرهم ، وإيذانٌ بأنّ إنزال الرجز عليهم لظلمهم . و (الرجز) : هو الموت بغتة ، كما تقدّم .

قال الراغب : وتخصيص قوله « رجزاً من السماء » هو أنّ العذاب ضربان : ضربٌ قد يمكن ـ على بعض الوجوه ـ دفاعه ، أو يظنّ أنه يمكن فيه ذلك ، وهو كلّ عذاب على يد آدميّ ، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق . وضربٌ لا يمكن ـ ولا يظنّ ـ دفاعه بقوّة آدميّ ـ كالطاعون ، والصاعقة ، والموت ـ وهو المعنيّ بقوله « رجزاً من السماء » اهـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

هذا تذكير لنعمة أخرى كفروها. روى فى توراتهم أنه ارتحلت كل جماعة بنى إسرائيل

---

(١) [٤٨ / الفتح / ١٥] ونصها : سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ، قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

من برية سينا بأمره تعالى ، وحلوا فى رقادين، ولم يكن هناك ماء ليشربوا ، فخاصموا موسى، وقالوا له أعطنا ماء لنشرب ، أخرجتنا من مصر لتقتلنا نحن وأولادنا ودوابنا بالعطش ؟ فابتهل موسى إلى ربه فى السقيا ، فأوحى إليه أن امض أمام الشعب ، وخذ معك من شيوخ إسرائيل. والعصا التى ضربت بها النهر خذها بيدك . واذهب إلى صخرة حوريب ، فاضربها فيخرج منها ماء ليشرب الشعب . ففعل موسى كذلك أمام شيوخ إسرائيل . انتهى .

وقوله تعالى « اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً » أى عدد أسباط يعقوب الاثنى عشر ، لكل سبط منهم عين قد عرفوها . قال الراغب : وأنكر ذلك بعض الطبيعيين واستبعده، وهذا المنكر، مع أنه لم يتصور قدرة الله تعالى فى تغيير الطبائع والاستحالات الخارجة عن العادات ، فقد ترك النظر على طريقته . إذ قد تقرر عندهم أن حجر المغناطيس يجر الحديد ، وأن الحجر المنفر للنحل ينفره ، والحجر الحلاق يحلق الشعر ، وذلك كله عندهم من أسرار الطبيعة . وإذا لم يكن مثل ذلك منكراً عندهم ، فغير ممتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض . اه .

وقوله « وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى لا تعثوا فى الأرض بالفساد ، وخلاف أمر موسى . قال الراغب : فإن قيل : فما فائدة قوله «مُفْسِدِينَ» والعثو ضرب من الإفساد؟ قيل : قد قال بعض النحويين : إن ذلك حال مؤكدة ، وذكر ألفاظاً مما يشبه . وقال بعض المحققين : إن العثو ، وإن اقتضى الفساد ، فليس بموضوع له ، بل هو كالاعتداء ، وقد يوجد فى الاعتداء ما ليس بفساد ، وهو مقابلة المعتدى بفعله نحو « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ »(١) وهذا الاعتداء ليس بإفساد ، بل هو ، بالإضافة إلى

(١) [٢ / البقرة / ١٩٤] ونصها : الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

ما قوبل به ، عدل . ولولا كونه جزاء لكان إفسادًا . فبين تعالى أن العثو المنهى عنه ، هو المقصود به الإفساد . فالإفساد مكروه على الإطلاق، ولهذا قال « لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا »(١) وقد يكون فى صورة العثو والتعدى ماهو صلاح وعدل ، كما تقدم. وهذا ظاهر اه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ » قال قتادة : لما ملّوا طعامهم وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه قبل ذلك ، قالوا ذلك . قال الراغب : إن قيل : كيف قال « لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ » وكان لهم المن والسلوى ، قيل : إن ذلك إشارة إلى مساواته فى الأزمنة المختلفة ، كقولك : فلان يفعل فعلاً واحداً فى كل يوم ، وإن كثرت أفعاله ، إذا تحرى طريقة واحدة وداوم عليها اه . وهذا المعنى فى إنكار الطعام أبلغ. لأنهم لم يكتفوا فى إنكاره بقولهم « لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ » ، حتى أكدوا بقولهم « واحد » أو

---

(١) [٧ / الأعراف / ٥٦] ونصها : وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

أرادوا بالواحد مالا يختلف ولا يتبدل « فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا » هو الثوم لقراءة ابن مسعود « وثومها » وللتصريح به فى التوراة فى هذه القصة . وقد ذكر ابن جرير شواهد لإبدال الثاء فاء لتقارب مخرجيهما كقولهم للأثا فى «أثاثى» ، وقولهم وقعوا فى عاثور شر وعافور شر ، وللمغافير « مغاثير » « وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ » أى أدون قدراً ، وأصل الدنوّ القرب فى المكان ، فاستعير للخسة ، كما استعير البعد للشرف والرفعة ، فقيل : بعيد الهمة. « بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » أى بمقابلة ما هو خير ، أى أرفع وأجل ، وهو المنّ الذى فيه الحلاوة التى تألفها أغلب الطباع البشرية ، والسلوى من أطيب لحوم الطير ، وفى مجموعهما غذاء تقوم به البنية. وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة ولا تغذية«اهْبِطُوا مِصْرًا» هكذاهو منوّن مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية ، وهو قراءة الجمهور ، بالصرف .

قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك ، لإجماع المصاحف على ذلك ؛ أى من الأمصار ، أى انحدروا إليه « فَإِنَّ لَكُمْ » فيها « مَا سَأَلْتُمْ » أى فإن الذى سألتم يكون فى الأمصار لا فى القفار ، والمعنى أن هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير، فى أى بلد دخلتموها وجدتموه. فليس يساوى مع دناءته ، وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه . ولما حكى اللهتعالى إنكار موسى عليهالسلام على اليهود استبدالهم الذى هوأدنى بالذى هوخير ، بعد تعداد النعم ، جاء بحكاية سوء صنيعهم بالأنبياء ، وكفرهم ، واعتدائهم ، وضرب الذلة عليهم لذلك، استطراداً فقال « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ » فمن هنا إلى قوله « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » معترض فى خلال القصص المتعلقة بحكاية أحوال بنى إسرائيل الذين كانوا فى عهد موسى ، يدل على هذا قوله «ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ » فإن قتل الأنبياء إنما كان من فروعهم وذريتهم . والذلة بالكسر الصغار والهوان والحقارة ، والذل بالضم ضد العز . والمسكنة مَفعلة من السكون ، لأن المسكين قليل الحركة والنهوض، لما به من الفقر . والمسكين مفعيل منه ـ كذا فى السمين ـ

وفى الذلة استعارة بالكناية حيث شبهت بالقبة فى الشمول والإحاطة ، أو شبهت الذلة بهم بلصوق الطين بالحائط فى عدم الانفكاك . وهذا الخبر الذى أخبر الله تعالى به هو معلوم فى جميع الأزمنة، فإن اليهود أذلّ الفرق ، وأشدهم مسكنة ، وأكثرهم تصاغراً ، لم ينتظم لهم جمع ، ولا خفقت على رؤوسهم راية ، ولا ثبتت لهم ولاية ، بل ما زالوا عبيد العصى فى كل زمن ، وطروقة كل فحل فى كل عصر ، ومن تمسك منهم بنصيب من المال ، وإن بلغ فى الكثرة أى مبلغ، فهو مرتدٍ بأثواب المسكنة. « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » أى رجعوا به ، أى صار عليهم ، أو صاروا أحقاء به . من قولهم : باء فلان بفلان ، أى صار حقيقاً أن يقتل بمقابلته . فالباء على التقديرين صلة باؤوا ، لا للملابسة . وإلا لاحتيج اعتبار المرجوع إليه ، ولا دلالة فى الكلام عليه « ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم « بِأَنَّهُمْ » بسبب أنهم « كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ » الباهرة التى ظهرت على يدى عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ » كزكريا ويحيى عليهما السلام . وقتل الأنبياء فى بنى إسرائيل كان ظاهراً ، ولم يذكر قتل رسول من الرسل . وذلك ـ والله أعلم ـ لقوله « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا »(١) وقوله « إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ »(٢) وقال قوم : لم يقتل أحد من الرسل ، وإنما قتل الأنبياء ، أو رسل الرسل ، والله أعلم . كذا فى التأويلات .

وقوله « بغير الحق » لم يخرج مخرج التقييد ، حتى يقال إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق فى حال من الأحوال ، لمكان العصمة . بل المراد نعى هذا الأمر عليهم ، وتعظيمه ، وأنه ظلم بحت فى نفس الأمر ، حملهم عليه اتباع الهوى ، وحب الدنيا ، والغلوّ فى العصيان ،

---

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] ونصها: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٧٢] .

والاعتداء ، كما يفصح عنه قوله تعالى « ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » أى جرّهم العصيان والتمادى فى العدوان إلى ما ذكر من الكفر ، وقتل الأنبياء عليهم السلام . وقيل : كررت الإشارة للدلالة على أن مالحقهم، كما أنه بسبب الكفر والقتل ، فهو بسبب ارتكابهم المعاصى ، واعتدائهم حدود الله تعالى . وعليه فيكون ذكر علل إنزال العقوبة بهم فى نهاية حسن الترتيب . إذ بدئ أولًا بما فعلوه فى حق الله تعالى وهو كفرهم بآياته . ثم ثُنّى بما يتلوه فى العظم ، وهو قتل الأنبياء . ثم بما يكون منهم من المعاصى التى تخصهم . ثم بما يكون منهم من المعاصى المتعدية إلى الغير ، مثل الاعتداء . وهذا من لطائف أسلوب التنزيل .

ثم أعلم تعالى بأن باب التوبة مفتوح على الوجه العامّ لليهود وغيرهم . وأن من ارتكب كبائر الذنوب التى تستوجب الغضب الإلٰهىّ ، وضربَ الذلة والمسكنة ، كما حل باليهود ، إذا آمن وتاب فله فى الدنيا والآخرة ما للمؤمنين . وعادة التنزيل جارية بأنه متى ذكر وعد أو وعيد ، عقب بضده ليكون الكلام تاماً فقيل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أى إن الذين آمنوا بما دعا إليه محمد ﷺ ، وصاروا من جملة أتباعه . قال فى فتح البيان: كأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية ، وحال من قبلها من سائر الملل ، يرجع إلى شىء واحد ، وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً استحق ماذكره الله من الأجر . ومن فاته ذلك فاته الخير كله ، والأجر دقه وجله . والمراد بالإيمان ههنا هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله، لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان

فقال[1] « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » .

ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل فى الملة الإسلامية . فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن ، فليس بمؤمن . ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً، ولم يبق يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا مجوسيًّا . انتهى .

قال الراغب فى تفسيره : تقدم أن الإيمان يستعمل على وجهين : أحدهما الإقرار بالشهادتين، الذى يؤمن نفسَ الإنسان ، وماله عن الإباحة إلا بحق ، وذلك بعد استقرار هذا الدين مختص به كالإسلام . والثانى تحرى اليقين فيما يتعاطاه الإنسان من أمر دينه. فقوله

(١) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ٩ ـ باب فى الإيمان ، حديث رقم ٦٣ (طبعتنا)، ونصه : عن عمر قال : كنا جلوساً عند النبىّ ﷺ . فجاء رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد شعر الرأس ، لا يُرَى عليه أثر سفر ، ولا يعرفه منا أحد .

قال : فجلس إلى النبىّ ﷺ ، فأسند ركبته إلى ركبته ووضع يده على فخذيه ، ثم قال: يامحمد! ماالإسلام ؟ قال « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وإقامُ الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » قال : صدقتَ . فعجبنا منه . يسأله ويصدقه . ثم قال : يا محمد ! ما الإيمان ؟ قال « أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقَدَر ، خيره وشره » قال : صدقت . فعجبنا منه . يسأله ويصدقه . ثم قال : يا محمد ! ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإنك إن لاتراه فإنه يراك » قال : فمتى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » قال : فما أمارتها ؟ قال « أن تلد الأَمَةُ رَبَّتَهَا (قال وكيع : يعنى تلد العجمُ العربَ) وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون فى البناء » .

قال ثم قال : فلقينى النبىّ بعد ثلاث فقال « أتدرى من الرجل » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال « ذاك جبريل ، أتاكم يعلمكم معالم دينكم » .

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » عنى به المتدين بدين محمد ﷺ ، وقوله « مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ » عنى به المتحرى للاعتقاد اليقينيّ ، فهو غير الأول . ولما كانت مشاهير الأديان هذه الأربع ، بيّن تعالى أن كل من تعاطى ديناً من هذه الأديان فى وقت شرعه ، وقبل أن ينسخ ، فتحرى فى ذلك الاعتقاد اليقينيّ ، وأتبع اعتقاده بالأعمال الصالحة ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم قال : وقول ابن عباس : إن هـذا منسوخ بقوله « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ »[1] يعنون أن هذه الأديان كلها منسوخة بدين الإسلام ، وأن الله عز وجل جعل لهم الأجر قبل وقت النبيّ عليه السلام. فأما فى وقته ، فالأديان كلها منسوخة بدينه. اهـ. أى فليس مراد ابن عباس ، ومن وافقه ، أنه تعالى كان وعد من عمل صالحاً من اليهود ، ومن ذكر معهم ، على عمله ، فى الآخرة ، الجنةَ ، ثم نسخه بآية « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » بل مراده ما ذكر الراغب . وهذا ما لا شبهة فيه . ولذا قال ابن جرير : ظاهر التنزيل يدل على أنه تعالى لم يخصص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان ، بعض خلقه دون بعض منهم ، والخبر بقوله « مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » عن جميع ما ذكر فى أول الآية .

تنبيـه :

ظاهر هـذه الآية ، مع تفسير الراغب « مَنْ ءَامَنَ » بالمتحرى للاعتقاد اليقينيّ ، مما قد يستدل به العنبرىّ لمذهبه . فقد نقل الأصوليون فى باب الاجتهاد والتقليد أن العنبرىّ ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب ، حتى فى الأصول ، ووافقه الجاحظ . قال الغزالىّ فى المستصفى : ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسـلام من اليهود والنصارى والدهرية ، إن كان معانداً على خلاف اعتقاده ، فهو آثم . وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور

(١) [٣/ آل عمران/ ٨٥] ونصها : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

غير آثم . وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر ، فهو أيضاً معذور . وإنما الآثم المعذب ، المعاندُ فقط . لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها . وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى ، إذ استد عليهم طريق المعرفة . ثم ردّه الغزالىّ بأدلة سمعية ضرورية ، وذلك مثل معرفتنا ضرورة أمره عليه السلام اليهودَ والنصارى بالإيمان به ، وذمهم على إصرارهم على عقائدهم ، وذلك لا ينحصر فى الكتاب والسنة .

ثم قال الغزالىّ : وأما قوله ـ أى الجاحظ ـ : كيف يكلفهم ما لا يطيقون ؟ قلنا : نعلم ضرورة أنه كلفهم ، أما أنهم يطيقون أو لا يطيقون ، فلننظر فيه ، بل نبه الله تعالى على أنه أقدرهم عليه بما رزقهم من العقل ، ونصب من الأدلة ، وبعث من الرسل المؤيدين بالمعجزات ، الذين نبهوا العقول ، وحركوا دواعى النظر ، حتى لم يبق على الله لأحد حجة بعد الرسل اهـ.

وقوله « وَالَّذِينَ هَادُوا » أى تهودوا . يقال : هاد يهود ، وتهوّد ، إذا دخل فى اليهودية . وهو هائد ، والجمع هود . وهم أمة موسى عليه السلام ، وإنما لزمهم هذا الاسم ، لأن الإسرائيليين الذين رجعوا من جلاء سبعين سنة ، ومن سبْى بابل إلى وطنهم القديم ، كان أكثرهم من نسل يهوذا بن يعقوب (بالذال المعجمة ـ فقلبتها العرب دالاً مهملة) .

وقوله تعالى : « وَالنَّصَارَى » جمع نصران ، كندامى جمع ندمان ، يقال : رجل نصران ، وامرأة نصرانة ، والياء فى نصرانىّ للمبالغة ، كما فى أحمرىّ ، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام ـ كذا فى الكشاف ـ أو هو جمع نصرانىّ ، مغيّر عن ناصرىّ ، نسبة إلى ناصرة ـ القرية المعروفة ـ وقد نسب إليها المسيح عليه السلام ، لأنه رُبِّى بها . وجاء فى الإنجيل « يسوع الناصرىّ » . وقوله تعالى « والصَّابِئِين » جمع صابىء ، ويقال لهم الصابئة . قال ابن جرير : الصابىء هو المستحدث ، سوى دينه ، ديناً ، كالمرتدّ من أهل الإسلام عن دينه . وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب « صابئاً » يقال منه : صبا فلان يصبو صباء ، ويقال : صبأت النجوم إذا طلعت . وقد اختلف أهل

التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم ، من أهـل الملل . فقال بعضهم : يلزم ذلك كل من خرج من دين إلى غير دين . وقالوا : الذى عنى الله بهذا الاسم قوماً لا دين لهم . فمن مجاهد : الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى ، ولا دين لهم . وعن ابن زيد : الصابئون دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل ، يقولون لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبىّ . وعن قتادة : أنهم قوم يعبدون الملائـكة . اهـ .

وقال الإمام الشهرستانىّ ، فى الـكلام عن الصابئة ما مثاله : والصبوة فى مقابلة الحنيفية . وفى اللغة : صبا الرجل إذا مال وزاغ . فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة . وهم يقولون : الصبوة هو الانحلال عن قيد الرجال . وإنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين ، كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين . والصابئة تدعى أن مذهبها هو الاكتساب ، والحنفاء تدعى أن مذهبها هو الفطرة . فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ، ودعوة الحنفاء إلى الفطرة . فالصائبة قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية ، ولا يقولون بالشريعة والإسلام . فيقابلون أرباب الديانات تقابل التضاد . والصابئة الأولى الذين قالوا بعاذ يمون وهرمس ، وهما شيت وإدريس ، ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء . وهم أصحاب الروحانيات . فيعتقدون أن للعالم صانعاً حكيماً مقدّساً عن سمات الحدثان . والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يُتقرب إليه بالمتوسطات القربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرا وفعلاً وحالة . أما الجوهر فهم المقدسون عن المواد الجسمانية ، الذين جبلوا على الطهارة ، وفطروا على التقديس والتسبيح ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . قالوا فنحن نتقرب إليهم ونتوكلّ عليهم ، منهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند الله ، وهو رب الأرباب . وأما الفعل ، فقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطون فى الاختراع وتصريف الأمور من حال إلى حال ، يستمدون القوة من الحضرة الإلهية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية ،

فمنها مدبرات الكواكب السبع السيارة في أفلاكها وهي هياكلها . ولكل روحاني هيكل ، ولكل هيكل فلك ، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح إلى الجسد ؛ فهو ربه ومدبره . وكانوا يسمون الهياكل أربابا ، وربما يسمونها آباء ، والعناصر أمهات . ففعل الروحانيات : تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات ، فيتبعها قوى جسمانية ويركب عليها نفوس روحانية : مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحاني كلي ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئي . فمع جنس المطر ملك ، ومع كل قطرة ملك . ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة في الجو مما يصعد من الأرض فينزل ، مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، وما ينزل من السماء : مثل الصواعق والشهب ؛ وما يحدث في الجو من الرعد والبرق والسحاب والضباب وقوس قزح وذوات الأذناب والهالة والمجرة ؛ وما يحدث في الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة ، إلى غير ذلك . قالوا: وأما الحالة ، فأحوال الروحانيات من الروح والريحان والنعمة واللذة والسرور في جوار رب الأرباب كيف يخفى؟ هذا ملخص ما أفاده العلامة الشهرستاني في كتاب ـ الملل والنحل ـ ثم ساق مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء جرت في المفاضلة بين الروحاني المحض والبشرية النبوية ، وأوردها على شكل سؤال وجواب ، فلتنظر ثمّ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه ـ في الرد على المنطقيين ـ إن حرّان كانت دار هؤلاء الصابئة ، وفيها ولد إبراهيم عليه السلام (أو انتقل إليها من العراق. على اختلاف القولين) وكان بها هيكل العلّة الأولى . هيكل العقل الأول ، هيكل النفس الكلية ، هيكل زحل . هيكل المشتري . هيكل المريخ ، هيكل الشمس . وكذلك الزهرة وعطارد والقمر . وكان هذا دينهم قبل ظهور النصرانية فيهم . ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة

المشركين ، حتى جاء الإسلام . ولم يزل بها الصابئة والفلاسفة فى دولة الإسلام إلى آخر وقت . ومنهم الصابئة الذين كانوا ببغداد وغيرها ، أطباء وكتاباً ، وبعضهم لم يُسلم . وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور النصرانية . وكانوا يصلّون إلى القطب الشمالىّ . وتحت جامع دمشق معبد كبير له قبلة إلى القطب الشمالىّ كان لهؤلاء . فإن الصابئة نوعان : صابئة حنفاء موحّدون ، وصابئة مشركون . فالأول هم الذين أثنى الله عليهم بهذه الآية . فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا . من هذه الملل الأربع : المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين . فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل، وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ والتبديل . والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين ملة إبراهيم إمام الحنفاء قبل نزول التوراة والإنجيل . وهذا بخلاف المجوس والمشركين ، فإنه ليس فيهم مؤمن . فلهذا قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »(١) فذكر الملل الست هؤلاء ، وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة . لم يذكر فى الست من كان مؤمنا ، وإنما ذكر ذلك فى الأربعة فقط . ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين . والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين . وأما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لايشركون به شيئا ، ويؤمنون بأن الله محدِثٌ لهذا العالَم ، ويقرون بمعاد الأبدان ، فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أثنى الله عليهم . ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرّون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب يقرون بحدوثه . وكذلك المشركون من الهند. وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين ، هو أرسطو . انتهى .

وما قرره الإمام ابن تيمية ، يؤيد ماذهب إليه كثير من المفسرين ، من أن معنى

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] .

obeikandl.com

قوله تعالى « مَنْ ءَامَنَ » من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ ، مصدقاً بقلبه بالمبدإ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه ، وذلك كأهل الكتابين أو كان من الصابئة الموحدين . وذهب آخرون إلى أن معنى قوله « مَنْ ءَامَنَ » من أحدث من هذه الطوائف ، إيمانا خالصا بما ذكر . قالوا : لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام . وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه ، فلا ملابسة له بالمقام ، والصابئون ليس لهم دين يجوز رعايته فى وقت من الأوقات . فليتأمل .

وقوله تعالى « فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ » أى : الذى وعدوه على تلك الأعمال المشروطة بالإيمان، وهو فى الأصل جُعل العامل على عمله . وفى قوله « عِنْدَ رَبِّهِمْ » مزيد لطف بهم وإيذان بأن أجرهم متيقن الثبوت ، مأمون من الفوات . وقوله تعالى « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى حين يخاف الكفار العقابَ ويحزنون على تفويت الثواب .

(تنبيه) قال العلامة البقاعىّ فى تفسيره : وحسَّنَ وضعَ هذه الآية، فى أثناء قصصهم، أنهم كانوا مأمورين بقتل كل ذَكَر ممن عداهم . وربما أمروا بقتل النساء أيضاً . فربما ظن من ذلك أن من آمن من غيرهم لا يقبل . وقد ذكر منه فى سورة المائدة ، وفى وضعها أيضاً فى أثناء قصصهم ، إشارة إلى تكذيبهم فى قولهم « لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ »(١) وأن المدار فى عصمة الدم والمال إنما هو الإيمان والاستقامة . وذلك موجود فى نص التوراة فى غير موضع . وفيها تهديدهم على المخالفة فى ذلك بالذل والمسكنة . وسيأتى بعض ذلك عند قوله « لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ »(٢) الآية . بل وفيها مايقتضى المنع من مال المخالف

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

(٢) [٢ / البقرة / ٨٣] ونصها: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ =

فى الدين ، فإنه قال فى وسط السفر الثانى : وإذا لقيت ثور عدوك أو حماره وعليه حمولة فارددها إليه. وإذا رأيت حمار عدوك جاثماً تحت حمله فهممت أن لاتوازره فوازرْهُ وساعِدْهُ. ثم رجع إلى قصصهم على أحسن وجه فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ » تذكيراً لجناية أخرى لأسلافهم ، أى واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على مافى التوراة ، « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » ترهيباً لكم لتقبلوا الميثاق . وذلك أن الطور اقتلع من أصله ، ورفع وظلّل فوقهم . والطور هو الجبل . وقيل لهم وهو مطلّ فوقهم « خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ » من الكتاب « بِقُوَّةٍ » أى بجد واجتهاد ، « وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ » واحفظوا ما فى الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » لكى تتقوا المعاصى ، أو رجاء منكم أن تنتظموا فى سلك المتقين ، أو طلباً لذلك . وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة الأعراف « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(١) .

قال الراغب : إن قيل إن هذا يكون إلجاء ولا يستحق به الثواب ، قيل : لم يستحقوا الثواب بالالتزام وإنما استحقوه بالعمل بها من بعد . فأما فى التزامها فمضطرون ، وقال بعض

= إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ .

(١) [٧ / الأعراف / ١٧١] .

الناس: عنى بالطور تشديد الأمر عليهم، وجعل ذلك مثلًا . وذلك بعيد . ومثله قول القاشانى: طور الدماغ للتمكن من فهم المعانى وقبولها . فإنه بعيد يأباه ظاهر الآية الأخرى . وإن كان الإطلاق فى اللغة لا ينحصر فى الحقيقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق « مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد « فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ » أى لكم بتوفيقكم للتوبة، أو تأخير العذاب ، « لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى الهالكين بالعقوبة .

قال الراغب : الخاسر المطلق ، فى القرآن ، هو الذى خسر أعظم ما يقتنى ، وذلك نعيم الأبد ، وهو المذكور فى قوله « قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(١) .

وقال القفال : قد يعلم فى الجملة أنهم بعد قبول التوراة ورفع الطور ، تولوا عن التوراة بأمور كثيرة . فحرفوا كلها عن مواضعه ، وتركوا العمل بها ، وقتلوا الأنبياء ، وكفروا بهم ، وعصوا أمرهم . ومنها ما عمله أوائلهم ، ومنها ما فعله متأخروهم ، ولم يزالوا فى التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلًا ونهاراً يخالفون موسى ويعترضون عليه ، ويلقونه بكل أذى ويجاهرون بالمعاصى فى معسكرهم ذلك . حتى لقد خسف ببعضهم ، وأحرقت النار بعضهم ، وعوقبوا بالطاعون . وكل هذا مذكور فى تراجم التوراة التى يقرون بها ، ثم فعل متأخروهم ما لا خفاء به ، حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس ، وكفروا بالمسيح ، وهموا بقتله .

والقرآن ، وإن لم يكن فيه بيان ما تولوا به عن التوراة ، فالجملة معروفة ، وذلك إخبار من الله تعالى عن عناد أسلافهم . فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام

(١) [٣٩ / الزمر / ١٥] .

من الكتاب ، وجحودهم لحقه . وحالهم فى كتابهم ونبيهم ما ذكر . والله أعلم .

ثم ذكّرهم تعالى بالإيقاع بمن نقض ميثاقه وفيما أخذه عليهم من تعظيم السبت بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا » أى تعمدوا العدوان « مِنكُمْ فِي السَّبْتِ » بأن استحلوه وتحيّلوا على اصطياد الحيتان فيه . وذلك أن الله ابتلاهم ، فما كان يبقى حوت فى البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت ، فإذا مضى تفرقت كما قال « تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم »(١) فحفروا حياضا عند البحر ، وشرعوا إليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد . فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم . فتسبب عن اعتدائهم المذكور ما ذكره تعالى بقوله « فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » أى صاغرين مطرودين مبعدين من الخير ، أذلاء . وقد روى عن الضحاك وقتادة : أنهم مسخوا قردة ، لها أذناب تعاوى ، بعد ما كانوا رجالا ونساء . وأما مجاهد فقال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا . رواه ابن جرير . وهكذا قال القاشانىّ « كُونُوا قِرَدَةً » أى مشابهين الناس فى الصورة وليسوا بهم . ثم قال : والمسخ بالحقيقة حق غير منكر فى الدنيا والآخرة. وردت به الآيات والأحاديث . وفى أثر : عدّ الممسوخ ثلاثة عشر ، وبيان أعمالهم ومعاصيهم وموجبات

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٣] ونصها : وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

مسخهم . والحاصل أن من غلب عليه وصف من أوصاف الحيوانات، ورسخ فيه بحيث زال استمداده ، وتمكن فى طبعه ، وصار صورة ذاتية له ، صار طبعه طبع ذلك الحيوان ، ونفسه نفسه ، فصارت صفته صورته .

وهذه القصة مبسوطة فى سورة الأعراف حيث يقول تعالى « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

« فَجَعَلْنَاهَا » أى المسخة والعقوبة « نَكَالًا » عبرة تنكل المعتبر بهـا ، أى تمنعه وتردعه . ومنه النكل للقيد « لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا » من المعاصى من أهل عالمها الشاهدين لها « وَمَا خَلْفَهَا » ممن جاء بعدهم، أو لأهل تلك القرية وما حواليها، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها « وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » من قومهم ، أو لكل متق سمعها . وأشعر هذا أن التقوى عصمة من كل محذور ، وأن النقم تقع فى غيرهم ، وعظاً لهم .

(تنبيه) : أفادت هذه الآية التنويه بشأن يوم السبت عند الإسرائيليين ، إذ مستحلوه منهم مسخوا قردة. وفى ترجمة التوراة ما نصه : وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل ، يحفظون السبت لأنه مقدس لكم ، من دنّسه يقتل ، ومن صنع فيه عملا يقطع من بين شعبه . فى ستة أيام تصنع الأعمال ، وأما اليوم السابع ففيه سبت راحة ، وليحفظ بنو إسرائيل السبت ، وليتخذوه عيداً بأجيالهم . لأن الرب خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وفرغ يوم السابع . وفيها أيضاً ما نصه : فى ستة أيام تعمل عملك ، وأما اليوم السابع ففيه تستريح ، لكى يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب . انتهى

وقد حرم على اليهود فيه أن يُعدّوا طعامهم . بل حرم عليهم أن يوقدوا نارا . وفى

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٣] .

سفر نحميا ـ فى الفصل الثالث عشر ـ ما نصه : وفى تلك الأيام رأيت فى يهوذا قوماً يدوسون فى المعاصر فى السبت ويأتون بأكداسها يحملونها على الحمير ، وبخمر أيضا ، وعنب وتين ، وكل حمل مما كانوا يأتون به إلى أورشليم فى يوم السبت . فأشهدت عليهم يوم بيعهم الطعام . وكان الصوريون المقيمون بها يأتون بالسمك . وكل نوع من المبيعات ، ويبيعون فى يوم السبت لبنى يهوذا وفى أورشليم . فخاصمتُ عظماء يهوذا ، وقلت لهم : ما هذا الشرّ الذى تفعلونه وتدنّسون يوم السبت ؟ ألم تفعل آباؤكم هكذا ؟ فجلب إلهنا كل هذا الشر علينا وعلى هذه المدينة ، وأنتم تزيدون الغضب على بنى إسرائيل بتدنيسكم السبت ، إلى آخره .

ولما بيّن تعالى قساوتهم فى حقوقه العلية ، أتبعه ببيان قساوتهم فى مصالح أنفسهم توبيخاً لأخلافهم . مع الإشارة إلى نعمته عليهم فى خرق العادة فى شأن البقرة ، وبيان من هو القاتل بسببها ، وإحياء الله تعالى المقتول ، ونصه على من قتله منهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ » بنى إسرائيل « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » وذلك أنه وجد قتيل فيهم، وكانوا يطالبون بدمه ، فأمرهم الله بذبح بقرة وأن يضربوه ببعضها ليحيي ويخبر بقاتله « قَالُوا » استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : فماذا صنعوا ؟ هل سارعوا إلى الامتثال أوْ لا . فقيل « قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا » بضم الزاى وقلب الهمزة واوا ، وقرئ بالهمزة مع الضم والسكون . أى أتجعلنا مكان هُزُوٍ ، أو أهل هُزُوٍ ، أو مهزوًّا بنا ، أو نفس الهزو ، للمبالغة . وأشعر جوابهم ما ثبت من فظاظتهم ، إذ فيه سوء الأدب على من ثبتت رسالته وقد علموها . «قَالَ» استئناف كما سبق « أَعُوذُ بِاللَّهِ

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لأن الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله، سبحانه، جهل وسفه. نفى عنه، عليه السلام ، ما توهموه من قِبَلِهِ على أبلغ وجه ، وآكده ، بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه ، استفظاعاً له ، واستعظاماً لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه ، عليه السلام، بها . والعَوْذ : اللَّجأ من متخوَّف لكافٍ يكفيه . والجهل : التقدم فى الأمور بغير علم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ)

« قَالُوا » تمادياً فى الغلظة « ادْعُ لَنَا » أى لأجلنا « رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ » ماحالها، وصفتها . وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيي . فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن ، الخارجة عما عليه البقر ، و « ما » وإن شاعت فى طلب مفهوم الحقيقة ، لكنها قد يطلب بها الصفة والحال . تقول : ما زيد ؟ فيقال : طبيب أو عالم . « قَالَ » أى موسى عليه السلام ، بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان ، وأتاه الوحى . « إِنَّهُ » تعالى « يَقُولُ إِنَّهَا » أى البقرة المأمور بذبحها « بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ » أى لا مسنّة . وقد فرضت فروضا ، فهى فارض ، أى أسنّت . من الفرض بمعنى القطع . كأنها قطعت سنّها وبلغت آخرها . « وَلَا بِكْرٌ » أى لا فتيّة صغيرة لم يُلَقِّحْها الفحل . « عَوَانٌ » أى نصف « بَيْنَ ذَلِكَ » أى سِنَّىِ الفارض والبكر « فَافْعَلُوا مَاتُؤْمَرُونَ » هذا أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به . وفيه حثّ على الامتثال ، وزجر عن المراجعة . ومع ذلك لم يفعلوا ، بل سألوا بيان اللون بعد بيان السنّ بأن :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا » شديد الصفرة ، يقال فى التوكيد : أصفر فاقع ووارس ، كما يقال : أسود حالك ، وأبيض يقق ، وأحمر قانئ ، وأخضر ناضر ومدهامّ . وفى إسناد الفقوع إلى اللون ـ مع كونه من أحوال الملوّن لملابسته به ـ مالا يخفى من فضل تأكيد . كأنه قيل: صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما فى : جدّ جدّه . « تَسُرُّ النَّاظِرِينَ » أى تبهج نفوسهم .

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ، ولكنهم شددوا فشُدد عليهم . وقد رواه غير واحد عن ابن عباس ، ورفعه ابن جريج والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ » زيادة استكشاف عن حالها لتمتاز عما يشاركها فى التعوين والصفرة . ولذلك عللوا تكرير سؤالهم بقولهم « إِنَّ الْبَقَرَ » الموصوف بما تقدم « تَشَابَهَ عَلَيْنَا » لكثرته ، أى اشتبه علينا أيّها نذبح . قال البقاعىّ : وذكّر الفعل ، لأن كل جمع حروفه أقل من حروف واحده ، فإن العرب تذكره . نقل عن سيبويه . « وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ » إلى البقرة المراد ذبحها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)

« قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ » . أى لم تذلل لإثارة الأرض وسقى الحرث. و«لا ذلول» صفة لبقرة . بمعنى غير ذلول. و «لا» الأولى للنفى ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى . لأن المعنى : لا ذلول تثير وتسقى ، على أن الفعلين صفتان لذلول ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية ، والمقصود : إنهـا مكرمة ليست مذللة بالحراثة ، ولا مُعَدة للسقى فى السانية . « مُسَلَّمَةٌ » ، سلمها الله من العيوب ، أو معفاة من العمل ، سلمها أهلها منه ، أو مخلصة اللون لم يشب صفرتها شىء من الألوان . من : سلم له كذا، إذا خلص له « لَا شِيَةَ فِيهَا » ، أى لا لون فيها يخالف لون جلدها من بياض وسواد وحمرة ، فهى صفراء كلها ، وهى فى الأصل مصدر : وشاه وشيا وشية ، إذا خلط بلونه لوناً آخر . فى الصحاح : الشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره . والهاء عوض من الواو الذاهبة من أوله . والجمع : شيات . يقال : ثور أشْيَه ، كما يقال : فرس أبلق . « قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ » أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها ، ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا . بخلاف المرتين الأوليين ، فإن ما جئت به فيهما لم يكن فى التعيين بهذه المرتبة « فَذَبَحُوهَا » ، الفاء فصيحة ، كما فى « فانفجرت » ، أى فحصلوا البقرة فذبحوها «وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» كاد من أفعال المقاربة، وضع لدنوّ الخبر من الحصول، والجملة حال من ضمير ذبحوا ، أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه . اعتراض تذييلىّ . ومآله استثقال استقصائهم واستبطاء لهم، وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط إسهابهم فيها .

(تنبيه) قال الراغب : قال بعض الناس : فى هذه الآية دلالة على نسخ الشىء قبل

فعله . فإن فى الأول أمروا بذبح بقرة غير معينة ، وكان لهم أن يذبحوا أى بقرة شاؤا . وفى الثانى والثالث أمروا بذبح بقرة مخصوصة . فكأنهم نهوا عما كانو أمروا به من قبل . وليس كذلك ، فإن الأول أمر مطلق ، والثانى والثالث كالبيان له ، لمّا راجعوا . ولم يسقط عنهم ذبح البقرة . بل زيد فى أوصافها وكشف عن المراد بالأمر الأول . وفى الآية دلالة على جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا » أى اختلفتم واختصمتم فى شأنها ، إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر « وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » مُظهر ، لا محالة ، ما كتمتم من أمر القتيل ، لا يتركه مكتوما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

« فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ » أى المقتول « بِبَعْضِهَا » أى البقرة . يعنى فضربوه فحيي وأخبر بقاتله . كما دل عليه قوله « كَذَٰلِكَ » أى مثل هذا الإحياء العظيم على هذه الهيئة الغريبة « يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ » يوم القيامة « وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ » أى دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شىء قدير . ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء . والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت ، وإخباره بقاتله ، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » لتكونوا برؤية تلك الآيات على رجاء من أن يحصل لكم عقل ، فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره ، مما تخبر به الرسل عن الله تعالى .

قال الراغب: وقوله « كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ » قيل هو حكاية عن قول موسى عليه السلام لقومه ، وقيل بل هو خطاب من الله تعالى لهذه الأمة ، تنبيهاً على الاعتبار بإحيائه الموتى .

تنبيهات :

(الأول) قال الزمخشري : (فإن قلت) فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ؟ فيقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ؟

(أجيب) بأن كل ما قص من قصص بني إسرائيل ، إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات ، وتقريعاً لهم عليها ، ولما جدد فيهم من الآيات العظام . وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين . فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء ، وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل ، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تثنية التقريع . ولقد روعيت نكتة، بعد ما استؤنفت الثانية، استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : اضربوه ببعضها ، حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ، وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها . وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة . اهـ

وقال الحرالي : قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر ندائهم في القتيل ، ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة. والله أعلم .

(التنبيه الثاني) قال الراغب : قد استبعد بعض الناس ذلك وما حكاه الله منه ، وأنكر

حصول ذلك الفعل على الحقيقة وقال : ذلك ممتنع من حيث الطبيعة ، وأيضاً فإن ذلك لا يعرف فيه حكمة إلٰهية . فأما استبعاده ذلك من حيث الطبيعة فإنما هو استبعاد للإحياء والنشور ، ولذلك موضع لا يختص بالتفسير . ومن كان ذلك طريقته فلا خوض معه فى تفسير القرآن . وأما الحكمة فيه فظاهرة إذ هو من المعجزات المحسوسة الباهرة للعقول . وأما تخصيص البقرة ، فإن كثيراً من حكمة الله تعالى لا يمكن للبشر الوقوف عليه . ولو لم يكن فى تخصيص بقرة على وصف مخصوص إلا توافر المأمورين بذلك على طلبها ، واستيجاب الثواب فى بذل ثمنها، وجاب نفع توفر إلى صاحبها ـ لكان فى ذلك حكمة عظيمة . وفى الآية تنبيه على أن الجماعة التى حكمهم واحد يجوز أن ينسب الفعل إليهم وإن كان واقعاً من بعضهم ، ولا يكون ذلك كذبا . كأن الجملة المركبة من شخص واحد يصح أن ينسب إليها ما وقع من عضو منها .

وقد ذكر أكثر المفسرين قصة البقرة وصاحبها بروايات مختلفة لم نورد شيئاً منها لأنه لم يرو بسند صحيح إلى النبى ﷺ ، ولا يتعلق به كبير فائدة . كما أن البعض من البقرة لم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه . فنحن نبهمه كما أبهمه الله تعالى ، إذ ليس فى تعيينه لنا فائدة دينية ولا دنيوية . وإن كان معيّنا فى نفس الأمر ، وأيًّا كان فالمعجزة حاصلة به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ، وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ » المخاطبون إما أهل الكتاب الذين كانوا فى زمنه ﷺ ، أى اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التى جاءت أوائلكم ، والأمور التى جرت عليهم ، والعقاب الذى نزل بمن أصرّ على المعصية منهم ، والآيات التى

جاءهم بها أنبياؤهم ، والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم ، وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم . فأخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التي تلين عندها القلوب . وهذا أولى . لأن قوله تعالى « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ » ، خطاب مشافهة . فحمله على الحاضرين أولى . وإما أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام خصوصًا ، أو من قبل المخاطبين من سلفهم. والله أعلم . « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ » فى القساوة « أَوْ أَشَدُّ » منها « قَسْوَةً » أى هى فى القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها . و «أو» للتخيير أو للترديد . بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد . أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هى أقسى من الحجارة ، وتركُ ضمير المفضل عليه للأمن من الالتباس « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ » أى يتفتح بالسعة والكثرة « مِنْهُ الْأَنْهَارُ » بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة فى القساوة وعدم التأثر بالعظات والقوارع التى تميع منها الجبال وتلين بها الصخور ، يعنى أن الحجارة ربما تتأثر حيث يكون منها ما يتفجر منه المياه العظيمة « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ » أى يتشقق « فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ » أى العيون التى هى دون الأنهار « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » أى يتردى من رأس الجبل من خشية الله، انقياداً لما سخره له من الميل إلى المركز بالسلاسة ، قاله القاشانى .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى الاستدلال بظاهر الآية على خلق التميز فى الجماد حتى يخشى ويسبح . والمحققون على أن هذه الآية وأمثالها من المجاز البليغ . وأن الإطلاق لا ينحصر فى الحقيقة . لا سيما وأن المجاز أكثر فى اللسان منها ، كما بسط فى مطولات البيان .

وقد رد الإمام ابن حزم، فى أول كتابه «الفصل» على من زعم أن للحيوان والجماد تمييزاً، رداً مسهباً . وقال : من ادعى ذلك أكذبه العيان . ثم استثنى ما كان معجزة للأنبياء عليهم السلام .

(قال) ولعل معترضاً يعترض بقوله تعالى يصف الحجارة « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ

خَشْيَةِ اللهِ » ، فقد علمنا بالضرورة أن الحجارة لم تؤمن بشريعة ولا بعقل ولا بعث إليها نبيٌّ . فإذْ لا شك فى هذا ، فإن القول منه تعالى يخرج على أحد ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون الضمير فى قوله تعالى « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ » راجع إلى القلوب المذكورة فى أول الآية فى قوله تعالى « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » فذكر تعالى أن من تلك القلوب القاسية ما يقبل الإيمان يوماً ما ، فيهبط عن القسوة إلى اللين من خشية الله تعالى ، وهذا أمر يشاهد بالعيان ، فقد تلين القلوب القاسية بلطف الله تعالى ، ويخشى العاصى . وقد أخبر عز وجلّ : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ »[١] ، وكما أخبر تعالى أن من الأعراب من يؤمن بالله[٢] من بعد أن أخبر أن «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا»[٣] . (قال) فهذا وجه ظاهر متيقن الصحة . والوجه الثانى أن الخشية المذكورة فى الآية إنما هى التصرف بحكم الله تعالى وجرى أقداره ، كما قلنا فى قوله تعالى حاكياً عن السماء والأرض « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »[٤] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ونصها : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٢) [٩ / التوبة / ٩٩] ونصها : وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة/ ٩٧] ونصها : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٤) [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

والوجه الثالث أن يكون الله تعالى عنى بقوله « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » الجبلَ الذى صار دكًّا، إذ تجلى الله تعالى له يوم سأله كليمه عليه السلام الرؤية ، فذلك الجبل بلاشك من جملة الحجارة ، وقد هبط عن مكانه من خشية الله تعالى ، وهذه معجزة وآية وإحالة طبيعةٍ فى ذلك الجبل خاصة . ويكون « يهبط » بمعنى « هبط » كقوله تعالى « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا »(١) معناه : وإذ مكر ، وبين قوله تعالى، مصدقاً إبراهيم خليله ﷺ فى إنكاره على أبيه عبادة الحجارة « لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ »(٢) وقوله تعالى « أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ، قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ »(٣) فصح بهذا، صحةً لا مجال للشك فيها ، أن الحجارة لاتعقل . وإذ تيقن ذلك بالنص وبالضرورة والمشاهدة فقد انتفى عنها النطق والتمييز والخشية ، المعهود كل ذلك عندنا . وأما الأحاديث المأثورة فى أن الحجر له لسان وشفتان، والكعبة كذلك ، وأن الجبال تطاولت ، وخشع جبل كذا، فخرافات موضوعة نقلها كل كذاب وضعيف ، لايصح منها شىء من طريق الإسناد أصلا . ويكفى من التطويل فى ذلك أنه لم يُدخِل شيئاً منها من انتدب من الأئمة لتصنيف الصحيح من الحديث ، أو ما يستجاز روايته ، مما يقارب الصحة (انتهى كلام ابن حزم) .

وقال ابن جرير : اختلف أهل النحو فى معنى الهبوط ـ ما هبط من الأحجار من خشية الله ـ فقال بعضهم : إن هبوط ماهبط منها من خشية الله تفيّؤ ظلاله . وقال آخرون: ذلك الجبل الذى صار دكا إذ تجلى له ربه . وقال آخرون : قوله « يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ »

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٠] ونصها : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٤٢] ونصها : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٤٣] .

كقوله « جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ »(١) ولا إرادة له . قالوا : وإنما أريد بذلك أنه من عظم أمر الله يُرَى كأنه هابط خاشع من ذلّ خشية الله . قال زيد الخيل :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فى حَجَرَاتِهِ ترَى الأُكْمَ منه سُجَّدًا لِلحَوَافِرِ(٢)

وكما قال سويد بن أبى كاهل، يصف عدوًّا له :

سَاجِدَ المَنْخِرِ لَا يَرْفَعُهُ خَاشِعَ الطَّرْفِ أَصَمَّ المُسْتَمَعْ(٣)

يريد أنه ذليل .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٧٧] ونصها : فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .

(٢) قال السيد محمود محمد شاكر فى تعليقه على هذا البيت فى تفسير ابن جرير (٢/١٠٤) ما يأتى :

البلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين . والحجرات جمع حَجْرة : الناحية . والأُكْم (وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة : وهى تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة .

قال ابن قتيبة فى المعانى الكبير « يقول إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل . يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر . والباء فى (بجمع) متعلقة ببيت سالف هو :

بنى عامر ، هل تعرفون إذا غدا أبو مِكْنَفٍ قد شدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ

(٣) وقال أيضاً (٢/٢٤٢) ما يأتى :

يقول : أذلّه فطأطأ رأسه خزيا ، وألزم الأرض بصره ، وصار كأنه أصمّ لا يسمع مايقال له ، فهو لا حراك به ، مات وهو حىّ قائم ، لا يحير جوابا . ولذلك قال بعده :

فَرَّ منى هاربا شيطانُهُ حيث لا يُعْطِى ، ولا شيئًا مَنَعْ

وكما قال جرير بن عطية :

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَّعُ(١)

وقال آخرون : معنى قوله « يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » أى يوجب الخشية لغيره بدلالته على صانعه . كما قيل: ناقة تاجرة إذا كانت، من نجابتها وفراهتها، تدعو الناس إلى الرغبة فيها ، كما قال جرير بن عطية :

وَأَعْوَرُ مِنْ نَبْهَانَ ، أَمَّا نَهَارُهُ فَأَعْمَىٰ ، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ(٢)

فجعل الصفة لليل والنهار ، وهو يريد بذلك صاحبه النبهانىّ الذى يهجوه . من أجل أنه فيهما كان ما وصفه به . ثم اختار ابن جرير ما يقتضيه ظاهر الآية . وتقدم رد ابن حزم له مبرهنا عليه .

---

(١) وقال أيضاً (٢/١٧) ما يأتى :

استشهد به سيبويه على أن تاء التأنيث جاءت للفعل لما أضاف (سور) إلى مؤنث وهو (المدينة) وهو بعض منها .

قال سيبويه : وربما قالوا فى بعض الكلام : ذهبت بعض أصابعه ، وإنما أنث البعض لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه . لأنه لو قال « ذهبت عبد أمك » لم يحسن .

وهـذا البيت يعيّر به الفرزدقَ بالغدر ويهجوه . فإن الزبير بن العوام رضى الله عنه ، حين انصرف يوم الجمل ، عرض له رجل من بنى مجاشع (رهط الفرزدق) فرماه فقتله غيلة . ووصف الجبال بأنها « خشع » يريد : عنـد موته خشعت وطأطأت من هول المصيبة فى حوارىّ رسول الله ﷺ ، ومن قبح مالقى من غدر بنى مجاشع .

(٢) وقال أيضاً (١/٣١٧) ما يأتى :

كان الأعور النبهانىّ هجا جريرا . فأكله جرير . قال أبو عبيدة « أى هو أعور النهار عن الخيرات ، بصير الليل بالسوءات ، يسرق ويزنى » .

ثم رأيت الإمام الراغب حاول هنا تقريب ما نقل من الوقوف على ظاهرها بتأويله . وعبارته : قال مجاهد وابن جريج : كل حجر تردى من رأس جبل لخشية الله نزلت به ، وقال الزجاج : الهابط منها قد جعل له معرفة ، قال ويدل على ذلك قوله « لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ »(١) وقال « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ »(٢) إلى قوله « وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ »(٢) وقد روى مثل هذا عن السلف ، ولا بد فى معرفة ذلك من مقدمة تكشف عن وجه هذا القول ، وحقيقته . فإن قوماً استسلموا لما حكى لهم من هذا النحو ، فانطووا على شبهة . وقوما استبعدوا ذلك واستخفوا عقل رواته وقائليه ، فيقال وبالله التوفيق : إن قوما من المتقدمين ذكروا أن جميع المعارف على أضرب : الأول المعرفة التامة التى هى العلم التام . وذلك لعلام الغيوب الذى أحاط بكل شىء علما . والثانى معرفة متزايدة ، وهى للإنسان . وذاك أن الله تعالى جعل له معرفة غريزية . وجعل له بذلك سبيلا إلى تعرف كثير مما لم يعرفه . وليس ذلك إلا للإنسان . والثالث معرفة دون ذلك ، وهى معرفة الحيوانات التى سخرها لإيثار أشياء نافعة لها والسعى إليها . واسترذال أشياء هى ضارة لها وتجنبها ، ودفع مضار عن أنفسها . والرابع : معرفة الناميات من الأشجار والنبات ، وهى دون ما للحيوانات ، وليس ذلك إلا فى استجلاب المنافع وما ينميها . والخامس: معرفة العناصر. فإن كل واحد منها مسخر لأن يشغل المكان المختص به كالحجر فى طلب السفل ، والنار فى

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٢١] .

(٢) [٢٢ / الحج / ١٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

طلب العلو ، وذلك بتسخير الله تعالى، بلا اختيار منه . قالوا: والدلالة على ذلك أن كل واحد من هذه العناصر إذا نقل من مركزه قهراً ، أبى إلا العود إليه طوعا . قالوا ويوضح ذلك أن السراج يجتذب الأدهان التي تبقيه . ويأبى المـاء الذي يطفيه . وأن المغناطيس يجر الحديد ولا يجر غيره . هذا ما حكوه .

فعلى هذا إذا قيل : لهذه الأشياء معرفة ، فليس ببعيد ، متى سلم لهم أن هذه القوى تسمى معرفة . فأما إذا قيل إن للجمادات معارف الإنسان فى أنها تميز وتختار وتريد ، فهذا مما تعافه العقول . (انتهى قول الراغب) .

وهو تأويل حسن ، ومبناه على أن اصطلاح السلف فى كثير من الإطلاقات غير اصطلاحات الخلف . وهو مسلم فى كثير من الإطلاقات .

وقوله تعالى « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى . فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه ، مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد . ولما بيّن سبحانه وتعالى قساوة قلوبهم، تسبب عن ذلك بعدهم عن الإيمان ، فالتفت إلى المؤمنين يؤيسهم من فلاحهم تسلية للنبيّ ﷺ عما كان يشتد حرصه عليه من طلب إيمانهم فى معرض التنكيت عليهم ، والتبكيت لهم ، منكراً للطمع فى إيمانهم فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« أَفَتَطْمَعُونَ » أيها المؤمنون بعد أن علمتم تفاصيل شؤون أسلافهم المؤيسة عنهم « أَنْ يُؤْمِنُوا » أى هؤلاء اليهود الذين بين أظهركم وهم متماثلون فى الأخلاق الذميمة ، لا يأتى من أخلافهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم ، (واللام فى قوله) « لَكُمْ » لتضمين

معنى الاستجابة . كما فى قوله عز وجل « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ »(١) أى فى إيمانهم مستجيبين لكم . أو للتعليل أى فى أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم « وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ » أى طائفة فيمن سلف منهم « يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ » وهو ما يتلونه من التوراة « ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ » قال ابن كثير : أى يتأولونه على غير تأويله . وقال ابن جرير : يعنى بقوله « يُحَرِّفُونَهُ » يبدلون معناه وتأويله ويغيرونه ، وأصله من انحراف الشيء عن جهته وهو ميله عنها إلى غيرها . فكذلك قوله « يُحَرِّفُونَهُ » أى يميلونه عن وجهه ، ومعناه الذى هو معناه، إلى غيره . « مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ » أى فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله .

قال ابن جرير : هذا إخبار عن إقدامهم على البهت ومناصبتهم العداوة له ولرسوله موسى عليه السلام . وأن بقاياهم فى العصر المحمدىّ على مثل ما كان عليه أوائلهم فى العصر الموسوىّ بغياً وحسداً . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ »(٢) والظاهر أن المراد، بالفريق منهم، أحبارهم ، وإنما فعلوا ذلك لضرب من الأغراض على ما بينه الله تعالى ، من بعدُ ، فى قوله تعالى « وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا »(٣) وقال « يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »(٤) .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٦] ونصها : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٥ / المائدة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٣/ آل عمران/١٨٧] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .

(٤) [٢ / البقرة/ ١٤٦] ونصها : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ =

ولقائل أن يقول ، كيف يلزم من إقدام البعض على التحريف حصول اليأس من إيمان الباقين ، فإن عناد البعض لا ينافى إقرار الباقين . وأجاب القفال عنه فقال : يحتمل أن يكون المعنى : كيف يؤمن هؤلاء ، وهم إنما يأخذون دينهم ، ويتعلمونه من قوم هم يتعمدون التحريف عناداً ، فأولئك إنما يعلمونهم ما حرفوه وغيّروه عن وجهه ، والمقلدة لا يقبلون إلا ذلك ، ولا يلتفتون إلى أقوال أهل الحق ، وهو قولك للرجل كيف تفلح ، وأستاذك فلان ؟ أى وأنت عنه تأخذ ، ولا تأخذ عن غيره .

ونحوه قول الراغب : لما كان الإيمان هو العلم الحقيقىّ مع العمل بمقتضاه ، فمتى لم يتحر ذلك من حصل له بعض العلوم ، فحقيق أن لا يحصل لمن غَبِيَ عن كل العلوم . فذكر ذلك تبعيدا لإيمانهم لا يأساً للحكم بذلك ، إذ ليس كل ما لا يطمع فيه كان مأيوسا (ثم قال الراغب) وفى الآية تنبيه أنْ ليس المانع للإنسان من تحرى الإيمان الجهل به فقط ، بل يكون عناداً وَغلبة شهوة .

(تنبيه) ما نقلناه عن ابن جرير وابن كثير فى تفسير « ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ » هو الأنسب باعتبار سوق الآية الكريمة ، ولا يتوهم من ذلك دفع تحريفهم اللفظىّ عن التوارة ، فإنه واقع بلا ريب ، فقد بدلوا بعضاً منها وحرفوا لفظه ، وأوّلوا بعضا منها بغير المراد منه ، وكذا يقال فى الإنجيل . ويشهد لذلك كلام أحبارهم ، فقد نقل العلامة الجليل الشيخ رحمة الله الهندىّ فى كتابه (إظهار الحق) : أن أهل الكتاب سلفا وخلفا ، عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالبا الأسماء فى تراجمهم ، ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد ، وأنهم يزيدون تارة شيئاً بطريق التفسير فى الكلام ، الذى هو كلام الله فى زعمهم ،

= أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

و [٦ / الأنعام / ٢٠] ونصها : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم . ومن تأمل في تراجمهم المتداولة بألسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور كثيرة . ثم ساق بعضاً منها فانظره .

وفي ذخيرة الألباب ، لأحد علماء النصارى ، ما مثاله : إن بعضهم ذهب إلى أن الروح القدس لم يق الكتبة عثرة الخطإ الطفيف، ولا كفاهم زلة القدم حتى لم يستحل أنهم خلطوا البشريات بالإلٰهيات . وفيه أيضاً : إن بين النسخة العبرانية والسامرية واليونانية من الأسفار الخمسة خلافاً عظيما في أمر التاريخ . فإذًا تحريف الأسفار الخمسة أمر بيّن . وفيه أيضاً في الفصل (٣١) : أن بعض علمائهم زعم أنه وجد في الترجمة اللاتينية العامية للعهدين العتيق والجديد نيفاً وأربعة آلاف غلطة ، ورأى آخر فيها ما يزيد على الثمانية آلاف خطأ . انتهى. فثبت من شهادتهم وقوع التحريف اللفظيّ فيها. وهو المقصود .

وأما القول بتحريف الأسفار كلها أو جلها ، فهو إفراط . قال الحافظ ابن حجر في أواخر شرح الصحيح في باب قول الله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ »[1] : إن القول بأنها بدلت كلها مكابرة . والآيات والأخبار كثيرة في أنه بقي منها أشياء كثيرة لم تبدل . من ذلك قوله تعالى « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »[2] الآية . ومن ذلك

(١) [٨٥ / البروج / ٢١] .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

قصة رجم اليهوديين[(١)] وفيه وجود آية الرجم ويؤيده قوله تعالى « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[(٢)]. وقد أسلفنا تتمة هذا البحث فى مقدمة التفسير فى الكلام على الإسرائيليات . فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى، عن تخلق أولئك المأيوس من إيمانهم من اليهود بأخلاق المنافقين وسلوكهم مناهجهم، بقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ٢٦ ـ باب قول الله تعالى: يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .

عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا . فقال لهم رسول الله ﷺ « ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويُجْلَدون . فقال عبد الله بن سَلَام : كذبتم . إن فيها الرجم . فأَتَوْا بالتوراة فنشروها . فوضع أحدهم يده على آية الرجم . فقرأ ما قبلها وما بعدها .

فقال له عبد الله بن سلَام : ارفع يدك .

فرفع يده فإذا فيها آية الرجم .

فقالوا : صَدَقَ ، يا محمد ، فيها آية الرجم .

فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما .

قال عبد الله : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] ونصها : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله من أصحاب النبىّ ﷺ « قَالُوا ءَامَنَّا » أى بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشر به ، وكأنهم يقولون ذلك إرضاء لحلفائهم من الأوس والخزرج ، أو جهراً بحقيقةٍ لا يسعهم ، أمام حلفائهم ، السكوت عنها . « وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ » يعنى الذين لم ينافقوا « إِلَىٰ بَعْضٍ » أى الذين نافقوا « قَالُوا » أى عاتبين عليهم « أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » أى بما بيّن لكم فى التوراة من البشارة بالنبىّ ﷺ ، والإيمان بالنبىّ الذى يجيئكم مصدقاً لما معكم، ونصره.

قال ابن إسحق : أى أتقرّون بأنه نبىّ ، وقد علمتم أنه أُخِذَ له الميثاق عليكم باتّباعه ، وهو يخبرهم أنه النبىّ الذى نجده فى كتابنا ، اجحدوه ولا تقرّوا به .

قال ابن جرير : أصل الفتح فى كلام العرب القضاء والحكم . والمعنى : أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم ؟ ومن حكمه تعالى وقضائه فيهم ، ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به فى التوراة . اهـ .

« لِيُحَاجُّوكُمْ » متعلقة بالتحديث ، دون الفتح ، أى ليقيم المؤمنون به عليكم الحجة « بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ » أى لتكون الحجة للمؤمنين عليكم فى الآخرة ، فيقولون : ألم تحدثونا بما فى كتابكم ، فى الدنيا، من حقيّة ديننا ، وصدق نبينا ؟ فيكون ذلك زائداً فى ظهور فضيحتكم ، وتوبيخكم على رؤوس الخلائق ، فى الموقف . لأنه ليس من اعترف بالحق ، ثم كتم ، كمن ثبت على الإنكار .

وتأول الراغب الأصفهانىّ قوله تعالى « عِندَ رَبِّكُمْ » أى فى حكمه وكتابه ، كما هو وجهٌ فى آية « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ، فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ »[١] أى فى

(١) [٢٤ / النور / ١٣] وأولها : لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ،

حكم الله وقضائه ، وهو وجه جيد . وقوله « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » من تمام التوبيخ والعتاب ، فهو من جملة الحكاية عنهم على سبيل إنكار بعضهم على بعض . قال الراغب : ويصح أن تكون استئناف إنكار من الله عز وجل ، على سبيل ما يسمى فى البلاغة « الالتفات » . ويصح أن يكون ذلك خطاباً للمؤمنين ، تنبيهاً على ما يفعله الكفار والمنافقون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

« أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أى يخفون من قولهم لأصحابهم ، ومن غيره « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى يظهرون من ذلك ، فيخبر به أولياءه . قال الراغب : هذا تبكيت لهم ، وإنكار لما يتعاطونه ، مع علمهم بأن الله لا يخفى عليه خافية .

ولما ذكر العلماء من اليهود الذين عاندوا بالتحريف، مع العلم والاستيقان ، ذكر العوامّ الذين قلدوهم ، ونبّه على أنهم فى الضلال سواء . لأن العالِمَ عليه أن يعمل بعلمه ، وعلى العامّىّ أن لا يرضى بالتقليد والظن ، وهو متمكن من العلم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ » أى لا يحسنون الكَتْبَ فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها من دلائل النبوة ، فيؤمنوا . « لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ » أى التوارة ، أى لا يدرون ما فيها من حدودٍ وأحكامٍ ومواثيق «إِلَّا أَمَانِيَّ» بالتشديد جمع أمنية ، أصلها أُمْنُويَة « أُفْعُولَة » فأُعِلَّتْ إعلالَ سيّد ، وميّت . مأخوذة من تمنى الشيء : قدّره وأحب أن يصير إليه . أو من تمنّى : كذب . أو من تمنّى الكتابَ : قرأه . وعلى كلٍّ فالاستثناء منقطع ، إذ ليس ما يُتمنى ، وما يُختلق وما يتلى ، من جنس علم الكتاب . أى لا يعلمون الكتاب . لكن يتمنون

أمانىّ حسبما منتّهم أحبارُهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم . وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم . وغير ذلك من أمانيّهم الفارغة . المستندة إلى الكتاب ، على زعم رؤسائهم . أو لا يعلمون الكتاب ، لكن أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم . فتقبلوها على التقليد . أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم . فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر والتأمل فيه .

قال ابن جرير : وأوْلى ما روينا فى تأويل قوله « إلا أمانىّ » أن هؤلاء الأميين لا يفقهون ، من الكتاب الذى أنزله الله ، شيئا . ولكنهم يتخرصون الكذب ويتقوّلون الأباطيل كذبا وزورا . والتمنى فى هذا الموضع هو تخلقّ الكذب وتخرّصه وافتعاله . بدليل قوله تعالى بعدُ « وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظنا منهم ، لا يقينا .

وقال أبو مسلم الأصفهانىّ : حَمْلُهُ على تمنى القلب أولى . بدليل قوله تعالى «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ »(١) أى تمنيهم. وقال الله تعالى « لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »(٢) وقال « تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ »(١)، « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »(٣) بمعنى يقدّرون ويخرصون . ورجح كثيرون حمله على القراءة ، كقوله تعالى

---

(١) [٢ / البقرة / ١١١] .

(٢) [٤ / النساء / ١٢٣] ونصها : لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢٤] .

« إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ »(١) إذ فى الاستثناء ، حينئذ، نوع تعلق بما قبله . فيكون أليقَ فى طريقة الاستثناء . و « إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » ما هم إلاّ قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد ، من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم . فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين ؟

(تنبيه) قال الراغب : قد أنبأ الله عن جهل الأميين وذمهم والمبالغة فى ذم علمائهم وأحبارهم . فإن الأميين لم يعرفوا إلا مجرد التلاوة . واعتمدوا على زعمائهم وأحبارهم . وهم قد ضلوا وأضلوا . ونبهنا الله تعالى بذم الأميين ، على اكتساب المعارف لئلا يحتاج إلى التقليد والاعتماد على من لا يؤمن كذبه . وبذم زعمائهم ، على تحرّى الصدق وتجنب الإضلال . إذ هو أعظم من الضلال اه

ولما بين حال هؤلاء فى تمسكهم بحبال الأمانىّ واتباع الظن ، عقب ببيان حال الذين أوقعوهم فى تلك الورطة ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل . فقيل على وجه الدعاء عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)

« فَوَيْلٌ » فإن أضيف ، نُصِبَ . نحو : ويلكَ وويحك ـ وإذا فُصِل عن الإضافة ،

---

(١) [٢٢ / الحج / ٥٢] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

رفع . نحو : ويلٌ له . الويل : الهلاك وشدة العذاب « لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ » أى المحرّف . أو ما كتبوه من التأويلات الزائفة « بِأَيْدِيهِم » تأكيد لدفع توهم المجاز . كقولك: كتبته بيميني. وقد يقال فى مثل هذا : إن فائدته تصوير الحالة فى النفس كما وقعت حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة « ثُمَّ يَقُولُونَ » لما كتبوه ، كذباً وبهتاناً « هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ » أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته «ثَمَنًا قَلِيلًا» أى عرضاً يسيرا. ويجوز فى الآية معنى آخر . أى : فويلٌ للذين يكتبون كتاب التوراة بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، فيشهدون بذلك . وكان من مقتضى كتابتهم بأيديهم التى تقفهم من الكتاب على مالا يقفون عليه ، لو كان كتابةَ غيرهم ، ومقتضى قولهم وإقرارهم بأنه من عندالله ـ الوقوفُ مع عهوده ومواثيقه ، إجلالا لمُنْزِلِهِ ومُوحِيه ، ودعوى الناس إلى ظواهره وخوافيه . ولكن لم يكن ذلك منهم . بل كان أن حرّفوا كلمه عن مواضعه ليشتروا به ثمناً قليلا . وحاصل هذا الوجه إبقاء الكتاب المكتوب على أصله ، وصدقهم فى قولهم: هذا من عند الله . ثم مخالفتهم لذلك . فيكون قوله تعالى « لِيَشْتَرُوا بِهِ » تعليلا لمحذوف دل عليه السياق . أى ثم بعد ذلك يحرفونه ليشتروا به . وهو وجه جيد يوافق آية « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ » وربما يشير إلى هذا الوجه قول مجاهد فيما رواه ابن جرير : هؤلاء الذين عرفوا أنه من عند الله يحرفونه « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » أى : فشدة العذاب لهم مما غيرت أيديهم « وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » يصيبون من الحرام والسحت.

قال الراغب : إن قيل : لم ذكر « يَكْسِبُونَ » بلفظ المستقبل و « كَتَبَتْ » بلفظ الماضى ؟ قيل : تنبيهاً على ما قال النبىّ ﷺ[1] « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها

(١) أخرجه مسلم عن جرير فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ١٥ ونصه : « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة ، فعُمِل بها بعده ، كُتِب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقُصُ من أجورهم شىءٌ . ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة ، فعُمِل بها بعده ، كُتِب عليه وزر من عمل بها ، ولا ينقُصُ من أوزارهم شىء » .

ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فنبه بالآية أن ما أصّلوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة ، التي يعتمدها الجهلة ، هو اكتساب وزر يكتسبونه حالًا فحالًا (إن قيل) لم ذكر الكتابة دون القول (قيل) لمّا كانت الكتابة متضمنة للقول وزائدة عليه ، إذهو كذب باللسان واليد ، صار أبلغ . لأن كلام اليد يبقى رسمه والقول يضمحل أثره . (إن قيل) : ما الذى كانوا يكتبونه ؟ (قيل) : روى عن بعض السلف أن رؤساء اليهود كانوا يغيرون من التوراة نعت النبيّ ﷺ . ثم يقولون هذا من عند الله . وهذا فصلٌ يحتاج إلى فضل شرح . وهو أنه يجب أن يتصور أن كل نبيّ أتى بوصفٍ لنبيٍ بعده ، فإنه أتى بلفظة معرّضة وإشارة مدرجة ، لا يعرفها إلا الراسخون فى العلم . وقد قال العلماء : ماانفك كتابٌ منزّل من السماء مِنْ تضمن ذكر النبيّ ﷺ . لكن بإشارات . ولو كان ذلك متجلياً للعوامّ لما عوتب علماؤهم فى كتمانه . ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان إلى لسان : من العبرانىّ إلى السريانىّ إلى العربىّ . وقدذكر المحصلةُ ألفاظًا من التوراة والإنجيل، إذا اعتُبِرت وجدت دالة على صحة نبوة محمد ﷺ بتعريضٍ . هو عند الراسخين فى العلم جلىّ وعند العامة خفىّ . فبان بهذه الجملة أن ما كَتَبَتْ أيديهم كانت تأويلات محرّفة . وقد نبه الله تعالى بالآية على التحذير من تغيير أحكامه ، وتبديل آياته ، وكتمان الحق عن أهله ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، طمعا فى عَرَضِ الدنيا . وقد تقدم أنه عنى بالثمن القليل ، أعراضَ الدنيا وإن كثرت . لقوله تعالى « قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ »(١) اهـ كلام الراغب رحمه الله .

---

(١) [٤ / النساء / ٧٧] ونصها : . . . . قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

« وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً » بيان لبعض آخر من جناياتهم فيما ادعوا لأنفسهم من أنهم لا تمسهم النار فى الآخرة إلّا مدة يسيرة . ومرادهم بذلك أنهم لايخلدون فيها . لأن كل معدود منقضٍ . قال مجاهد : كانت اليهود تقول : إنما الدنيا سبعة آلاف سنة . فإنما نعذّب ، مكان كل ألف سنة ، يوماً . ثم ينقطع العذاب . وروى ذلك عن ابن‌عباس . وعنه أن اليهود قالوا : لن ندخل النار إلا الأيام التى عبدنا فيهاالعجل، أربعين ، فإذا انقضت انقطع عنا العذاب . ثم بين تعالى إفكهم . لأن العقل لا طريق له إلى معرفة ذلك ، وإنما سبيل معرفته الإخبار منه تعالى، وهو منتف . فقال سبحانه « قُلْ » منكراً لقولهم وموبِّخاً لهم « أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا » أى عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار « فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ » أى فتقولوا لن يخلف الله عهده . وجعل بعضهم الفاء فصيحة مُعرِبة عن شرط مقدر . أى: إن كان الأمر كذلك فلن يخلفه « أَمْ تَقُولُونَ » أى : أم لم يكن ذلك فأنتم تقولون مفترين « عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى وقوعه جهلا وجراءة . وقولهم المحكىّ ، وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه ، لكنه مستلزم له . لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

« بَلَى » إثبات لما بعد حرف النفى وهو قوله « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ » أى بلى تمسكم أبدا . بدليل قوله « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »، « مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » أى عملها وهى والسىء

عملان قبيحان. أصلها سيوءة. من : ساءه يسوءه. فأعلّت إعلال سيد . ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود فى النار ، بل لا بد أن يكون سببه محيطا به فقال « وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ » أى غمرته من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة . وسدت عليه مسالك النجاة . بأن عمل مثل عملكم أيها اليهود . وكفر بما كفرتم به حتى يحيط كفره بماله من حسنة « فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

(تنبيه) ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الخلود فى النار إنما هو للكفار والمشركين . لما ثبت فى السنة ، تواتراً ، من خروج عصاة الموحدين من النار . فيتعين تفسير السيئة والخطيئة ، فى هذه الآية ، بالكفر والشرك . ويؤيد ذلك كونها نازلة فى اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » من عادة التنزيل العزيز أنه لا يذكر فيه آية فى الوعيد إلا ويتلوها آية فى الوعد . وذلك لفوائد : منها ، ليظهر بذلك عدله سبحانه . لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرّين على الكفر ، وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرّين على الإيمان . ومنها ، أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه . وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق . ومنها ، أنه يظهر بوعده كمال رحمته ، وبوعيده كمال حكمته ، فيصير ذلك سبباً للعرفان .

وقد قدمنا عند قوله تعالى « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »(١) أن السلف أجمعوا على أن الإيمان قول وعمل . فإذا عطف عليه العمل ، فإما أن يكون من عطف الخاص على العام . أو يقال : لم يدخل فيه ولكن مع العطف . كما فى اسم الفقير والمسكين . فتذكر .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥] .

قال الراغب : فى هذه الآية دليل على أن قوله تعالى من قبلُ « بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » هو الكفر . وإحاطةُ الخطيئة به ، الأعمالُ السيئةُ ، وذلك لما قابله به من الإيمان والأعمال الصالحة .

ثم شرع ، سبحانه ، يقيم الدليل على أنهم ممن أحاطت به خطيئته فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ)

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» ثم بيّن الميثاق بقوله تعالى «لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» وهو إخبار فى معنى النهى ، كقوله تعالى « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ »(١) وكما تقول : تذهب إلى فلان وتقول له كذا ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى . وقد بدئ بأعلى الحقوق وأعظمها . وهو حق الله تبارك وتعالى ، أن يُعْبَدَ وحده ولا يشرك بها شيئاً . وبهذا أمر جميع خلقه . ولذلك خلقهم . كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ »(٢) . وقال تعالى « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ »(٣) . « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » والإحسان نهاية البر ،

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٢] ونصها : ... وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٣) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية ، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين . حتى قرن تعالى الأمرَ بالإحسان إليهما، بعبادته التي هي توحيده ، والبراءة عن الشرك ، اهتماماً به وتعظيماً له .

قال حكيم مصر في تفسيره : العلة الصحيحة في وجوب هـذا الإحسان على الولد ، هي العناية الصادقة التي بذلاها في تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفاً عاجزاً جاهلًا . لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنهـا ضرراً . وكانا يحوطانه بالعناية والرعاية . ويكفلانه ، حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه . فهذا هو الإحسان الذي يكون منهما، عن علمٍ واختيارٍ ، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان . وإذا وجب على الإنسان أن يشكر ، لكل من يساعده على أمر عسير ، فضلَه ، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال في المساعد ؛ وما كانت به المساعدة ، فكيف لايجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى، وهما اللذان كانا يسمدانه على كل شيء ، أيام كان يتعذر عليه كل شيء اهـ.

« وَذِي الْقُرْبَىٰ » أي القرابة .

قال الأستاذ الحكيم « الإحسان هو الذي يقوى غرائز الفطرة ، ويوثق الروابط الطبيعية، حتى تبلغ البيوت ، في وحدة المصلحة ، درجةَ الكمال . والأمة تتألف من البيوت ، أي العائلات . فصلاحها صلاحها . ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة . وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدّها وأكملهما في الفطرة بين الوالديْن والأولاد . ثم بين سائر الأقربين . فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله ، فأي خير يرجى منه للبعداء والأبعدين ؟ ومن لا خير فيه للناس لايصلح أن يكون جزءًا من بنية أمته . لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التي هي أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس . فأي لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءًا منهم ، يسره ما يسرهم ويؤلمه ما يؤلمهم ويرى منفعتهم عين منفعته ، ومضرتهم عين مضرته ؟ قضى نظام الفطرة بأن تكون نعرة القرابة أقوى من كل نعرة ، وصلتها أمتن من كل صلة . فجاء الدين يقدّم حقوق الأقربين على سائر الحقوق .

وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص . ثم ذكر تعالى حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال سبحانه « وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ » . اليتامى جمع يتيم . وهو من مات أبوه وهو صغير . قدم تعالى الوصية به على الوصية بالمسكين ، ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة . فعلم أنها مقصودة لذاتها . وقد أكد تعالى فى الوحى الوصية باليتيم . وفى القرآن والسنة كثير من هذه الوصايا . وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم وشدد الوعيد على أكل ماله تشديداً خاصاً . والسر فى ذلك هو كون اليتيم لا يجد ، فى الغالب ، من تبعثه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه والعناية بأموره الدينية والدنيوية . فإن الأم ، إن وجدت ، تكون فى الأغلب عاجزة . لا سيما إذا تزوجت بعد أبيه . فأراد الله تعالى ، وهو أرحم الراحمين ، بما أكد من الوصية بالأيتام ، أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم . يربونهم تربية دينية دنيوية ، لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم ؛ فينتشر الفساد فى الأمة فتنحل انحلالاً . فالعناية بتربية اليتامى هى الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد . والتربية لا تتيسر مع وجود هذه القدوة . فإهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة . وأما المساكين فلا يراد بهم هؤلاء السائلون الشحاذون الملحفون الذين يقدرون على كسب ما يفى بحاجاتهم ، أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتسبوا . إلا أنهم قد اتخذوا السؤال حرفة يبتغون بها الثروه من حيث لا يعملون عملاً ينفع الناس . ولكن المسكين من يعجز عن كسب ما يكفيه اه .

« وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » أى قولاً حسناً . أى : كلموهم طيبا ولينوا لهم جانباً . وفيه من التأكيد والتحضيض على إحسان مقاولة الناس ، أنه وضع المصدر فيه موضع الاسم ، وهذا إنما يستعمل للمبالغة فى تأكيد الوصف ، كرجل عدل وصوم وفطر . « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » خطاب لبنى إسرائيل . فالمراد الصلاة التى كانوا يصلونها والزكاة التى كانوا يخرجونها . « ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن المضى على مقتضى الميثاق الذى فيه سعادتكم ورفضتموه . وقوله « إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ » استثناء لبعض من كانوا فى زمن سيدنا موسى عليه السلام ، أو فى كل زمن . فإنه لا تخلو أمة من الأمم ، من المخلصين الذين

يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم . والحكمة فى ذكر هذا الاستثناء عدم بخس المحسنين حقهم ، وبيان أن وجود قليل من الصالحين فى الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهى إذا فشا فيها المنكر ، وقلّ المعروف . « وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاةِ حقوق الميثاق . ثم نعى عليهم أيضاً إخلالهم بواجب الميثاق المأخوذ عليهم فى حقوق العباد بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ » إخبار فى معنى النهى . والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى إسرائيل لبعض بالقتل والإجلاء . أى لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرجه من منزله « ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ » أى أظهرتم الالتزام بموجب المحافظة على الميثاق المذكور « وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ » بلزومه . فهو توكيد للإقرار ، كقولك : أقر فلان ، شاهداً على نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

« ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ » خطاب خاص للحاضرين ، فيه توبيخ شديد « تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ » من غير التفات إلى هذا العهد الوثيق « تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ » أى تتعاونون عليهم « بِالْإِثْمِ » وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم « وَالْعُدْوَانِ » وهو التجاوز فى الظلم « وَإِنْ يَأْتُوكُمْ » أى هؤلاء الذين تعاونتم أو عاونتم عليهم « أُسَارَىٰ » بضم الهمزة ، وفتح السين، والألف بعدها . وقرأ حمزة « أَسْرَىٰ » بفتح الهمزة ، وسكون السين كقتلى ، جمع أسير ، وأصله المشدود بالأسْر ، وهو القِدّ ، وهو ما يُقَدّ أى يقطع من السير « تُفَادُوهُمْ » بضم التاء وفتح الفاء . وقرئ تَفْدوهم بفتح التاء وسكون الفاء ، أى تخلصوهم بالمال من الفداء . وهو الفكاك بعوض « وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ » الجملة حال من الضمير فى « تخرجون » أو من « فريقاً » أو منهما . وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالإخراج ، مع كونه قريناً للقتل عند أخذ الميثاق ، لكونه مظنة للمساهلة فى أمره ، بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل . ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معاً . وذلك مختص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشىء من دية أو قصاص . وهو السر فى تخصيص التظاهر به فيما سبق . ثم أنكر عليهم التفرقة بين الأحكام فقال « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ » أى : التوراة وهو الموجب للمفاداة « وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » وهو المحرّم للقتل والإخراج . ثم اعلم أن ماذكرناه فى قوله تعالى « تُفَادُوهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ » هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين . من أن ذلك وصف لهم بما هو طاعة ، وهو التخليص من الأسر ببذل مال أو غيره ، والإيمان بذلك. وذكر أبومسلم أنه ضد ذلك . والمراد أنكم، مع القتل والإخراج، إذا وقع أسير فى أيديكم لم ترضوا منه إلا بأخذ مال وإن كان ذلك محرماً عليكم ؛ ثم عنده تخرجونه من الأسر .

قال أبو مسلم: والمفسرون، إنما أُتُوا من جهة قوله تعالى « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » وهذا ضعيف لأن هذا القول راجع إلى ما تقدم من ذكر النبى ﷺ وما أنزل عليهم . والمراد أنه إذا كان فى الكتاب الذى معكم نبأ محمد فجحدتموه فقد آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض .

وكلا القولين يحتمله لفظ المفاداة ، لأن الباذل عن الأسير يوصف بأنه فاداه . والآخذ منه للتخليص يوصف أيضاً بذلك. إلا أن الذى أجمع المفسرون عليـه أقرب. لأن عود قوله « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » إلى ما تقدم ذكره فى هـذه الآية ، أولى من عوده إلى أمورٍ تقدم ذكرها بعـد آياتٍ . أفاده الرازى . « فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ » إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعضٍ . أو إلى ما فعلوا من القتل والإجلاء مع مفاداة الأسارى « إِلَّا خِزْيٌ » ذلّ وهوان مع الفضيحة . والتنكير للتفخيم . « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقد فعل سبحانه ذلك، فقُتِلَتْ بنوقريظة وأُجْلِيَتْ بنوالنضير إلى أذرِعاتٍ[١] وأريحا[١] من الشام . « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ » يعنى النار « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا » أى آثروا « الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » على خساستها . واستبدلوها « بِالْآخِرَةِ » مع نفاستها . « فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ » فى واحـدة من الدارين . « وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : أنـكر تعالى على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ ، فى المدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا فى الجاهلية عبّاد أصنام ، وكانت

---

(١) قال ياقوت :

أذرِعات : كأنه جمع أذرعة ، جمع ذراع جمع قلة . وهو بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وغسّان .

أريحا : هى مدينة الجبارين فى الغور من أرض الأُردنّ بالشام .

بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنوقَيْنُقَاع، حُلفاءالخزرج. وبنونضير وبنوقُرَيْظة حلفاء الأوس. فكانوا ، إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب ، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه . فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، ويسفكون دماءهم ، وبأيديهم التوراة . يعرفون فيها ما عليهم وما لهم . والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ، ولا كتابا ، ولا حلالا ولا حراماً ؛ فإذا وضعت الحرب أوزارها وأسر الرجل من الفريقين كلاهما جمعوا له حتى يفدوه ، فتفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدى الأوس ، وتفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم . فإذا عيرتهم العرب بذلك وقالوا : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا . إنا أمرنا أن نفديهم وحُرّم علينا قتالهم . فيقال : لم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحيي أن تُسْتَذَلَّ حلفاؤنا . فلذلك حين عيرهم عز وجل فقال « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » أى تفادوهم بحكم التوراة وتقتلونهم . وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ؛ ابتغاء عرض الدنيا . هذا ملخص ما ساقه ابن كثير عن محمد بن إسحاق بسنده إلى ابن عباس. ورواه أيضاً عن السدّىّ. فليحقق تصحيح هذه القصة .

وفى الآية تفسير آخر . أى لا تقتلوا أنفسكم لشدة تصيبكم بسكّين أو خنق أو بارتكاب ما يوجب ذلك . كالارتداد والزنى بعد الإحْصان . وقتل النفس بغير الحق ونحو ذلك . ولا تسيئوا جوار من جاوركم فيضطرون إلى الخروج من دياركم . أَوْ : لا تفسدوا فتكونوا سبباً لإخراجكم أنفسكم . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » شروع فى بيان بعض آخر من جناياتهم . وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به . والمراد بالكتاب التوراة . « وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ » يقال : قفَّاه به أتبعه إياه ، من التقفية وهى متابعة شيء شيئاً . كأنه يتلو قفاه ، وقفا الصورة منها ، خلفها المقابل للوجه . والمعنى لم نقتصر على الضبط بالكتاب الذى تركه فيكم موسى ، بل أرسلنا من بعده الرسل تترى ، ليجددوا لكم أمر الدين ويؤكدوا عليكم العهود . «وَءَاتَيْنَا عِيسَى» اسم معرّب أصله يسوع . لفظة يونانية بمعنى مخلص . ومثله يشوع ، بالمعجمة ، فى اللغة العبرانية « ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ » المعجزات الواضحات التى لا مرية فيها لذى عقل . كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص « وَأَيَّدْنَاهُ » أى قويناه على ذلك كله « بِرُوحِ الْقُدُسِ » بالروح المقدسة كما تقول : حاتم الجودِ ورجلُ صدقٍ . وهى الروح الطاهرة التى نفخها الله فيه وميزه بها عن غيره ممن خلق . قال تعالى « وَرُوحٌ مِنْهُ »[١] .
ولذا كان له ، عليه الصلاة والسلام ، بالروح مزيد اختصاص لكثرة ما أحيي من الموتى .
وعن الحسن البصرىّ : القدس هو الله . وروحه جبريل . والإضافة للتشريف . والمعنى :

---

(١) [٤ / النساء / ١٧١] ونصها : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ . . .

أعنَّاه بجبريل . قال الرازيّ : والذى يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ »(١) والله أعلم .

وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لحسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ، ببيان حقيته وإظهار نهاية قبح ما فعلوا به عليه السلام « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ » من الحق، أى لا تحبه . من هَوِى كفرح ، إذا أحب « اسْتَكْبَرْتُمْ » عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عندالله تعالى « فَفَرِيقًا » منهم « كَذَّبْتُمْ » إذ لم تنل أيديكم مضرّته « وَفَرِيقًا » آخر منهم « تَقْتُلُونَ » غير مكتفين بتكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

«وَقَالُوا» بيان لنوع آخر من مخازيهم. والقائلون المعاصرون للنبيّ عليه الصلاة والسلام « قُلُوبُنَا غُلْفٌ » هذا كقوله تعالى «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ »(٢) أى هى مغشاة بأغطية مانعة من وصول أثر دعوتك إليها . فلا تفقهه . مستعار من الأغلف الذى لم يختن « بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ » رد الله أن تكون قلوبهم كذلك لأنها متمكنة من قبول الحق. وإنما طردهم عن رحمته بسبب كفرهم وزيغهم. وهذا كما قال فى سورة النساء « وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا »(٣). وقوله « فَقَلِيلًا

---

(١) [١٦ / النحل / ١٠٢] ونصها : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٥] ونصها : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ =

مَا يُؤْمِنُونَ » « ما » مزيدة للمبالغة أى فإيماناً قليلاً يؤمنون . وهو إيمانهم ببعض الكتاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ » هو القرآن الكريم الذى مقصود هذه السورة . وصفه بالهدى . وتنكيره للتفخيم . ونعته بقوله « مِنْ عِنْدِ اللهِ » للتشريف « مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ » من التوراة . وجواب « لما » محذوف دل عليه جواب « لما » الثانية . وعليه ، فقوله تعالى : وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية ، عطف القصة على القصة . وقيل : جوابها كفروا . ولمّا الثانية تكرار للأولى ، فلا تحتاج إلى جواب . وقيل : كفروا جواب للأولى والثانية لأن مقتضاهما واحد . وعلى الوجهين فجملة قوله « وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئه « يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا » جملة حالية مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم . والاستفتاح : الاستنصار أى طلب النصر ، أى يطلبون من الله النصر على المشركين لما أنهم كانوا مستذلين فى جزيرة العرب ، ولذا كانوا يحالفون بعض القبائل تعززاً بهم على ما تقدم « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا » صحته وصدقه . كان من حقهم أن يسارعوا إلى الإيمان به لظفرهم بأمنيتهم حينئذ ، وهو انتصارهم على المشركين وحصول العزة لهم مع المؤمنين . ولكن « كَفَرُوا بِهِ » أى امتنعوا من الإيمان به خوفاً من زوال رياستهم وأموالهم . وأصرّوا على الإنكار مع علمهم بحقيقة نبوته . ولذا قال عبد الله بن سلاَم فى

= وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

قصة إسلامه : يا معشر اليهود[١] اتقوا الله . فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق . رواه البخاريّ فى الهجرة . وروى أيضاً أن عبد الله بن سلام لما بلغه مقدم[١] النبيّ صلى الله عليه وسلم أتاه فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ . فلما أجابه عنها قال : أشهد أنك رسول الله . وسنذكر الحديث بتمامه عند قوله تعالى « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ »[٢] الآية إن شاء الله تعالى . وقوله « فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » اللام فيه للعهد أى عليهم ، ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم ؛ كما أن الفاء للإيذان بترتبها عليه . أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولاً أولياً . إذ الكلام فيهم . وأيّاً ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى « بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » «ما» نكرة موصوفة بما بعدها ، منصوبة على التمييز ، مفسرة لفاعل بئس . أى بئس شيئاً باعوا به أنفسهم واعتاضوا لها ، فرضوا به وعدلوا إليه . والمخصوص بالذم قوله تعالى « أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى كفرهم بالكتاب المصدق

---

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٢ ـ سورة البقرة ، ٦ ـ باب قوله: من كان عدوًّا لجبريل .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٧] ونصها : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

لما معهم بعد الوقوف على حقيقته « بَغْياً » حسداً « أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ » لِأَنْ ينزل ، أو على أن ينزل . أى حسدوه على أن ينزل الله « مِنْ فَضْلِهِ » الذى هو الوحى « عَلَى مَنْ يشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى يشاؤه ويصطفيه للرسالة « فَبَاءُوا بِغَضَبٍ » أى رجعوا لأجل ذلك بغضب ، فى حسدهم لهذا النبىّ ﷺ حتى كفروا به « عَلَى غَضَبٍ » كانوا استحقوه قبل بعثته ﷺ من أجل تحريفهم الكلم ، وتضييعهم بعض أحكام التوراة ، وكفرهم بعيسى عليه السلام .

قال الرازىّ : إن غضبه تعالى يتزايد ويكثر ويصح فيه ذلك كصحته فى العذاب ، فلا يكون غضبه على من كفر بخصلة واحدة ، كغضبه على من كفر بخصال كثيرة .

قلت : وفى الصحيحين عن أبى هريرة[1] : اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك لا ملك إلا الله . والروايات فى توصيف غضبه تعالى بالشدة على بعض المنكرات متوافرة . انظر الجامع الصغير .

ويحتمل المعنى . فصاروا أحقاء بغضب مترادف ، فلا يكون القصد إثبات غضبين

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١٨ ـ باب أبغض الأسماء إلى الله ، ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أخنى (أخنع) الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى ملك الأملاك » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الأدب ، حديث ٢٠ ونصه :

عن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ قال «إن أخنع اسم عندالله رجل تسمى ملك الأملاك».

زاد ابن أبى شيبة فى رواية « لا مالك إلا الله عز وجل » .

وحديث ٢١ ونصه : عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « أغيظ رجل على الله يوم القيامة ، وأخبثه وأغيظه عليه ، رجل كان يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله » .

لأمرين متنوعين أو أمور ، بل المراد به تأكيد الغضب وتكثيره لأجل أن هذا الكفر ، وإن كان واحدا ، إلا أنه عظيم . والله أعلم .

وقد قدمنا فى تفسير قوله تعالى « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » أن الغضب صفة وصف الله تعالى نفسه بها . وليس غضبه كغضبنا . كما أن ذاته ليست مثل ذواتنا ، فليس هو مماثلا لأبداننا ولا لأرواحنا ، وصفاته كذاته . وما قيل : إن الغضب من الانفعالات النفسانية فيقال نحن وذواتنا منفعلة ، فكونها انفعالات فينا لا يجب أن يكون الله منفعلاً بها . كما أن نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين . فصفاته كذلك ليست كصفات المخلوقين ، ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه . وليس المنسوب كالمنسوب والمنسوب إليه كالمنسوب إليه . كما قال صلى الله عليه وسلم : « ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر »(١) فشبه الرؤية بالرؤية لا المرئىّ بالمرئىّ . وهذا يتبيّن بقاعدة : وهى أن كثيراً من الناس يتوهم ، فى بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها ، أنها تماثل صفات المخلوقين . ثم يريد نفى ذلك الذى فهمه فيقع فى أربعة أنواع من المحاذير : أحدها كونه مثّل مافهمه من النصوص لصفات المخلوقين . وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل . الثانى إنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله فبقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله فيبقى مع جنايةٍ على النصوص ، وظنه السّيىء الذى ظنه بالله ورسوله ، حيث خلاف الذى يفهم من كلامهما ، من إثبات صفات الله والمعانى الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى . الثالث : أنه ينفى تلك الصفات عن الله بغير دليل . فيكون معطِّلاً عما يستحقه الرب تبارك وتعالى . الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الموات والجمادات وصفات المعدومات. فيكون قد عطل صفات الكمال التى يستحقها الرب . ومثّله بالمنقوصات والمعدومات . وعطّل النصوص عما دلت عليه من الصفات . وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات. فيجمع فى الله وفى كلام الله بين التعطيل والتمثيل. سبحانه وتعالى عما يقول الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . أفاده الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى القاعدة التدمرية .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ ـ باب فضل صلاة العصر.

« وَلِلْكَافِرِينَ » أي لهم . والإظهار فى موضع الإضمار للإشعار بعلّية كفرهم لما حاق بهم « عَذَابٌ مُهِينٌ » يراد به إهانتهم . أى إذلالهم . فإن كفرهم ، لما كان سببه البغى والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، قوبلوا بالإهانة والصغار فى الآخرة كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »(١) أى صاغرين حقيرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» أى لليهود« ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» على محمد ﷺ وصدّقوه واتبعوه «قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا» من التوراة، ولا نقرّ إلا بها « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ»حال من ضمير «قالوا» بتقدير مبتدأ. أى قالوا ماقالوا وهم يكفرون بما بعده «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ » منها غير مخالف له . وفيه ردّ لمقالتهم . لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها «قُلْ» تبكيتاً لهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم« فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التى بأيديكم وأنتم تعلمون صدقهم . قتلتموهم بغياً وعنادا ، واستكبارا على رسل الله . فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهى كما قال تعالى « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ »(٢) والخطاب للحاضرين من اليهود والماضين ، على

---

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٧] .

طريق التغليب ، وحيث كانوا مشاركين فى العقد والعمل ، كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضاً على أخلافهم . ودلت الآية على أن المجادلة فى الدين من عرف الأنبياء عليهم السلام، وإن إيراد المناقضة على الخصم جائز

ولما دل على كذبهم فى دعوى الإيمان بما فعلوا بعد موسى ، أقام دليلا آخر أقوى مما تقدمه . فإنه لم يعهد إليهم فى التوراة ماعهد إليهم فى التوحيد والبعدعن الإشراك . وهو فى النُّسَخ الموجودة بين أظهرهم الآن . وقد نقضوا جميع ذلك باتخاذ العجل فى أيام موسى ، وبحضرة هارون عليهما السلام . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ » من الآيات كفلق البحر وإنزال المَنّ والسلوى وغير ذلك من الدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله « ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ » معبوداً من دون الله « مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد ماذهب موسى عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل . كما قال تعالى « وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ »(١) وقوله تعالى « وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » أى بعبادته . واضعين لها فى غير موضعها . أو بالإخلال بحقوق آيات الله تعالى . أو هو اعتراض . أى وأنتم قوم عادتكم الظلم .

ثم ذكر أمراً آخر هو أبين فى عنادهم وأنهم مع الهوى فقال :

(١) [٧/ الأعراف/ ١٤٨] ونصها : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ » على الإيمان والطاعة . « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » قائلين « خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ » أى ما أمرتم به فى التوراة « بِقُوَّةٍ » بجد « وَاسْمَعُوا » أطيعوا « قَالُوا سَمِعْنَا » قولك « وَعَصَيْنَا » أمرك . وظاهر السوق يقتضى أنهم قالوا ذلك حقيقة .

قال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى: سمعوه فتلقوه بالعصيان . فعبّر عن ذلك بالقول وإن لم يقولوه . كقوله تعالى « أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(١) . « وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ » أى حبّه على حذف المضاف . وإقامة المضاف إليه مقامه للمبالغة . أو العجل مجاز عن صورته . فلا يحتاج إلى حذف المضاف . وعلى كلٍّ ، فأشربوا استعارة تبعية . إما من إشراب الثوب الصبغ ـ أى تداخله فيه ـ أو من إشراب الماء ـ أى تداخله أعماق البدن ـ والجامع السراية فى كل جزء . وإسناد الفعل إليهم إيهام لمكان الإشراب . ثم بُيّن بقوله « فِى قُلُوبِهِمُ » للمبالغة ، فظهر وجه العدول عن مقتضى الظاهر وهو : وأشرب قلوبهم العجل. « بِكُفْرِهِمْ » بسبب كفرهم « قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى كما زعمتم، بالتوراة. وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم كما فى قصة شعيب «أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ»(٢)

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] ونصها : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

(٢) [١١ / هود / ٨٧] ونصها : قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ .

وكذا إضافة الإيمان إليهم. وقوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » قدح فى صحة دعواهم. فإن الإيمان إنما يأمر بعبادة الله وحده لا بشركة العباد لما هو فى غاية البلادة . فهو غاية الاستهزاء . وحاصل الكلام : إن كنتم مؤمنين بها عاملين ، فيما ذكر من القول والعمل ، بما فيها ، فبئسما يأمركم به إيمانكم بها . وإذ لا يسوّغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعاً . فجواب الشرط محذوف ، كما ترى ، لدلالة ما سبق عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

«قُلْ» كرر الأمر بتبكيتهم لإظهار نوع آخر من أباطيلهم . وهو ادعاؤهم أن الدارالآخرة خالصة لهم من دون الناس . لكنه لم يُحْكَ عنهم قبل الأمر بإبطاله ، بل اكتفى بالإشارة إليه فى تضاعيف الكلام بقوله « إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً » نصب على الحال من الدار الآخرة . والمراد الجنة . أى سالمة لكم ، خاصة بكم ، ليس لأحد سواكم فيها حق كما تقولون « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا »[١] . « مِنْ دُونِ النَّاسِ » اللام للجنس أو للعهد وهم المسلمون «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ» فسلوا الموت « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الأكدار ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالموت . والذى يتوقف عليه المطلوب لابد وأن يكون مطلوبا ، نظراً إلى كونه وسيلة إلى ذلك المطلوب . والمراد بالتمنى هنا هو التلفظ بما يدل عليه كما أشرنا إليه ، لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس إليه ، فإن ذلك لا يراد فى مقام المحاجّة ومواطن الخصومة ومواقف التحدى لأنه من ضمائر القلوب . وثمّ تفسير آخر للتمنى

---

(١) [٢ / البقرة / ١١١] ونصها : وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

بأن يُدعَوا إلى المباهلة والدعاء بالموت . وإليه ذهب ابن جرير . والأول أقرب إلى موافقة اللفظ . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

« وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا » من المعجزات لأنه إخبارٌ بالغيب . وكان كما أخبر به . كقوله « وَلَنْ تَفْعَلُوا »(١) . « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » بما أسلفوا من أنواع العصيان . واليد مجاز عن النفس . عبّر بها عنها ، لأنها من بين جوارح الإنسان ، مناط عامة صنائعه . ولذا كانت الجنايات بها أكثر من غيرها . ولم يجعل المجاز فى الإسناد، فيكون المعنى بما قدموا بأيديهم، ليشمل ما قدموا بسائر الأعضاء « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » أى بهم . تذييل للتهديد . والتنبيه على أنهم ظالمون فى دعوى ما ليس لهم ، ونفيه عمن سواهم . ونظير هذه الآية فى سورة الجمعة قوله تعالى « قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »(٢) .

وقد تلطف الغزالىّ فى توجيه الإتيان بـ «لن» هنا و «لا» فى سورة الجمعة بأن الدعوى هنا أعظم من الثانية ، إذ السعادة القصوى هى الحصول فى دار الثواب ، وأما مرتبة الولاية فهى ، وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة . فلما كانت الدعوى الأولى أعظم ، لاجَرَمَ بيّن تعالى فساد قولهم بلفظ «لن» لأنها أقوى الألفاظ النافية. ولما كانت

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٤] ونصها : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

(٢) [٦٢ / الجمعة / ٦و٧] .

الدعوى الثانية ليست فى غاية العظمة اكتفى فى إبطالها بلفظ «لا» لأنه ليس فى نهاية القوة، فى إفادة معنى النفى . والله أعلم .

ولما أخبر تعالى عنهم أنهم لايتمنون الموت، أتبعه بأنهم فى غاية الحرص على الحياة بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

«وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ » التنكير يدل على أن المراد حياة مخصوصة وهى الحياة المتطاولة ، ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبىّ : على الحياة. «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » عطف على ماقبله بحسب المعنى ؛ كأنه قيل : أحرص من الناس ومن الذين أشركوا . وإفرادهم بالذكر ، مع دخولهم فى الناس ، للإيذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص . للمبالغة فى توبيخ اليهود . فإن حرصهم ، وهم معترفون بالجزاء ، لمّا كان أشد من حرص المشركين المنكرين له ، دلّ ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار . ويجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقةً بإنباء المعطوف عليه ، عنه ؛ أى وأحرص من الذين أشركوا .

وأما تجويز كون الواو للاستئناف وقد تم الكلام عند قوله : « عَلَىٰ حَيَاةٍ » تقديره « وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » ناسٌ يود أحدهم ، على حذف الموصوف ، وقولُ أبو مسلم : إن فى الكلام تقديماً وتأخيرا ، وتقديره : ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة ، ثم فسر هذه المحبة بقوله : يود أحدكم لو يعمر ألف سنة ـ فلا يخفى بُعده . لأنه إذا كانت القصة فى شأن اليهود خاصة فالأليق بالظاهر ، أن يكون المراد :

ولتجدن اليهود أحرص على الحياة من سائر الناس ومن الذين أشركوا ، ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم وفى إظهار كذبهم فى قولهم : إن الدار الآخرة لنا ، لا لغيرنا والله أعلم .

« يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » بيان لزيادة حرصهم ، على طريق الاستئناف . و« لَوْ » مصدرية ، بمعنى «أَنْ» مؤول مابعدها بمصدر ، مفعول يود . أى يود أحدهم تعمير ألف سنة « وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » «ما» حجازية ، والضمير العائد على أحدهم اسمها ، وبمزحزحه خبرها ، والباء زائدة ، وأن يعمر فاعل مزحزحه ، أى وما أحدهم المتمنى بمن يزحزحه ، أى يبعده وينجيه ، من العذاب ، تعميره . قال القاضى : والمراد أنه لا يؤثر فى إزالة العذاب أقل تأثير ، ولو قال تعالى : وما هو بمبعده وبمنجيه لم يدل على قلة التأثير كدلالة هذا القول « وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » فسوف يجازيهم عليه .

وما ذكره بعض المفسرين من أن البصير فى اللغة بمعنى العليم لايخفى فساده ، فإن العليم والبصير اسمان متباينا المعنى لغة . نعم ! لو حمل أحدهما على الآخر مجازا لم يبعد ، ولا ضرورة إليه هنا . ودعوى أن بعض الأعمال مما لايصح أن يرى ، فلذا حمل هذا البصر على العلم ـ هو من باب قياس الغائب على الشاهد ، وهو بديهيّ البطلان . قال شمس الدين ابن القيم الدمشقىّ فى كتاب الكافية الشافية :

وهو البصير يرى دبيب النملة السَّـــوْداء تحت الصخر والصوّان
ويرى مجارى القُوتِ فى أعضائها ويرى عُروق بياضها بعِيَان
ويرى خِيانات العيونِ بلحظها ويرى ، كذاك ، تقلُّبَ الأجفان

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٩٨] (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » .

روى البخاريّ فى صحيحه فى كتاب التفسير عن أنس قال[1] : سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ . وهو فى أرض يخترف ، فأتى النبيّ ﷺ فقال : إنى سائلك عن ثلاث ، لايعلمهن إلا نبيّ . فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزِع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : « أخبرنى بهن جبريل آنفا » ، قال : جبريل ؟ قال « نعم » قال : ذاك عدوّ اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ » . « أما أول أشراط الساعة ، فنار تَحْشُر الناسَ من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام أهل الجنة ، فزيادة كبد حوت . وإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة ، نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت » قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . يارسول الله ! إن اليهود قوم بُهُتٌ وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يَبْهَتُونى . فجاءت اليهودُ ، فقال النبيُّ ﷺ « أيُّ رجل عبد الله فيكم » ؟ قالوا :

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٦ ـ باب قوله من كان عدوا لجبريل .

خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، قال «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام»؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك ! فخرج عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فقالوا : شرُّنا وابن شرنا . وانتقصوه .

قال : فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية قال(١) : حضرت عصابة من اليهود رسولَ الله ﷺ فقالوا: ياأبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لايعلمهن إلا نبىّ . وساق نحواً مما تقدم . وتتمته قالوا : أنت الآن ، فحدثنا من وليّك من الملائكة ، فعندها نجامعك أو نفارقك ، قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبيًّا قط ، إلا وهو وليه. قالوا : فعندها نفارقك . ولو كان وليّك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك . قال : فما منعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدوّنا ، فأنزل الله عز وجل « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ » إلى قوله « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » فعندها باؤوا بغضب على غضب . وفى رواية للإمام أحمد والترمذىّ والنسائىّ فى القصة : فأخبِرْنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا : جبريل ! ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب ، عدونا . لو قلت « ميكائيل » الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان! فأنزل الله تعالى «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ» إلى آخر الآية . ويؤخذ من روايات أخر أن سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب فى أمر النبىّ ﷺ . فقد روى ابن جرير عن الشعبىّ قال : نزل عمرُ الرَّوْحاءَ ، فرأى رجالًا يبتدرون أحجاراً يصلّون إليها . فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا . قال فكره ذلك ، وقال : أيْما ؟ رسولُ الله ﷺ أدركته الصلاة بوادٍ فصلى ، ثم ارتحل فتركه . ثم أنشأ يحدثهم ، فقال : كنت أشهدُ اليهود يوم مِدْرَاسِهم ، فأعجبُ من التوراة كيف تصدّق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدّق

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند جزء أول صفحة ٢٧٨ (طبعة الحلبىّ) ، وحديث رقم ٢٥١٤ (طبعة المعارف) .

التوراة ! فبينما أنا عندهم ذات يوم ، قالوا : يا ابن الخطاب ! ما من أصحابك أحد أحبّ إلينا منك . قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : إنك تغشانا وتأتينا . قال قلت : إنى آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان. قال ، ومرّ رسول الله ﷺ فقالوا : يا ابن الخطاب ! ذاك صاحبكم فالحق به . قال : فقلت لهم عند ذلك : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا . قال : فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد عَظَّم عليكم فأجيبوه . قالوا : أنت عالمنا وسيدنا ، فأجبه أنت . قال : أمّا إذْ نشدتنا به . فإنا نعلم أنه رسول الله . قال : قلت ويحكم ، إذًا هلكتم . قالوا : إنا لم نهلك . قال : قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه ؟ قالوا : إن لنا عدوًّا من الملائكة ، وسِلماً من الملائكة . وإنه قُرِنَ به عدونا من الملائكة . قال : قلت : ومن عدوكم ، ومن سلمكم . قالوا : عدونا جبريل ، وسِلمنا ميكائيل . قال : قلت : وفيم عاديتم جبريل ؟ وفيم سالمتم ميكائيل ؟ قالوا : إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار ، والتشديد والعذاب ، ونحو هذا . وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ، ونحو هذا . قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال : قلت : فوالله الذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدوّ لمن عاداهما وسِلم لمن سالمهما ، ما ينبغى لجبريل أن يسالم عدوّ ميكائيل ، وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدوّ جبريل . قال : ثم قمت فاتبعت النبىّ ﷺ فلحقته وهو خارج من مخرفة لبنى فلان . فقال لى : يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن ؟ فقرأ علىّ « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ » حتى قرأ الآيات . قال : قلت : بأبى وأمى أنت يارسول الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد جئتُ وأنا أريد أن أخبرك الخبر ، فأسمعُ اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر .

ورواه مختصراً ابن أبى حاتم أيضاً ، وفيه انقطاع ، فإن الشعبىّ لم يدرك زمان عمر رضى

الله عنه . كذا قاله الحافظ ابن كثير . وساقه أيضاً الواحدىّ ، وزاد فى آخره : قال عمر : فلقد رأيتنى فى دين الله أشد من حجر .

قال العلامة البقاعىّ : وقد روى هذا الحديث أيضاً إسحق بن راهويه فى مسنده عن الشعبىّ ، عن عمررضى الله عنه . قال شيخنا البوصيرىّ : وهو مرسل صحيح الإسناد ، انتهى . وثمّ روايات متنوعات ساقها ابن كثير فى تفسيره ، لا نطوّل كتابنا بسردها ، ومرجعها واحد . فإن قيل : بين رواية البخارىّ الأولى وما بعدها تنافٍ . فالجواب : لا منافاة ، لأن قراءته ﷺ لها فى محاورة عبد الله بن سلاَم ، ردًّا لقول اليهود ، لا يستلزم نزولها حينئذ . فإن المعتمد فى سبب نزولها غير قصة عبدالله بن سلام مما سلف من الروايات. فإن طرقها يقوى بعضها بعضاً ، وكأن النبىّ ﷺ لما قال له عبد الله بن سلام : إن جبريل عدو لليهود ، تلا عليه الآية ، مذكّراً له سبب نزولها ـ كذا قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح .

وقد أشار إلى ذلك السيوطىّ فى « الإتقان » حيث قال (تنبيه) قد يكون فى إحدى القصتين ، (فتلا) فَيَهِمُ الراوى ، فيقول (فينزل) . وقال العلامة ولى الله الدهلوىّ قدس سره فى كتابه « أصول التفسير » وقد تحقق عند الفقير أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون : نزلت الآية فى كذا وكذا ، وكأن غرضهم تصوير ماصدقت عليه الآية وذكرُ بعض الحوادث التى تشملها الآية بعمومها . سواء تقدمت القصة أو تأخرت . إسرائيلياً كان ذلك أو جاهلياً أو إسلامياً . استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها ، والله أعلم .

فعلم من هذا التحقيق أن للاجتهاد فى هـذا القسم مدخلا . وللقصص المتعددة هنالك سعة . فمن استحضر هذه النكتة يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية . انتهى .

وقوله تعالى « لجبريل » قرىء فى السبع بكسر الجيم والراء بلا همز ، وبفتح الجيم بدونها أيضاً ، وبفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة ثم ياء وبدونها . قال ابن جنىّ : العرب إذا نطقت بالأعجمىّ خلطت فيه .

وقوله «فإنه نزله» تعليل لجواب الشرط قائم مقامه ، والبارز الأول لجبريل عليه السلام ، والثانى للقرآن ، أضمر من غير سبق ذكر ، إيذاناً بفخامة شأنه ، واستغنائه عن الذكر لكمال شهرته ونباهته ، لاسيما عند ذكر شئ من صفاته . وقوله « على قلبك » زيادة تقرير للتنزيل ، ببيان محل الوحى ، فإنه القابل الأول له ، إن أريد به الروح . ومدار الفهم والحفظ إن أريد به المضو ، وهذا كقوله « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ »(١) وكان حق الكلام أن يقال « على قلبي » لأنه المطابق لقُلْ ، ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به تحقيقاً لكونه كلام الله . وأنه أمر بإبلاغه . وقوله « بِإِذْنِ اللهِ » أى بأمره . وقوله « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من التوراة وبقية الصحف المنزلة . وقوله « وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى يهدى للرشد وبشرى لهم بالجنة ، كما قال تعالى « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ »(٢) الآية . وقال تعالى « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »(٣) وفيه رد على اليهود ، حيث قالوا : إن جبريل ينزل بالحرب والشدة كما تقدم ، فقيل : فإنه ينزل بالهدى والبشرى أيضاً . فإن قيل : من شأن الشرط والجزاء الاتصال بالسببية والترتب ، فكيف استقام قوله «فإنه نزله» جزاء للشرط ؟ أجيب بأن قوله « فإنه نزله » تعليل لجواب الشرط ، كما أسلفنا . والمعنى : مَنْ عادى جبريل من أهل الكتاب ، فلا وجه لمعاداته ، بل يجب عليه محبته ، فإنه نزل عليك كتاباً

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣و١٩٤] ونصها: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٢] ونصها : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا .

مصدقاً لكتبهم . فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه ، فى إنزاله ما ينفعهم ، ويصحح المنزل عليهم . وقيل : الجواب محذوف تقديره « فليمت غيظاً » . وعليه فلا يكون « فإنه نزله » نائباً عنه . ووجهه أن يقدر الجواب مؤخراً عن قوله « فإنه نزله » ويكون هو تعليلاً وبياناً لسبب العداوة ، كأنه قيل : من عاداه، لأنه نزل على قلبك فليمت غيظاً .

قال الرضى : كثيراً ما يدخل الفاء على السبب ويكون بمعنى اللام ، قال الله تعالى «فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ »(١)، وقيل تقديره: فهو عدو لى وأناعدوه، بقرينة الجملة المعترضة المذكورة بعده فى وعيدهم ، وهى قوله تعالى « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » أى من كان عدواً لله لإنزاله فضله على من يشاء أو لأمر آخر . وأفادت الآية غضبَ الله تعالى لجبريل على من عاداه . وقد(٢) روى البخارىّ فى صحيحه ، عن أبى هريرة حديثاً قدسياً « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » .

وصدَّر الكلام بذكره الجليل تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأن عداوتهم عداوته عز وعلا . وقدم الملائكة على الرسل ، كما قدم الله على الجميع ؛ لأن عداوة الرسل بسبب نزول الوحى ، ونزوله بتنزيل الملائكة ، وتنزيلهم لها بأمر الله ، فذكر الله تعالى ومن بعده على هذا الترتيب ،

---

(١) [١٥ / الحجر / ٣٤] ونصها : قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .
و [٣٨ / صٓ / ٧٧] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٨ ـ باب التواضع ونصه :
عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قال : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبَّ إلىّ مما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى لأعطينه . ولئن استعاذنى لأعيذنه . وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته .

وإنما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما ، والدلالة على فضلهما ، وإنهما ، وإن كانا من الملائكة ، فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة ، تنزيلاً للتغاير الوصفيّ ، منزلة التغاير الذاتيّ ، وللتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر ، واستجلاب المداوة من الله تعالى ، وإن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع ، إذ الموجب لحبهم وعداوتهم على الحقيقة واحد ، ولأن الحاجة كانت فيهما . ووضع « الكافرين » موضع « لهم » ، ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم ، وان عداوة الملائكة كفر. وقد قرىء في السبع «ميكال» كميزان، و«ميكائل» بهمزة مكسورة بعد الألف بدون ياء و«ميكائيل» بالهمزة والياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)

« وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ » أي أنزلنا إليك علامات واضحات دالات على نبوتك . وتلك الآيات هي ما حواه القرآن من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم ، وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة ، فأطلعها اللهُ في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدْعه إلى إهلاكها الحسدُ والبغيُ. إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة، تصديقُ من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصفتُ ، من غير تعلم تعلمه من بشر ، ولا أخذ شيء منه عن آدميّ . وحمل الآيات على ما ذكرناه من آيات القرآن المجيد أولى من حملها على سائر المعجزات المأثورة . لأن الآيات إذا قرنت إلى التنزيل ، كانت أخص بالقرآن . وقوله « وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ » أي المتمردون من الكفرة ، واللام للعهد ، أي الفاسقون المعهودون ، وهم اليهود . أو للجنس ، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

« أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ » الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف يقتضيه المقام ، أى كفروا بالآيات البينات ، « وَكُلَّمَا عَاهَدُوا » الخ. أو أينكرون فسقهم وكلما الخ ، وقيل : الواو زائدة ، وقيل هى « أو » التى لأحد الشيئين . حركت بالفتح . وقد قرىء شاذاً بسكونها . فتكون بمعنى بل . دلت عليه القرينة . أعنى قوله « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ » ترقياً إلى الأغلظ فالأغلظ . قال ابن جنىّ : «أو» هذه هى التى بمعنى «أم» المنقطعة ، وكلتاهما بمعنى « بل » ـ موجود فى الكلام كثيراً . أنشد الفراء لذى الرمة :

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِى رَوْنَقِ الضُّحَى وَصُورَتِهَا . أَوْ أَنْتِ فِى الْعَيْنِ أَمْلَحُ

وكذا قال فى قوله تعالى « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » وعلى الوجه الأول ، فالمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه ، لأن مثل ذلك ، إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ فى التنكير والتبكيت . ودل بقوله « أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا » على عهد بعد عهد نقضوه ونبذوه . بل يدل على أن ذلك كالعادة فيهم . فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات ، بأن ذلك ليس ببدع منهم بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم. على ما بينه فى الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالاً بعد حال . لأن من يعتاد منه هذه الطريقة لا يصعب على النفس مخالفته ، كصعوبة من لم تجر عادته بذلك .

قال العلامة : واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود ، وكم أخذ الله الميثاق منهم ، ومن آبائهم ، فنقضوا ، وكم عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا « الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ »(١) . والنبذ الرمى بالذمام، ورفضه. وإسناده إلى فريق منهم، لأن منهم من لم ينبذه . وفى قوله « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ » دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون . قوله تعالى :

---

(١) [٨ / الأنفال / ٥٦] وتمام الآية : وَهُمْ لا يَتَّقُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » تصريح بما طوى قبلُ . فإن نبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها ، أعقبهم التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذى فى كتبهم نعته ، كما قال تعالى « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »[١] الآية ، فتنكير « رسول » للتفخيم . والجار بعده متعلق بجاء ، أو بمحذوف وقع صفة لرسول ، لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ماأفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، وقوله « كِتَابَ اللَّهِ » يعنى التوراة ، لأنهم بكفرهم برسول الله ، المصدق لما معهم ، كافرون بها ، نابذون لها . وقيل « كِتَابَ اللَّهِ » القرآن نبذوه بعد مالزمهم تلقيه بالقبول . وقوله « وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » مثل لتركهم وإعراضهم عنه ، مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه ، وقلة التفات إليه . وقوله « كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » جملة حالية ، أى نبذوه وراء ظهورهم ، مشبهين بمن لايعلمه . فإن أريد بهم أحبارهم ، فالمعنى كأنهم لايعلمونه على وجه الإيقان ، ولا يعرفون مافيه من دلائل نبوته ﷺ . ففيه إيذان بأن علمهم به رصين ، لكنهم يتجاهلون . أو كأنهم

---

(١) [٧/ الأعراف/ ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

لا يعلمون أنه كتاب الله ، أو لا يعلمونه أصلاً ، كما إذا أريد بهم الكل. وفى هذين الوجهين، زيادة مبالغة فى إعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة . وهذا ، وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن ، فالمراد بالعلم المنفىّ فى « كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » هو العلم بأنه كتاب الله ، ففيه مافى الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون فى ذلك، وإنما يكفرون به مكابرة وعناداً، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » هو حكاية لفن آخر من زيغهم وضلالهم ، إثر نبذهم كتاب الله والعمل بما بين أيديهم . وهو اتباعهم لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والكفر ، وانه إنما نال ذلك الملك بسبب معرفته السحر . وزادوا على ذلك فنسبوه إلى الردة والكفر لأسباب افتروها عليه ، فبرأه الله تعالى من هذا الافتراء والاختلاق ، وألصق الكفر بأولئك الشياطين الذين يضللون العقول والأفهام بتعليم السحر والشعبذة ، وإسناد التأثير إلى غير الخالق ، سبحانه ، والصد عن سبيل الحق ، وابتغائهم إياها عوجا

و « تَتْلُو » بمعنى تقص وتحدث. من التلاوة ، وهى القراءة . أو بمعنى تكذب وتختلق ، وهو قول أبى مسلم ، قال : يقال تلا عليه ، إذا كذب ، وتلا عنه إذا صدق . وهكذا قال الراغب فى تفسيره : تلا عليه كذب ، نحو روى عليه ، وقال عليه « وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ »[١] . وقال : الآية معطوفة على ماتقدم من ذكر اليهود ، وهى منطوية على أمرين: ذم اليهود فى تحرى السحر وإيثاره ، وتبرئة لسليمان عليه السلام مما نسبوه إليه ، وتخرصوه عليه اهـ . وذلك أنهم زعموا أن سليمان عليه السلام ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام ، وبنى لها المعابد ، كما تراه فى الفصل الحادى عشر من سفر الملوك الثالث . فانظر إلى هذه الجرأة العظيمة والقحة الكبيرة . ولما تنبه عقلاء أهل الكتاب المتأخرون لمثل هذه الفِرَى ، اعترفوا بأنه ليس كل قول من الأقوال المندرجة فى كتبهم المقدسة إلهاميا ، بل بعضها كتب على طريقة المؤرخين ، يعنى بلا إلهام ، كما فى « إظهار الحق » . والمراد بالشياطين شياطين الإنس ، وهم المتمردة العصاة الأشرار الأفوياء ، الدعاة إلى الباطل . وقوله « عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ » أى على عهد ملكه من تلك الأقاصيص المختلقة عليه . وقوله تعالى « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ » تنزيه لساحته عليه السلام من الردة والشرك وعبادة الأوثان التى نسبوها إليه ، وتكذيب لمن تقولها . وقال كثيرون : هذا تبرئه من السحر ، وأنه تعالى كنى عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر ، وأن من كان نبيا كان معصوماً عنه . وإنما كان كفراً لكونه يكون بالتوجه إلى الأفلاك والشياطين وعبادتها ، وزعم أنها مؤثرة دونه تعالى .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

و [٣ / آل عمران / ٧٨] ونصها : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

والمعنى الأول أصرح وأوضح . وقوله تعالى « وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » عنى بالشياطين من ذكرناهم قبلُ وهم خبثاء الإنس وأشرارهم . كما فى قوله تعالى « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ »(١) وقولِهِ « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ »(٢) والذى يعيّن هذا المعنى قولُهُ « تَتْلُو » لأن تلاوة شياطين الجن ، لايسمعها أحد . ومعنى « تتلو » تقص كما تقدم. وقوله : « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » يعيّن هذا المعنى أيضاً ، إذ لايتعلم أحد السحر إلا من شياطين الإنس . والمراد بقوله « كَفَرُوا » كفرهم بآيات الله المنزلة ، أو عبادتهم غيره تعالى ، أو كفرهم باستعمال السحر والشعوذة ، تعمية على الحق ، وتغشيةً للبصائر . وجملة قوله « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » حالية من ضمير « كَفَرُوا » ، أو خبر ثان لِـ« لَٰكِنَّ » ، أو مستأنفة . هذا على تقدير كون الضمير للشياطين . وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل « اتَّبَعُوا » فهى إما حال منه أو استئنافية . وقوله تعالى « وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » . اعلم أن للعلماء فى هذه الآية وجوها كثيرة ، وأقوالا عديدة ، فمنهم من ذهب فيها مذهب الأخباريين نقلة الغث والسمين ، ومنهم من وقف مع

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

ظاهرها البحت وتمحّل لما اعترضه ، بما المعنى الصحيح فى غنى عنه . ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير وردّ آخرها على أولها ، بما جعلها أشبه بالألغاز والمعميات، التى يتنزه عنها بيان أبلغ كلام. إلى غير ذلك مما يراه المتتبع لما كتب فيها .

والذى ذهب إليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرَين بالصلاح والتقوى فى بابل ـ وهى مدينة بالعراق على نهر الفرات ـ وكانا يعلمان الناس السحر . وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء ، وما يعلمانه للناس هو بوحى من الله . وبلغ مكر هذين الرجلين ، ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ » ، أى إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك ، أتشكر أم تكفر ، وننصح لك أن لا تكفر . يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلٰهية ، وصناعتهما روحانية ، وأنهما لا يقصدان إلا الخير . كما يفعل ذلك دجاجلة هذا الزمان ، قائلين لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم : نوصيك بأن لا تكتب لجلب امرأة متزوجة إلى رجل غير زوجها ، إلى غير ذلك من الأوهام والافتراء . ولليهود فى ذلك خرافات كثيرة . حتى إنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهما من الله . وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس. فجاء القرآن مكذباً لهم فى دعواهم نزوله من السماء، وفى ذم السحر، ومن يتعلمه أو يعلمه ، فقال « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ » الآية ، فـ « ما » هنا نافية ، على أصح الأقوال ، ولفظ « الملكين » هنا وارد حسب العرف الجارى بين الناس فى ذلك الوقت ، كما يرد ذكرُ آلهة الخير والشر فى كتابات المؤلفين عن تاريخ اليونان والمصريين وغيرهم ، وكما يرد فى كلام المسلم، فى الرد على المسيحيين، ذكرُ تجسد الإلٰه وصلبه ، وإن كان لا يعتقد ذلك . وقوله تعالى « فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ » من قبيل التمثيل ، وإظهار الأمر فى أقبح صورة ، أى بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل ، وطرق الإفساد ، أن يتمكنوا به من التفريق بين أعظم مجتمع : كالمرء وزوجه . والخلاصة : أن معنى الآية من أولها إلى آخرها هكذا : أن اليهود كذبوا القرآن

ونبذوه وراء ظهورهم ، واعتاضوا عنه بالأقاصيص والخرافات التي يسمعونها من خبثائهم عن سليمان وملكه . وزعموا أنه كفرَ ، وهو لم يكفر . ولكن شياطينهم هم الذين كفروا ، وصاروا يعلمون الناس السحر ، ويدعون أنه أنزل على هاروت وماروت ، اللذين سمَّوْهما ملَكين ، ولم ينزل عليهما شيء ، وإنما كانا رجلين يدَّعيان الصلاح لدرجة أنهما كانا يوهمان الناس أنهما لايقصدان إلا الخير ، ويحذرانهم من الكفر . وبلغ من أمر ما يتعلمونه منهما من طرق الحيل والدهاء أنهم يفرقونَ به بين المجتمعين ، ويحلون به عقد المتحدين . فأنت ترى من هذا أن المقام كله للذم ، فلا يصح أن يرد فيه مدح هاروت وماروت . والذى يدل على صحة ما قلناه فيهما أن القرآن أنكر نزول أى ملَك إلى الأرض ليعلم الناس شيئاً من عندالله، غير الوحى إلىالأنبياء ، ونص نصًّا صريحاً أن الله لم يرسل إلا الإنس لتعليم بنى نوعهم فقال « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »(١) ، وقال منكراً على من طلب إنزال الملك « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ »(٢) ، وقال فى سورة الفرقان « وَقَالُوا مَالِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ـ إلى قوله ـ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا »(٣) .

وللقصاص فىهاروت وماروت أحاديث عجيبة . فزعموا أنهما كانا ملكين من الملائكة ، وأنهما لما نظرا إلى مايصنع أهل الأرض من المعاصى، أنكرا ذلك وأكبراه ودعوا على أهل الأرض . فأوحى الله تعالى إليهما : إنى لو ابتليتكما بما ابتليت به بنى آدم من الشهوات لعصيتمانى، فقالا : يا رب ، لو ابتليتنا لم نفعل ، فجرِّبْنَا . فأهبطهما إلى الأرض ، وابتلاهما الله بشهوات

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٨] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧ـ٩] .

بنى آدم، فمكثا فى بلدة كانت فيها فاجرة تسمى « الزهرة » فدعواها إلى الفاحشة وواقعاها بعد أن شربا الخمر، وقتلا النفس وسجدا للصنم. وعلماها الاسم الأعظم، الذى كانا به يعرجان إلى السماء ، فتكلمت المرأة بذلك الاسم ، وعرجت إلى السماء ، فمسخها الله تعالى ، وصيّرها هذا الكوكب المسمى بالزهرة . ثم إن الله تعالى عرّف هاروت وماروت قبيح ما فيه وقعا ، ثم خيّرهما بين عذاب الآخرة آجلًا ، وبين عذاب الدنيا عاجلًا ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلهما ببابل منكوسيْن فى بئر إلى يوم القيامة ، وهما يعلّمان الناس السحر، ويدعوان إليه ، ولا يراهما أحد إلا من ذهب إلى ذلك الموضع لتعلم السحر خاصة . وهذه القصة من اختلاق اليهود وتقولاتهم . ولم يقل بها القرآن قط ، وإنما ذكرها التلمود ، كما يعلم من مراجعة « مدراس يدكوت » فى الإصحاح الثالث والثلاثين ، وجاراه جهلة القصاص من المسلمين ، فأخذوها منه .

قال الرازىّ فى تفسيره : إن القصة التى ذكروها باطلة من وجوه :

أحدها : أنهم ذكروا فى القصة أن الله تعالى قال لهما (أى لهاروت وماروت) : لو ابتليتكما بما ابتليت به بنى آدم لعصيتمانى ، فقالا : لو فعلت ذلك بنا يا رب لما عصيناك ، وهذا منهم تكذيب لله تعالى ، وتجهيل له ، وذلك من صريح الكفر .

وثانيها : أنهما خيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة وبين العذاب ، والله تعالى خيّر بينهما مَنْ أشرك به طول عمره ، وبالغ فى إيذاء أنبيائه .

وثالثها : أن من أعجب الأمور قولهم : إنهما يعلمان السحر ، فى حال كونهما معذبين ويدعوان إليه ، وهما يُعَاقَبان .

وهكذا ، الإمام أبو مسلم احتج على بطلان نزول السحر عليهما أيضاً بوجوه :

الأول : أن السحر لو كان نازلًا عليهما لكان منزّله هو الله ، وذلك غير جائز ، لأن السحر كفر وعبث لايليق بالله تعالى إنزال ذلك .

الثانى : ان قوله « وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » يدل على أن تعليم السحر كفر . فلو ثبت فى الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر . وذلك باطل.

الثالث : كما لا يجوز فى الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر ، فكذلك فى الملائكة بطريق الأولى .

الرابع : إن السحر لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة ، وكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموه ؟ وقد جرت عادة الله بإبطاله ، كما قال فى قصة موسى عليه السلام « مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ »(١) انتهى .

وقد ساق الرازىّ ما ارتآه أبو مسلم فى تفسير هذه الآية . ولم نشأ نقله لبعده عن الصواب . وهكذا ما ذكره الإمام ابن حزم فى كتابه « الفصل » فى بحث « عصمة الملائكة » ففيه تكلف وتمحل غريب ، كما يعلم بمراجعتهما .

وللراغب الأصفهانىّ احتمالات فى تصحيح القصة ، وتجويزات عجيبة تنبو عن الحق الصراح الذى آثرنا نقله أولاً عن بعض المحققين . والله أعلم .

واعلم أن لفظ السحر ، فى عرف الشرع ، مختص بكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع ، ومتى أطلق ولم يقيد ، أفاد ذم فاعله ، قال تعالى « سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ »(٢) يعنى موّهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيّهم تسعى . وقد

---

(١) [١٠ / يونس / ٨١] ونصها : فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١١٦] ونصها : قَالَ أَلْقُوا ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

يستعمل مقيداً : فيما يمدح ويحمد ، كما قال رسول الله ﷺ لعمرو بن أهتم : « إن من البيان لسحرا »(١) ، لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ، ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه ، وبليغ عبارته . وبالجملة، فالسحر المطلق إنما هو تخييل بشعوذة صارفة للأبصار ، أو تمتمة مزخرفة عائقة للأسماع ، فلا يغير حقائق الأشياء ، ولا ينقل الصور . وقوله تعالى « وَمَاهُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » قال الراغب : الإذن قد يقال فى الإعلام بالرخصة ، ويقال للعلم ، ومنه آذنته بكذا ، ويقال للأمر الحتم . وينبغى أن يعلم أن الإذن فى الشيء من الله تعالى ضربان :

أحدهما : الإذن لقاصد الفعل فى مباشرته . نحو قولك : أذن الله لك أن تصل الرحم .

والثانى : الإذن فى تسخير الشيء على وجه تسخير السم فى قتله من يتناوله، والترياق فى تخليصه من أذيته . فإذن الله تعالى فى وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثانى ، وذلك هو المشار إليه بالقضاء، وعلى هذا يقال: «الأشياء كلها بإذن الله وقضائه» ولا يقال : الأشياء كلها بأمره ورضاه وقوله تعالى «وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ» إرشاد إلى أن ليس فى تعلم السحر إلا المضرة ، لما فيه من التلبيس والتمويه ، وإيهام الباطل حقاً ، والتوصل به إلى المفاسد والشرور . وقوله سبحانه «وَلَا يَنفَعُهُمْ» صرح به إيذاناً بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر، بل هو شر بحت ، وضرر محض . وقوله تعالى « وَلَقَدْ عَلِمُوا » أى اليهود الذى حكيت ضلالاتهم . وقوله «لَمَنِ اشْتَرَاهُ» أى استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ، والحق الذى أنزله . وقوله « مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ » أى نصيب ، لإقباله على التمويه والكذب ، واستمال

(١) فى سنن أبى داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٨٦ ـ باب ما جاء فى المتشدق فى الكلام ، حديث ٥٠٠٧ .

عن عبد الله بن عمر أنه قال : قدم رجلان من المشرق . فخطبا . فعجب الناس ـ يعنى لبيانهما ـ فقال رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحرا » .

ذلك فى اكتساب حطام الدنيا وتمتعاتها . وفيه إشارة إلى أن اختيارهم للسحر ، ليس من جهلهم بضرره ، بل أتوا ما أتوا عن علم بعاقبته السوأى . وقوله تعالى « وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » أى ما باعوا به حظهم الأخروىّ ، حتى كأنهم أتلفوا أنفسهم ، وإنما نفى عنهم العلم بقوله « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » مع إثباته لهم على سبيل التوكيد القسمىّ بقوله «وَلَقَدْ عَلِمُوا»ـ لأن معناه لو كانوا يعملون بعلمهم . فجعلهم غير عالمين ، لعدم عملهم بموجب علمهم . ولما بين سبحانه ما عليهم فيما ارتكبوا من المضار أتبعه ما فى الإعراض عنه من المنافع فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا » أى بما دعوا إليه من القرآن الحكيم « وَاتَّقَوْا » أى ما يؤثمهم، ومنه السحر والتمويه وقوله « لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ » جواب « لو » وأصله : لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم . فحذف الفعل وغيّر السبك إلى ما عليه النظم الكريم ، دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها ، وحذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه ، وقوله تعالى « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى أن ثواب الله خير . وإنما نسبوا إلى الجهل لعدم العمل بموجب العلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا » للنبىّ ﷺ « رَاعِنَا » التى تقصدون بها الرعاية والمراقبة لمقصد الخير وحفظ الجانب ، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون

بها ألسنتهم ، ويقصدون بها الرعونة ، وهى إفراط الجهالة ، فنهاهم عن موافقتهم فى القول ، منعاً للصحيح الموافق فى الصورة لشبهه من القبيح ، وعوضهم منها ما لا يتطرق إليه فساد فقال « وَقُولُوا انْظُرْنَا » فأبقى المعنى وصرف اللفظ . أى انظر إلينا . بالحذف والإيصال . أو انتظرنا . على أنه من نظره إذا انتظره ، وقرئ أنظرنا من النظرة أى أمهلنا حتى نحفظ. وقرئ راعونا على صيغة الجمع للتوقير . وراعناً على صيغة الفاعل أى قولا ذا رعن ، كدارع ولابن ، لأنه لما أشبه قولهم راعينا وكان سبباً للسب بالرعن اتصف به «وَاسْمَعُوا» أى قولوا ما أمرتكم به ، وامتثلوا جميع أوامرى ، ولا تكونوا كاليهود ، حيث قالوا سمعنا وعصينا «وَلِلْكَافِرِينَ» أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى التهاون بمقام رسول الله ﷺ « عَذَابٌ أَلِيمٌ » لما اجترؤوا عليه من العظيمة ، وهو تذييل لما سبق ، فيه وعيد شديد لهم ، ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه . وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة النساء « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا »(١) ومن ليهم ما جاء فى الحديث أنهم كانوا إذا سلموا يقولون « السام عليكم »(٢) والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ « وعليكم » ، وإنما يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا .

---

(١) [٤ / النساء / ٤٦] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٣٥ ـ باب الرفق فى الأمر كله .

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها، زوج النبىّ ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت عائشة : ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة.

قالت فقال رسول الله ﷺ « مهلا يا عائشة . إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » .

فقلت : يا رسول الله ! ولم تسمع ماقالوا ؟ قال رسول الله ﷺ « قد قلت : وعليكم ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ » بيان لشدة عداوة الكافرين من القبيلين للمؤمنين ، حسداً وبغياً . ليقطع التشبه بهم . فإن مخالفة الأعداء من الأغراض العظيمة للمتمكنين فى الأخلاق الفاضلة . ثم بين أن الحسد لا يؤثر فى زوال ذلك بقوله « وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » و (الاختصاص) عناية تعيّن المختص لمرتبة ينفرد بها دون غيره ، وفيه تنبيه على ما أنعم به على المؤمنين ، من الشرع التام الكامل الذى شرعه لهم .

ولمّا أنكرت اليهود أن يقع شىء من النسخ لآيات الله ، توصلًا بذلك إلى إنكار آيات القرآن ، وتأييدِ تأبيد التوراة ، ردّ عليهم سبحانه ـ بعد تحقيق حقية الوحى ـ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » أى : ما نبدّل من آية بغيرها ـ كنَسْخنا آيات التوراة بآيات القرآن ـ « أَوْ نُنْسِهَا » أى : نذهبها من القلوب ـ كما أخبر بقوله « وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ »(١) ـ وقرئ « أو ننسأها » أى نؤخرها ونتركها بلا نسخ ، كما أبقى كثيراً

---

(١) [٥ / المائدة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

من أحكام التوراة فى القرآن . وعلى هذه القراءة ، فقد نشر على ترتيب هذا اللف قوله « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » أى : من المنسوخة المبدلة ـ كما فعل فى الآيات التى شرعت فى الملة الحنيفية ما فيه اليسر ، ورفع الحرج ، والعنت ـ فكانت خيراً من تلك الآصار والأغلال . وقوله « أَوْ مِثْلِهَا » أى : مثل تلك الآيات الموحاة قبل ، كما يُرى فى كثيرٍ من الآيات فى القرآن الموافقة لِمَا بين يديها مما اقتضت الحكمة بقاءه واستمراره .

قال الراغب : فإن قيل : إن الذى تُرِكَ ولم يُنْسَخ ليس هو مثله بل هو هو ، فكيف قال « بمثلها » ؟ قيل : الحكم الذى أنزل فى القرآن ـ وكان ثابتاً فى الشرع الذى قبلنا ـ يصحّ أن يقال هو هو ، إذا اعتبر بنفسه ولم يعتبر بكسوته ـ التى هى اللفظ . ويصح أن يقال هو مثله إذا لم يعتبر بنفسه فقط بل اعتبر باللفظ . ونحو ذلك أن يقال : ماء البئر هو ماء النهر ـ إذا اعتبر جنس الماء ، وتارة يقال : مثل ماء النهر ـ إذا اعتبر قرار الماء . اهـ . على أنّ إرادة العين بالمثل شائعة ـ كما فى قولهم : مثلك لا يبخل ـ « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو يقدر على الخير ، وما هو خير منه ، وعلى مثله فى الخير .

قال الراغب : أى لاتحسبنّ أنّ تغييرى لحكمٍ ، حالاً فحالاً ، وأنى لم آت بالثانى فى الابتداء ـ هو العجز ؛ فإنّ من علم قدرته على كل شىء لايظنّ ذلك . وإنما تغيُّر ذلك يرجع إلى مصلحة العباد ، وأنّ الأليق بهم ، فى الوقت المتقدّم ، الحكم المتقدّم . وفى الوقت المتأخر ، الحكم المتأخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فهو يملك أموركم ويدبّرها ، وهو أعلم بما يتعبّدكم به من ناسخٍ أو منسوخ . « وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ » يلى أموركم

« وَلَا نَصِيرٍ » ناصر يمنعكم من العذاب .

وقضيّة العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة ، هو الجزم والإيقان بأنّه تعالى لا يفعل بهم ـ فى أمرٍ من أمور دينهم أو دنياهم ـ إلّا ماهو خيرٌ لهم، والعمل بِمُوجبه ـ من الثقة به ، والتوكّل عليه ، وتفويض الأمر إليه . من غير إصغاء إلى أقاويل اليهود ، وتشكيكاتها التى من جملتها ماقالوا فى أمر النسخ ، حيث أنكروا نسخ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوّة عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة . فأخبرهم الله أن له مُلك السمٰوات والأرض وسلطانهما ، وأنّ الخلق أهل مملكته وطاعته . عليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأنّ له أمرهم بما يشاء ، ونهيهم عمّا يشاء ، ونسخ مايشاء ، وإقرار مايشاء . والذى حمل اليهود على منع النسخ إنما هو الكفر والعناد ؛ وإلا فقد وُجد فى شريعتهم النسخ بكثرة .

وقد ذكر العلامة الشيخ رحمة الله الهندىّ فى (إظهار الحقّ) أمثلةً وافرةً مما وقع من ذلك فى التوراة والإنجيل . فارجع إليها فى الباب الثالث منه .

تنبيهان

الأول : قال بعض الفضلاء : نزلت هذه الآية لمّا قال المشركون أو اليهود : إنّ محمداً يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه . وفى الآية ردّ عليهم بأنّ المقصود من نسخ الحكم السابق : تهيُّؤ النفوس لأرقى منه . وهو معنى قوله تعالى « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » لأنّ الخالق تعالى ربّى الأمّة العربية فى ثلاث وعشرين سنة تربيةً تدريجية لا تتم لغيرها ـ بواسطة الفواعل الاجتماعية ـ إلّا فى قرونٍ عديدة . لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليّتها ، ومتى ارتقت قابليّتها بدّل الله لهاذلك الحكم بغيره . وهذه سنّة الخالق فى الأفراد والأمم على حدٍ سواء . فإنّك لو نظرت فى الكائنات الحية ـ من أوّل الخلية النباتية إلى أرقى شكلٍ من أشكال الأشجار ، ومِن أوّلِ رتبةٍ من رتب الحيوانات إلى الإنسان ـ لرأيت

أن النسخ ناموس طبيعىّ محسوس فى الأمور المادّية والأدبية معاً .. ! فإنّ انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين ، ثم إلى طفل ، فيافعٍ ، فشابّ ، فكهلٍ فشيخٍ ، وما يتبع كل دورٍ من هذه الأدوار ـ من الأحوال الناسخة للأحوال التى قبلها ـ يريك بأجلى دليل : أنّ التبدّل فى الكائنات ناموس طبيعىّ محقق . وإذا كان هذا النسخ ليس بمستنكرٍ فى الكائنات ، فكيف يستنكر نسخ حكمٍ وإبداله بحكم آخر فى الأمة ، وهى فى حالة نموٍ وتدرج من أدنى إلى أرقى ؟ هل يرى إنسانٌ له مسكة من عقل أن من الحكمة تكاليف العرب ـ وهم فى مبدإ أمرهم ـ بما يلزم أن يتصفوا به وهم فى نهاية الرقّ الإنسانىّ ، وغاية الكمال البشرىّ .. ؟! وإذا كان هذا يصح ، وجب أن الشرائع تكلف الأطفال بما تكلف به الرجال ، وهذا لم يقل به عاقل فى الوجود ..! وإذا كان هذا لا يقول به عاقل فى الوجود ، فكيف يجوز على الله ـ وهو أحكم الحاكمين ـ بأن يكلف الأمة ـ وهى فى دور طفوليتها ـ بما لا تتحمله إلّا فى دور شبوبيتها وكهولتها ..؟ وأى الأمرين أفضل : أَشَرْعُنا الذى سَنَّ الله لنا حدوده بنفسه ، ونسخ منه ما أراد بعلمه ، وأتمه ـ بحيث لا يستطيع الإنس والجن أن ينقضوا حرفاً منه ـ لانطباقه على كل زمان ومكان ، وعدم مجافاته لأى حالةٍ من حالات الإنسان ..؟! أم شرائع دينية أخرى ، حرّفها كهانها ، ونسخ الوجودُ أحكامها ـ بحيث يستحيل العمل بها ـ لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه ..؟!

الثانى : أسلفنا ـ فى مقدمة التفسير ـ إلى أن النسخ باصطلاح السلف أعم منه فى اصطلاح الخلف ، بما ينبغى مراجعته ..

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

« أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ » (أم) هنا ، إما

متصلة معادلة للهمزة فى (ألم تعلم) أى ألم تعلموا أنه مالك الأمور ، قادرٌ على الأشياء كلها، يأمر وينهى كما أراد ... أم تعلموا وتقترحون بالسؤال ـ كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام ؟ وإما منقطعة ـ بمعنى بل ـ للإضراب والانتقال عن حملهم على العمل بموجب عِلْمهِم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم فى ذلك ، وأمارات التأثّر من أقاويل الكفرة ، إلى التحذير من ذلك . ومعنى (الهمزة) إنكار وقوع الإرادة منهم ، واستبعاده . لما أن قضيّة الإيمان وازعة عنها . وتوجيه الإنكار إلى الإرادة ـ دون متعلّقها ـ للمبالغة فى إنكاره واستبعاده ، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته . فضلا عن صدور نفسه . وقوله « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ » أى : يختره ، ويأخذه لنفسه « بِالْإِيمَانِ » . بمقابلته بَدَلًا منه « فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى عدل عن الصراط المستقيم . جملةٌ مستقلة مشتملة على حكم كلىّ أخرجت مخرج المثل جىء بها لتأكيد النهى عن الاقتراح المفهوم من قوله « أَمْ تُرِيدُونَ » الخ ، معطوفة عليه . ومعنى الآية لا تقترحوا فتضلوا وسط السبيل ويؤدى بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان . فظهر وجه ذكر قوله « أَمْ تُرِيدُونَ » الخ بعد قوله تعالى « مَا نَنْسَخْ » . فإن المقصود من كل منهما تثبيتهم على الآيات وتوصيتهم بالثقة بها .

قال الراغب : فإن قيل ما فائدة قوله « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ » الخ ومعلوم أنه بدون الكفر يضل الإنسان سواء السبيل فكيف بالكفر؟ قيل معنى ذلك من يتبدل الكفر بالإيمان يعلم أنه قد ضل، قبلُ، سواء السبيل ؛ وفى ذلك تنبيه أن ضلاله سواء السبيل قاده إلى الكفر بعد الإيمان. ومعناه لا تسألوا رسولكم كما سئل موسى فتضلوا سواء السبيل فيؤدى بكم إلى تبديل الكفر بالإيمان. فمبدأ ذلك، الضلالُ عن سواء السبيل. ووجه آخر وهو أنه سمى معاندة الأنبياء عليهم السلام ، بعد حصول ما تسكن النفس إليه ، كفراً . إذ هى مؤدية إليه . كتسمية العصير خمراً. فقال «وَمَنْ يَتَبَدَّلِ» أى يطلب تبديل الكفر، أى المعاندة التى هى مبدأ الكفر، بالإيمان أى بما حصل له من الدلالة المقتضية لسكون النفس، فقد ضل سواء السبيل.

ووجه ثالث وهو أن ذلك نهاية التبكيت لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل . وأنه كمن كان على وضح الطريق فتاه فيه . ووجه رابع وهو أن « سَوَاءَ السَّبِيلِ » إشارة إلى الفطرة التى فطر الناس عليها . والإيمان إشارة إلى المكتسب من جهة الشرائع فقال « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ » أى بالإيمان المكتسب فقد أبطله ، وضيّع الفطرة التى فطر الناس عليها فلا يرجى له نزوع عما هو عليه بعد ذلك .

هذا. وما قررناه فى الآية من أن الخطاب للمسلمين هو ما يترجح ويكون كقوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ »(١) . ويرشحه قوله « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ » فإن موقع خطابه إنما يتضح مع المؤمنين . ورجّح الرازىّ كون الخطاب مع اليهود قال : لأن هذه السورة من أول قوله « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأنه لم يجر ذكر غيرهم فى السياق، وقد قص تعالى عنهم سؤال النبىّ ﷺ بقوله « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا » الآية ، وحينئذ فمعنى تبدل الكفر بالإيمان ، وهم بمعزل من الإيمان ، إعراضهم عنه ، مع تمكنهم منه ، وإيثارهم للكفر عليه . كما أن إضافة الرسول إليهم باعتبار أنهم من أمة الدعوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا »

---

(١) [٥ / المائدة / ١٠١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

علة ودّ « مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ » من صحة رسالة محمد ﷺ بشهادة ما طابقه من التوراة « فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا » أى أعرضوا عما يكون منهم من الجهل والعداوة فلاتجازوهم « حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » وهو الإذن فى قتالهم وإجلائهم « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فينتقم منهم إذا آن أوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ» أى ثوابه « عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » فلا يضيع عنده عمل عامل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَقَالُوا » أى أهل الكتاب من اليهود والنصارى « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ » نشرٌ لما لفّته الواو فى « وَقَالُوا » ، واليهود جمع هائد ، كعوذ جمع عائذ . وقرىء «إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » . « تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ » جملة معترضة مبينة لبطلان ما قالوا. والأمانىّ جمع أمنية وهى مايتمنى. كالأعجوبة والأضحوكة . فإن قيل : قولهم « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » أمنية واحدة ، فلِمَ قال : أمانيهم ؟ أجيب : بأن الجمع باعتبار صدوره عن الجميع . وأجاب صاحب الانتصاف بأنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها وتأكدها فى نفوسهم، جمعت . ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤداه واحدا . ونظيره قولهم: مِعًى جياعٌ. فجمعوا الصفة.ومؤداها

واحد ، لأن موصوفها واحد ، تأكيدا لثبوتها وتمكنها . وهذا المعنى أحد ماروى فى قوله تعالى « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ »(١) فإنه جمع (قليلا) وقد كان الأصل إفراده فيقال « لشرذمة قليلة » كقوله تعالى « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ »(٢) لولا ماقصد إليه من تأكيدمعنى القلة بجمعها . ووجه إفادة الجمع فى مثل هذا للتأكيد ، أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد ، وإبانة زيادته على نظرائه ، نقلاً مجازياً بديعاً . فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان . والله الموفق « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى دعواكم . قال الرازىّ : دلت الآية على أن المدعى سواء ادعى نفياً أو إثباتاً ، فلا بد له من الدليل والبرهان ، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد ، قال الشاعر :

من ادّعى شيئاً بلاشاهدٍ   لابد أن تبطُلَ دعواهُ

انتهى كلام الرازىّ . وسبقه إلى ذلك الزمخشرىّ حيث قال : وهذا أهدم شىء لمذهب المقلدين ، وإن كل قول لا دليل عليه ، فهو باطل غير ثابت . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« بَلَى » إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة « مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ » من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره . وإنما عبر عن النفس بالوجه ، لأنه أشرف الأعضاء ، ومجمع المشاعر، وموضع السجود ، ومظهر آثار الخضوع. أو المعنى: من أخلص توجهه وقصده، بحيث لايلوى

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٤] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٤٩] ونصها : . . . قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

عزيمته إلى شيء غيره « وَهُوَ مُحْسِنٌ » في عمله ، موافق لهديه ﷺ ، وإلا لم يقبل ، ولذا قال ﷺ (١) « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » رواه مسلم « فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » وهو عبارة عن دخول الجنة . وتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوة ارتباطه بالعمل . « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من لحوق مكروه « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » من فوات مطلوب . والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى « مَنْ » كما أن الإفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ» بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه ، إثر بيان تضليله كلّ من عداه على وجه العموم . ومعنى « عَلَىٰ شَيْءٍ » أيّ أمر يعتد به من الدين « وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ » الواو للحال . والكتاب للجنس . أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب . وحق من حمل التوراة أو الإنجيل ، أو غيرهما من كتب الله ، وآمن به ، أن لا يكفر بالباقي . لأن كل واحد من الكتابين مصدقٌ للثاني ، شاهدٌ بصحته . وكذلك كتُب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً « كَذَٰلِكَ » أي مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج « قَالَ » الجهلة « الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » لا علم عندهم ولا كتاب . كعبدة الأصنام. قالوا لأهل كل دين « مِثْلَ قَوْلِهِمْ » ليسوا على شيء . وهذا توبيخ عظيم ، حيث نظموا أنفسهم ، مع علمهم ،

---

(١) أخرجه مسلم في : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، ح ١٨ عن عائشة قالت : إن رسول الله ﷺ قال . . . (طبعتنا).

فى سلك من لا يعلم « فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى يفصل بينهم بقضائه العدل ، فيحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه . وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ »(١) وكما قال تعالى « قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ »(٢) .

قال الرازىّ : واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت فى أمة محمد ﷺ ، فإن كل طائفة تكفّر الأخرى . مع اتفاقهم على تلاوة القرآن . انتهى .

فهاهنا تسكب العبرات بما جناه التعصب فى الدين على غالب المسلمين من الترامى بالكفر، لا بسنّةٍ ولا قرآنٍ، ولا لبيان من الله ولا لبرهان، بل لمّا غلت مراجل العصبية فى الدين ، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين ،

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضحُ

مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف . ونهى عن الفرقة والاختلاف . فقال تعالى « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا »(٣) . وقال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ »(٤) . وقال تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .

(٣) [٣/ آل عمران/١٠٣] ونصها: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٥٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ »(١). وقال تعالى « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ »(٢). وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة، بالسنة والجماعة ، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا » إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك . ولما وجّه تعالى الذم فيما سبق فى حق اليهود والنصارى ، ذيّله بذم المشركين فى قوله « كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » . ثم وجهه بهذه الآية أيضاً المشركين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة ، ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام ، وصدوهم أيضا عنه ، حين(٣) ذهب إليه النبىّ ﷺ

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٥] ونصها : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٣] ونصها : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

(٣) هذا حديث جم الفائدة عظيم القدر يعتبر من أهم الوثائق التاريخية فى سيرة الرسول الأعظم ﷺ . وقد عنى الإمام البخارىّ به عنايته بكل عظيم . فأخرجه فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٠٦ ـ باب من أشعر وقلد بذى الحليفة ثم أحرم . =

وأصحابه من المدينة عام الحديبية. وكل هذا تخريب للمسجد الحرام ، لأن منع الناس من إقامة شعار العبادة فيه ، سعيٌ فى تخريبه . وأيّ خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنه رسول الله ﷺ وأصحابه . واستحوذوا عليه بأصنامهم وأندادهم وشركهم ، كما قال تعالى « وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »(١) وقال تعالى « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ »(٢) وقال تعالى « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ »(٣) فإذا كان من آمن بالله واليوم الآخر الخ مصدوداً عنه ، مطرودا منه ،

= وفى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١ ـ باب ما يجوز من الشروط فى الإسلام .

١٥ ـ باب ما يجوز من الشروط فى الجهاد .

وفى : ٦٤ ـ كتاب المغازى فى ثلاثة مواضع : عن عليّ بن عبد الله .

وعن عبد الله بن محمد .

وعن إسحاق .

وإن أطول طريق له هو الذى أخرجه فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب مايجوز من الشروط فى الجهاد ، وقد استغرق سرده ست صفحات من الصحيح .

فلا يفوتنك أيها القارئ البصير مطالعته والتفقه فيه فإن فيه علماً .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٤]

(٢) [٩ / التوبة / ١٧و١٨] .

(٣) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ =

obeikandl.com

فأيّ خراب له أعظم من ذلك . والعمارة إحياء المكان وشغله بما وضع له . وليس المراد بعمارته ، زخرفته وإقامة صورته فقط ، إنما عمارته بذكر الله فيه وإقامة شرعه فيه ورفعه عن الدنس والشرك . وإنما أوقع المنع على المساجد ، وإن كان الممنوع هو الناس لما أن المآل عائد لها . ولا يقال : كيف قيل مساجد والمراد المسجد الحرام فقط ؟ لأنه لا بأس أن يجيء الحكم عاما وإن كان السبب خاصًا ، كما تقول ، لمن آذى صالحا واحدا : ومن أظلم ممن آذى الصالحين ؟ وكما قال تعالى « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ »[(1)] والنزول فيه واحد. وقوله « أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ » هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام ، ويذلّ لهم المشركين ، حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفا . يخاف أن يؤخذ فيعاقب . أو يقتل إن لم يُسلم . وقد أنجز الله صدق هذا الوعد فمنعهم من دخول المسجد الحرام . ونادى فيهم عامَ حجّ أبو بكر رضى الله عنه « ألا لا يحجن بعد العام مشرك » . فحج النبيّ ﷺ من العام الثانى ظاهرا على المسجد الحرام ، لا يجترئ أحد من المشركين أن يحج ويدخل المسجد الحرام . وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا، المشار إليه بقوله تعالى « لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » لأن الجزاء من جنس العمل . فكما صدوا المؤمنين صُدُّوا عنه « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو عذاب النار لما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، ودعاء غير الله ، والطواف به عريا ، وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهها الله ورسوله . وفى الآية وجه آخر وهو أن الآية فى ذم اليهود ، تبعا للسابق واللاحق ، وما جنوه بكفرهم على بيت المقدس من خرابه وتسليط عدوّهم عليهم حتى خربه ودمر مدينتهم ، وقتل وسبى منهم وأسرهم

= لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(١) [١٠٤ / الهمزة / ١] .

وبقوا فى الأسر البابلىّ سبعين سنة ؛ كل ذلك كان برفضهم كتاب الله والعمل بشريعته .
وفى قوله تعالى «أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ » إشارة إلى رجوعهم إليه بعدالأسر على تخوف من العدوّ ومذلة لصقت بهم. وهو وجه وجيه. لأن لفظ«سعى» يرشد إلى ذلك . كما أن مفهومها يشعر بذم القائمين على الخراب بالأوْلى وهم النصارى ، حينما تمكنت سلطتهم انتقاما من أعدائهم اليهود .

روى ابن جرير عن مجاهد، قال فى الآية : هم النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى . ويمنعون الناس أن يصلوا فيه . وقال قتادة : حَمَلَهم بغضُ اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلىّ المجوسىّ على تخريب بيت المقدس . وتدل على أن أماكن العبادة تصان وتحترم ، لأنها المدرسة العامة التى تتلى فيها الحكم والأحكام والإرشاد إلى سبل السلام .

وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، فيما رواه الإمام أحمد عن بُسْر بن أرطاة قال كان رسول الله ﷺ يدعو : اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وَأَجِرْنا من خزى الدنيا وَعذاب الآخرة .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث حسن وليس فى شىء من الكتب الستة ، وليس لصحابيّه ، وهو بُسْر بن أرطاة (ويقال ابن أبى أرطاة) حديث سواه ، وسوى حديث : لا تقطع الأيدى فى الغزو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » بيان لشمول ملكوته لجميع الآفاق ، المتسبب عنه سعة علمه . وفى ذلك تحذير من المعاصى وزجر

عن ارتكابها . وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » نظير قوله « إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ »(١) وكقوله تعالى «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ»(٢) وقوله «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ»(٣) وقوله « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا »(٤) أى عمّ كل شيء بعلمه وتدبيره وإحاطته به وعلوّه عليه .

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] ونصها : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ، لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ .

(٢) [٥٧/ الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

« وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » يريد الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وعزيرٌ ابن الله ، والملائكة بنات الله . فأكذب الله تعالى جميعهم فى دعواهم وقولهم : إن لله ولداً . فقال « سُبْحَانَهُ » أى تقدس وتنزه عما زعموا تنزها بليغا. وكلمة « بَلْ » للإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشىء من المخلوقات . أى ليس الأمر كما زعموا ، بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة ، والتنوين فى « كُلٌّ » عوضٌ عن المضاف إليه . أى كل ما فيهما ، كائناً ما كان من أولى العلم وغيرهم « لَهُ قَانِتُونَ » منقادون ، لا يستعصى شىء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ، ومن كان هـذا شأنه لم يتصور مجانسته لشىء . ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد .

قال الراغب فى تفسيره : نبه على أقوى حجة على نفى ذلك . وبيانها : هو أن لكل موجود فى العالم ، مخلوقاً طبيعياً ، أو معمولاً صناعياً ، غرضاً وكمالا أوجد لأجله . وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض، كاليد للبطش، والرجل للمشى ، والسكين لقطع مخصوص، والمنشار للنشر ، وإن كانت اليد قد تصلح للمشى فى حالٍ ، والرِّجل للتناول ، لكن ليس على التمام . والغرض فى الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه ، وجزء منه ، لمَّا لم يجعل الله له سبيلا إلى بقائه بشخصه ، فجعل له بذراً لحفظ نوعه . ويقوى ذلك ، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً واستخلافاً ، لمّا لم يجعل لها فناء النبات والحيـوان . ولما كان الله تعالى هو الباقى الدائم ، بلا ابتداء ولا انتهاء ، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى. ولهذا قال « سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ » أى هو منزه عن السبب المقتضى للولد .

ثم لما كان اقتناء الولد لفقر ما ، وذلك لما تقدم ، أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل إلى نفسه ـ بيّن تعالى بقوله « لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ » أنه لا يتوهم له فقر، فيحتاج إلى اتخاذ ما هو سدٌّ لفقره ، فصار في قوله « لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ » دلالة ثانية . ثم زاد حجة بقوله « قَانِتُونَ » وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ومظاهرته كما قال « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً »[١] بيّن أن كل ما في السموات والأرض ، مع كونه ملكاً له ، قانت أيضاً ، إما طائعاً ، وإما كارهاً ، وإما مسخراً . كقوله « يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً »[٢] وقوله « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة .

ثم قال الراغب : إن قيل من أين وقع لهم الشبهة في نسبة الولد إلى الله تعالى ؟ قيل قد ذكر في الشرائع المتقدمة: كانوا يطلقون على البارىء تعالى اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الإله ، حتى إنهم قالوا : إن الأب هو الرب الأصغر وإن الله هو الأب الأكبر ، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول في وجود الإنسان ، وإن الأب هو السبب الأخير في وجوده وإن الأب هو معبود الابن من وجه أي مخدومه . وكانوا يقولون للملائكة: آلهة.

(١) [١٦ / النحل / ٧٢] ونصها : وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ .

(٢) [١٣ / الرعد / ١٥] ونصها : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً .

كما قالت العرب للشمس: إلاهة. وكانوا يقصدون معنى صحيحاً كما يقصد علماؤنا بقولهم : الله محب ومحبوب ، ومريد ومراد ونحو ذلك من الألفاظ . كما يقــال للسلطان : الملك. وقولُ الناس: رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، مما يكشف عن تقدم ذلك التعارف . ويقوى ذلك ما يروى أن يعقوب كان يقال له بكر الله ، وأن عيسى كان يقول : أنا ذاهب إلى أبى. ونحو ذلك من الألفاظ . ثم تصور الجهلة منهم، بأخرة ، معنى الولادة الطبيعية . فصار ذلك منهيا عن التفوه به فى شرعنا ، تنزهاً عن هذا الاعتقاد ، حتى صار إطلاقه ، وإن قصد به ما قصده هؤلاء ، قرين الـكفر ، اهـ كلام الراغب رحمه الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما وخالقهما على غير مثال سبق . وكل من فعل مالم يسبق إليه يقال له : أبدعت . ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة : مبتدع ، لأنه يأتى فى دين الإسلام ، مالم يسبقه إليه الصحابة والتابعون رضى الله عنهم. وهذه الجملة حجة أخرى لدفع تشبثهم فى ولادة عيسى بلا أب . وعلم عزيْر بالتوراة بلا تعلم . وتقرير الحجة : إن الله سبحانه مبدع الأشياء كلها . فلا يبعد أن يوجد أحداً بلا أب، أو يعلم بلا واسطة بشر . وقال الراغب : ذكر تعالى فى هذه الآية حجة رابعة. شرحها : إن الأب هو عنصر للابن . منه تـكوّن . والله مبدع الأشياء كلها ، فلا يكون عنصراً للولد ، فمن المحال أن يكون المنفعل فاعلاً . وقوله تعالى : « وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى إذا أراد أمراً . والقضاء إنفاذ المقدّر . والمقدر ما حدّ من مطلق المعلوم . قال الراغب : القضاء إتمام الشىء قولًا أوفعلاً ، فمن القول آية « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »(١)

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ =

« وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ »(١) ومن الفعل قوله « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ »(٢) وقضى فلان دينه، وقضى نحبه، وانقضى الأمر . (ثم قال) ونبه بقوله « وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا » على حجة خامسة وهو أن الولد يكون بنشوء وتركيب . حالًا بعد حال . وهو إذا أراد شيئاً ، فقد فعل بلا مهلة . ولم يرد بـ « إذا » حقيقة الزمان ، إذ كان ذلك إشارة إلى ما قبل وجود الزمان . ولم يرد أيضا بـ « كن » حقيقة اللفظ ، ولا بالفاء التعقيب الزمانى . بل استعير كل ذلك لأنه أقرب ما يتراءى لنا به سرعة الفعل وتمامه . وذكر لفظ القضاء إذ هو لإتمام الفعل ، والأمر لكونه منطوياً على اللفظ والفعل ، والقول إذ هو أخف موجد منا وأسرعه إيجادا، ولفظ « كُنْ » لعموم معناه واختصار لفظه ، ثم قال« فَيَكُونُ » تنبيهاً لأنه لا يمتنع عليه شيء يريد إيجاده ، و « كُنْ فَيَكُونُ » وإن كان مخرجها مخرج شيئين ، أحدهما مبنى على الآخر، فهو فى الحقيقة شيء واحد . انتهى .

والذين ذهبوا إلى أن المراد بـ « كُنْ » حقيقة اللفظ ، ورد عليهم سؤال مشهور . وهو : إن « كُنْ» لفظ أمر ، والأمر لا يكون إلا لموجود . فبعضٌ أجاب بأنه أمر للشيء فى حال تكونه لا قبله ولا بعده . وبعضٌ قال : هو أمر لمعلوم له ، وذلك فى حكم الموجود وإن كان معدوم الذات . وبعضٌ قال : هو أمر للمعدوم . قال ويصح أمر المعدوم كما يصح أمر الموجود . ولهم أجوبة أخرى أكثر تكلفاً وتمحلا .

= وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(١) [١٧/ الإسراء/ ٤] ونصها : وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

وقد سئل شيخ الإسلام تقيّ الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذا بأنه إن كان المخاطب بـ « كُنْ » موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال . وإن كان معدوماً ، فكيف يتصور خطاب المعدوم ؟ فأجاب بقوله : هذه المسأله مبنية على أصلين : أحدهما الفرق بين خطاب التكوين الذى لا يطلب به سبحانه فعلا من المخاطب ، بل هو الذى يكوّن المخاطب به ، ويخلقه بدون فعل من المخاطب ، أو قدرة أو إرادة أو وجود له . وبين خطاب التكليف الذى يطلب به من المأمور فعلاً أو تركاً يفعله بقدرة وإرادة . وإن كان ذلك جميعه بحول الله وقوته . إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وهذا الخطاب قد تنازع فيه الناس . هل يصح أن يخاطب به المعدوم بشرط وجوده أم لا يصح أن يخاطب به إلا بعد وجوده ؟ لا نزاع بينهم أنه لا يتعلق به حكم الخطاب إلا بعد وجوده . وكذلك تنازعوا فى الأول هل هو خطاب حقيقيّ ؟ أم هو عبارة عن الاقتدار وسرعة التكوين بالقدرة ؟ . والأول هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة . والأصل الثانى أن المعدوم فى حال عدمه ، هل هو شىء أم لا ؟ فإنه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة والشيعة إلى أنه شىء فى الخارج وذات وعيْن ، وزعموا أن الماهيات غير مجعولة ولا مخلوقة ، وأن وجودها زائد على حقيقتها . وكذلك ذهب إلى هذا طوائف من المتفلسفة والاتحادية وغيرهم من الملاحدة . والذى عليه جماهير الناس ، وهو قول متكلمة أهل الإثبات والمنتسبين إلى السنة والجماعة ؛ إنه فى الخارج عن الذهن قبل وجوده ليس بشىء أصلاً ولا ذات ولا عين . وإنه ليس فى الخارج شيئان أحدهما حقيقة ، والآخر وجوده الزائد على حقيقته . فإن الله أبدع الذوات التى هى الماهيات . فكل ما سواه سبحانه مخلوق ومجعول ومبدَع ومبدوء له سبحانه وتعالى . لكن فى هؤلاء من يقول : المعدوم ليس بشىء أصلاً ، وإن سمى شيئاً باعتبار ثبوته فى العلم ، كان مجازاً . ومنهم من يقول: لا ريب أن له ثبوتا فى العلم ووجودا فيه ، فهو باعتبار هذا الثبوت والوجود هو شىء وذات . وهؤلاء لا يفرقون بين الوجود والثبوت . كما فرق من قال : المعدوم شىء . ولا يفرقون فى كون المعدوم ليس بشىء بين الممكن والممتنع ، كما فرق أولئك . إذ قد

اتفقوا على أن الممتنع ليس بشيء وإنما النزاع فى الممكن . وعمدة مَنْ جعله شيئاً ، إنما هو لأنه ثابت فى العلم، وباعتبار ذلك صح أن يخص بالقصد والخلق والخبر عنه والأمر به والنهى عنه ، وغير ذلك . قالوا : وهذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم المحض. فإن خُصّ الفرق بين الوجود الذى هو الثبوت العينىّ ، وبين الوجود الذى هو الثبوت العلمىّ، زالت الشبهة فى هذا الباب .

وقوله تعالى « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[١] ذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه وقبل توجيه هذا الخطاب إليه . وبذلك كان مقدرا مقضيا . فإن الله سبحانه وتعالى يقول ويكتب مما يعلمه ماشاء . كما قال النبىّ ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه[٢] عن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء . وفى صحيح البخارىّ[٣] عن عمران

(١) [١٦ / النحل / ٤٠] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب ماجاء فى قول الله تعالى: وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده. ونصه : عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : دخلت على النبىّ ﷺ . وعقلت ناقتى بالباب . فأتاه ناس من بنى تميم . فقال « اقبلوا البشرى يابنى تميم » قالوا : قد بشرتنا فأعطنا . مرتين . ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن . فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم » فقالوا : قد قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر ؟ قال « كان الله ولم يكن شيء غيره . وكان عرشه على الماء . وكتب فى الذكر كل شيء . وخلق السموات والأرض » .

فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين . فانطلقتُ فإذا هى يقطع دونها السراب . فوالله ! لوددت أنى كنت تركتها .

opelkandi.com

ابن حصين عن النبيّ ﷺ أنه قال : كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض. وفي سنن أبي داود[١] وغيره عن النبيّ ﷺ أنه قال : إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب قال : ربّ ، وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. إلى أمثال ذلك من النصوص التي تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوماً مخبَراً عنه ، مكتوبا. فهو شيء باعتبار وجوده العلميّ الكلاميّ الكتابيّ ، وإن كانت حقيقته التي هي وجوده العينيّ ليس ثابتاً في الخارج. بل هو عدم محض ونفيٌ صرف . وهذه المراتب الأربعة المشهورة موجودات . وقد ذكرها الله سبحانه في أول سورة أنزلها على نبيّه في قوله « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ »[٢] وقد بسطنا الكلام في ذلك في غير هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان الخطاب موجهاً إلى من توجهت إليه الإرادة ، وتعلقت به القدرة ، وخلق وكوّن كما قال « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[٣] فالذي يقال له « كُنْ » هو الذي يراد ، وهو ، حين يراد قبل أن يخلق ، له ثبوت وتميز في العلم والتقدير . ولولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره ، وبهذا يحصل الجواب عن التقسيم . فإن قول السائل: إن كان المخاطب موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال . يقال له هذا إذا كان موجودا في الخارج وجودَه الذي هو وجوده . ولا ريب أن المعدوم ليس موجوداً ، ولا هو في نفسه ثابت . وأما ماعلم وأريد وكان شيئاً في العلم والإرادة والتقدير فليس وجوده في الخارج محالاً ، بل

(١) أخرجه أبو داود في سننه في : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٦ ـ باب في القدر ، حديث ٤٧٠٠

(٢) [٩٦ / العلق / ١ـ٤] .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٠] .

جميع المخلوقات لاتوجد إلا بعد وجودها فى العلم والإرادة . وقول السائل: إن كان معدوماً فكيف يتصور خطاب المعدوم ؟ يقال له : أما إذا قصد أن يخاطب المعدوم بخطاب يفهمه ويمتثله فهذا محال ، إذ من شرط المخاطَب أن يتمكن من الفهم والفعل . والمعدوم لايتصور أن يفهم ويفعل . فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه بمعنى أنه مطلوب منه حين عدمه أن يفهم ويفعل ، ولذلك أيضا يمتنع أن يخاطب المعدوم فى الخارج خطاب تكوين. بمعنى أن يعتقد أنه شىء ثابت فى الخارج وأنه يخاطب بأن يكون . وأما الشىء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه مثل توجيه الإرادة إليه ، فليس ذلك محالا. بل هو أمر ممكن. بل مثل ذلك يجده الإنسان فى نفسه ؛ فيقدر أمراً فى نفسه يريد أن يفعله ويوجه إرادته وطلبه إلى ذلك المراد المطلوب ، الذى قدره فى نفسه ، ويكون حصول المراد المطلوب بحسب قدرته . فإن كان قادراً على حصوله حصل مع الإرادة والطلب الجازم . وإن كان عاجزاً ، لم يحصل . وقد يقول الإنسان : ليكن كذا ونحو ذلك من صيغ الطلب . فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه . والله سبحانه على كل شىء قدير . وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » من المشركين أو من أهل الكتاب وهو الأظهر. لأن ما تقدم ، كلّه فى حوارهم وردّ أضاليلهم . ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به « لَوْلَا

يُكَلِّمُنَا اللَّهُ » هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى ؟ استكباراً منهم وعتوا « أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ » جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله ، آيات ، واستهانة بها « كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ » أى هذا الباطل الشنيع فقالوا : أرنا الله جهرة . وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ بأنه كما تعنّت عليه تعنّت على من قبله « تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ » أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى العمى والعناد والتحكم على الأنبياء « قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى بالحق . لاتعتريهم شبهة ولا ريبة . وهذا رد لطلبهم الآية وفى تعريف الآيات وجمعها وإيراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح ، مكان الإتيان الذى طلبوه ، ما لايخفى من الجزالة. والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ، ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين . وإنما لم يتعرض لرد قولهم « لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ » إيذانا بأنه من ظهور البطلان بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً » بالثواب للمؤمنين « وَنَذِيراً » بالعقاب للكافرين « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ » ولا نسألك عنهم : ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهدك فى دعوتهم؟ كقوله « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ »(١) وفى التعبير عنهم بصاحبية الجحيم ، دون الكفر والتكذيب ونحوها ، وعيد شديد لهم ، وإيذان بأنهم مطبوع على قلوبهم ، لا يرجى منهم الإيمان . والجحيم ، من أسماء النار وتطلق على النار الشديدة التأجج ، وعلى كل نار بعضها فوق بعض، وعلى كل نار عظيمة فى مهواة ، وعلى المكان الشديد الحر .

---

(١) [١٣/ الرعد/ ٤٠] ونصها: وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

« وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ » أى لأنهم يريدون أن يكونوا متبوعين على الإطلاق . وفيه مبالغة في الإقناط من إسلامهم ، وتنبيه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه، عليه السلام «قُلْ» لا يتبع رسولٌ إلا الهدى و« إِنَّ هُدَى اللَّهِ » أى الذى هو الإسلام « هُوَ الْهُدَىٰ » أى فليس وراءه هدى . وما تدعون إليه ليس بهدى ، بل هو هوى . كما يعرب عنه قوله « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ » أى آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم « بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » بأن دين الله هو الإسلام ، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة « مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ » يلى أمرك « وَلَا نَصِيرٍ » يدفع عنك عقابه . وإنما أوثر خطابه ﷺ ليدخل دخولا أوليًا مَن اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكا بولايتهم، طمعا في نصرتهم.

قال الإمام الرازيّ : في الآية دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلا . فمن هذا الوجه تدل على بطلان التقليد. انتهى .

وفي فتح البيان ما نصه : وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة ، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه ، والقائمين ببيان شرائعه ـ ترك الدهان لتاركي العمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأى عليهما. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » لما ذكر تعالى ، فيما تقدم ، عدم رضاء اليهود والنصارى إلّا باتباع ملتهم ، لدعواهم أنهم على حق وأنهم مؤمنون بما لديهم ـ فند تعالى دعواهم الإيمانَ به بأن من أوتى الكتاب فتلاه حق تلاوته فذاك المؤمن به . والمذكورون ممن لم يتله حق تلاوته ، لِمَا عدّد من مساوىء اليهود أولًا ، وشَفَعَهُ بدعوى النصارى اتّخاذ الولد . ومن كان يعتقد ذلك فأنّى له الإيمان ؟ وهل هو ممن يتلو الكتاب حق تلاوته ؟ وكتابه يأمر بتوحيد ربه والمشى مع شريعته وتصديق كل نبيّ يصدق مامعهم ، وقد كفروا بكل ذلك . فجملة « يتلونه » حال مقدرة من « هم » أو من « الكتاب » . وجوِّز أن تكون الآية سيقت مدحاً لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن . فالضمير فى « يتلونه » للقرآن . فتكون كآية « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »(١) وكآية « قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا »(٢) .

ومن تلاوته حق تلاوته الإيمانُ بأنه حق من ربهم ، وصبرُهم ودرؤهم بالحسنة السيئة ، وإنفاقهم وسجودُهم له تعالى : فالآيتان مفسرتان لتلاوتهم حق تلاوته .

(١) [٢٨ / القصص / ٥٢ـ٥٤] .
(٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٧] .

وعن ابن مسعود : والذى نفسى بيده ! إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله . ومثله عن ابن عباس .

وقوله تعالى « أُولٰئِكَ » إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه « يُؤْمِنُونَ بِهِ » محط الفائدة مايلزم الإيمان به من الربح. بقرينة قوله « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » حيث اشتروا الضلالة بالهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

[١٢٣] (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا » أى خافوا « يَوْماً لَاتَجْزِي » أى لا تغنى « نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ » فيه « شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ » أى فداء « وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » أى يمنعون من عذاب الله . وقد مر نظير الآيتين فى صدر السورة .

قال القاضى : ولما صدّر قصتهم بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها، والحذر عن إضاعتها والخوف من الساعة وأهوالها ـ كرر ذلك وختم به الكلام معهم ، مبالغةً فى النصح وإيذانا بأنه فذلكة القضية والمقصود من القصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

« وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » لما عاب سبحانه أهل الضلال، وكان جلهم من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وجميع طوائف الملل تعظمه ومنهم العرب ، وبيته الذى بناه أكبر مفاخرهم وأعظم مآثرهم ـ ذكّر الجميع ما أنعم به عليه تذكيرا يؤدى إلى ثبوت هذا الدين باطلاع هذا النبيّ الأميّ، الذى لم يخالط عالماً قط، على مالا يعلمه إلا خواص العلماء . وذكر البيت الذى بناه فجعله عماد صلاحهم، وأمر بأن يتخذ بعض ماهنالك مصلّى، تعظيما لأمره وتفخيما لعليّ قدره . وفى التذكير بوفائه بعد ذكر الذين وفوا بحق التلاوة ، وبعد دعوة بنى إسرائيل عامة إلى الوفاء بالشكر ـ حثّ على الاقتداء به . وكذا فى ذكر الإسلام والتوحيد، هزّ لجميع من يعظمه إلى اتباعه فى ذلك . ذكره البقاعيّ .

و « إذ » منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبيّ ﷺ بطريق التلوين. أى واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ، ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد ، الوازعة عن الشرك ، فيقبلوا الحق ويتركوا ماهم فيه من الباطل . ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على «اذكروا» خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى، عمن ينتمون إلى ملته من إبراهيم وبنيه عليهم السلام ، من الأفعال والأقوال ، فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم . أى واذكروا إذ ابتلى أباكم إبراهيم، فأتم ما ابتلاه به. فمالكم أنتم لاتقتدون به فتفعلوا عند الابتلاء فعله، فى إيفاء العهد والثبات على الوعد ، لأجازيكم على ذلك جزاء المحسنين ؟ والابتلاء ، فى الأصل ، الاختبار . أى تطلّب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه، غالبا، فعله أو تركه . والاختبار مِنّا لظهور مالم نعلم. ومن الله لإظهار ماقد علم . وعاقبة الابتلاء ظهور الأمر الخفيّ فى الشاهد والغائب جميعا ، فلذا تجوز إضافته إلى الله تعالى. وقوله تعالى « بِكَلِمَاتٍ » أى بشرائع : أوامر ونواه . وللمفسرين أقاويل فيها وفى

تمدادها . قال ابن جرير : ولا يجوز الجزم بشيء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين ، إلا بحديث أو إجماع . قال : ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له . انتهى .

وعندى أن الأقرب فى معنى الكلمات هو ابتلاؤه بالإسلام ، فأسلم لرب العالمين . وابتلاؤه بالهجرة ، فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرا إلى الله . وابتلاؤه بالنار فصبر عليها . ثم ابتلاؤه بالختان فصبر عليه . ثم ابتلاؤه بذبح ابنه فسلم واحتسب . كما يؤخذ ذلك من تتبع سيرته فى التنزيل العزيز وسفر التكوين من التوراة . ففيهما بيان ماذكرنا فى شأنه عليه الصلاة والسلام . من قيامه بتلك الكلمات حق القيام، وتوفيتهن أحسن الوفاء . وهذا معنى قوله تعالى « فَأَتَمَّهُنَّ » كقوله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ »(١) والإتمام التوفية .

« قَالَ » جملة مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأ من الكلام . فكأنه قيل : فما جوزى على شكره ؟ قيل : قال له ربه « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » أى قدوة لمن بعدك. والإمام اسم لمن يؤتم به . ولم يبعث بعده نبىّ إلا كان مأمورا باتباع ملته ، وكان من ذريته. كما قال تعالى « وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »(٢) « قَالَ » أى إبراهيم « وَمِنْ ذُرِّيَّتِى » أى واجعل من ذريتى أئمة « قَالَ لَا يَنَالُ » أى قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك . لكن لاينال « عَهْدِى » أى الذى عهدته إليك بالإمامة «الظَّالِمِينَ» أى منهم . لأنهم نفوا أنفسهم عنك فى أبوة الدين . ففى قوله « لَا يَنَالُ...الخ » إجابة خفية لدعوته عليه السلام. وَعِدَةٌ إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته بنيل عهد الإمامة . كما قال تعالى « وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »(٢) وفى ذلك أتم ترغيب فى التخلق بوفائه ،

---

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

obeikandi.com

لاسيما للذين دعوا قبلها إلى الوفاء بالعهد . وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته ، وإن ظلموا لم تفلهم دعوته ، فضربت عليهم الذلة وما معها، ولا يجزى أحد عنهم شيئاً ولا هم ينصرون . وقرئ «الظالمون» على أن «عهدى» مفعول مقدم اهتماما ورعاية للفواصل.

وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الظالم ليس بأهل للإمامة . والكشاف أوسع المقال ، فى ذلك ، هنا ، وأبدع فى إيراد الشواهد . كما أن الشيعة استدلت بها على صحة قولهم فى وجوب العصمة فى الأئمة ، ظاهراً وباطناً . على ما نقله الرازىّ عنهم وحاورهم .

أقول : إن استدلال الفرقتين على مدعاهما وقوف مع عموم اللفظ . إلا أن الآية الكريمة بمعزل عن إرادة خلافة السلطنة والملك .

المراد بالعهد ، تلك الإمامة المسؤول عنها . وهل كانت إلا الإمامة فى الدين وهى النبوّة التى حرمها الظالمون من ذريته ؟ كما قال تعالى « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » ولو دلت الآية على ما ادّعوا لخالفه الواقع . . . فقد نال الإمامة الدنيوية كثير من الظالمين . فظهر أن المراد من العهد إنما هو الإمامة فى الدين خاصّة. والاحتجاج بها على عدم صلاحية الظالم للولاية تمحل . لأنه اعتبار لعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق ؛ أو ذهابٌ إلى أن الخبر فى معنى الأمر بعدم تولية الظالم . كما قاله بعضهم. وهو أشد تمحلا . ومعلوم أن الإمام لابد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع، كما ورد . ومتى زاغ عن ذلك كان ظالمًا ، والبحث فى ذلك له غير هذا المقام. وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ » أى الذى بناه إبراهيم بأم القرى. وهو اسم غالب للكعبة . كالنجم

للثريا « مَثَابَةً لِلنَّاسِ » مباءة ومرجعًا للحجاج والعمّار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه . ومثابة مفعلة. من «الثوب» وهو الرجوع ترامياً إليه بالكلية . وسر هذا التفضيل ظاهر فى انجذاب الأفئدة وهوَى القلوب وانعطافها ومحبتها له . فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد. فهو الأولى بقول القائل :

محاسنه هيولى كل حسن ... ومغناطيس أفئدة الرجال

فهم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار . ولا يقضون منه وطرا . بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقًا .

لايرجع الطرف عنها حين يبصرها ... حتى يعود إليهـا الطرف مشتاقاً

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح ! وكم أنفق فى حبها من الأموال والأرواح ! ورضى المحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطب والمشاق ، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه !

ذكر هذه الشذرة (الإمام ابن القيم فى أوائل زاد المعاد) .

« وَأَمْنًا » موضع أمن . كقوله « حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ »(١) وكقوله « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا »(٢) وقد كانوا فى الجاهلية يتخطف النـاس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَوْن . وكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له . وفى هـذا بيان شرف البيت من كونه محلا تشتاق إليه الأرواح ولا تقضى منه وطرا ، ولو ترددت إليه كل

(١) [٢٩/ العنكبوت/ ٦٧] ونصها : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله فى قوله « فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ »(١) إلى أن قال « رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ »(٢) ومن كونه مأمناً لمن دخله . كما بيّنّا .

وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال(٣) يوم فتح مكة : «إن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض. وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى . ولم يحل لى إلا ساعة من نهار » الحديث . وقوله تعالى « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » قرئ بكسر الخاء ، أمراً معترضاً بين الجملتين الخبريّتين . أو بتقدير : وقلنا اتخذوا . وقرئ بفتح الخاء ماضياً معطوفاً على جملنا . أى واتخذوه مصلى ، ومقام إبراهيم هو الحرم كله . عن مجاهد . وعنه : هو جمع ومزدلفة ومنى ومكة . ويقال : هو مقامه الذى هو فى المسجد الحرام . فقد قال قتادة : إنما أمروا أن يصلّوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . ولقد تكلفت الأمم شيئاً مما تكلفته الأمم قبلها .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٧] ونصها : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٤٠]

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ١٠ ـ باب لا يحل القتال بمكة ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبىّ ﷺ ، يوم افتتح مكة « لا هجرة . ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرتم فانفروا . فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى. ولم يحل لى إلا ساعة من نهار . فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . لا يُعضد شوكُه، ولا ينفّر صيده ، ولا يلتقط لُقطَتَهُ إلا من عرّفها . ولا يختلى خلاها » .

قال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر فإنه لقَينهم ولبيوتهم . قال « إلا الإذخر » .

قال الراغب الأصفهانىّ : والأولى أنه الحرم كله . فما من موضع ذكروه إلا وهو مصلى أو مدّعى أو موضع صلاة .

أقول : كأنّ الأصل فى الآية : وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ومصلى . إلا أنه عدل إلى هذا الأسلوب الحكيم دون ذاك ، ودون أن يقال مثلا : واتخذوا منه مصلى ـ لوجوه : (أحدها) التنويه بأمر الصلاة فيه والتعظيم لشأنها حيث أفرد، للعناية بها، جملة على حدة . (وثانيها) التذكير بأنه مقام الأب الأكبر للأنبياء كافة. وما كان مقامه لجدير أن يحترم ويعظم. (وثالثها) التنصيص على أن هذا الاتخاذ بأمر ربانىّ لا بتشريع بشر ، تمهيداً للأمر باستقباله، وإلزاماً لمن جادل فيه، وهم اليهود . وقد روى الشيخان وغيرهما أن عمر رضى الله عنه قال[1] : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» قال ابن كثير: ومقام إبراهيم هو الحجر الذى يصلى عنده الأئمة . وذلك الحجر هو الذى قام إبراهيم عليه عند بناء البيت ، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار . وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها . وهكذا حتى تم جدران الكعبة. كما جاء بيانه فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخارىّ[2] .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٣٢ ـ باب ماجاء فى القبلة . ونصه :
عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث : فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى . فنزلت : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وآية الحجاب ، قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر والفاجر . فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبىّ ﷺ فى الغيرة عليه ، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن . فنزلت هذه الآية .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٩ ـ باب يزفون .
وهو حديث طويل عن ابن عباس يبتدئ فيه بذكر أن أول ما اتخذ النساء المنطق =

قال ابن كثير : وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديما . ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك ، وكأن الخليل عليه السلام ، لما فرغ من بناء البيت ، وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء ، فتركه هناك . ولهذا ، والله أعلم ، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف . وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه . كما فعل رسول الله ﷺ . فإنه لما قدم مكة طاف بالبيت سبعاً ، وجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين .

قال ابن كثير : وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر رضى الله عنه . ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة . وقد روى البيهقىّ بسنده إلى عائشة رضى الله عنها قالت : إن المقام كان فى زمان رسول الله ﷺ وزمان أبى بكر رضى الله عنه ملتصقاً بالبيت. ثم أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقال سفيان بن عيينة ، وهو إمام المكيين فى زمانه : كان المقام من سُقع[1] البيت على عهد رسول الله ﷺ ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبىّ ﷺ . قال : ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فردّه عمر إليه . وقال سفيان : لا أدرى كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله. وقال أيضا : لا أدرى أكان لاصقاً بها أم لا . وأثر عائشة المتقدم يدل على أنه كان لاصقاً بها . والله أعلم . وقال الحافظ الشيخ عمر بن الحافظ التقىّ محمد بن فهد المكىّ الهاشمىّ ، فى كتاب « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » فى حوادث سنة سبع عشرة : فيها جاء سيل عظيم يعرف بسيل أم نهشل من أعلى مكة من طريق الردم . فدخل المسجد الحرام واقتلع مقام

= من قِبَل أم إسماعيل. ثم مجىء إبراهيم بها وبابنها إسماعيل وهى ترضعه إلى مكة ، وبحث الملك بعقبه عند موضع زمزم حتى ظهر الماء . ومرت بهم رفقة من جرهم فنزلوا فى أسفل مكة. ثم شبّ الغلام وتعلّم العربية ، ثم تزوج منهم . ثم مطالعة إبراهيم تركته ، فى غيبة إسماعيل ، مرتين . ثم رفعهما القواعد من البيت . الخ . وهو حديث جليل جدا .

(١) السقع ، بالضم : ناحية من الأرض والبيت .

إبراهيم من موضعه ، وذهب به حتى وجد بأسفل مكة . وعيّن مكانه الذى كان فيه لما عفاه السيل . فأتى به وربط بلصق الكعبة فى وجهها. وذهب السيل بأم نهشل بنت عبيدة بن سعد ابن العاص بن أمية. فماتت فيه واستخرجت بأسفل مكة ، وكان سيلا هائلاً . فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو بالمدينة الشريفة . فهاله ذلك . وركب فزعا إلى مكة . فدخلها بعمرة فى شهر رمضان . فلما وصل إلى مكة وقف على حجر المقام وهو ملصق بالبيت الشريف . ثم قال : أنشد الله عبدا عنده علم فى هذا المقام . فقال المطلب ابن أبى وداعة السهمىّ رضى الله عنه : أنا يا أمير المؤمنين عندى علم ذلك . فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر ، فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر . ومن موضعه إلى زمزم بمِقاط[1]. وهى عندى فى البيت . فقال له عمر : اجلس عندى وأرسلْ إليها من يأتى بها. فجلس عنده وأرسل إليها فأتى بها . فقيس ، ووضع حجر المقام فى هذا المحل الذى هو فيه الآن . وأحكم ذلك واستمر إلى الآن . انتهى « وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ » أى أمرناهما . وتعديته بـ « إلى » لأنه فى معنى: تقدمنا وأوحينا « أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ » أى عن كل رجس حسىّ ومعنوىّ : فلا يفعل بحضرته شىء لا يليق فى الشرع . أو ابنياه على طهر من الشرك بى . كما قال تعالى « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »[2] أو أخلصاه للطائفين وما بعده، لئلا يغشاه غيرهم . فاللام صلة « طهرا » على هذا . وعلى ما قبله ، لام العلة . أى طهراه لأجلهم . وقوله تعالى « لِلطَّائِفِينَ » أى حوله . وعن سعيد بن جبير : يعنى من أتاه من غربة « وَالْعَاكِفِينَ » يعنى أهله المقيمين فيه أو المعتكفين . كما روى ابن أبى حاتم بسنده إلى ثابت قال : قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير : ما أرانى إلا مكلّم الأمير : أنِ امْنَع الذين ينامون فى المسجد الحرام . فإنهم يُجنبون ويُحدثون . قال : لا تفعل فإن ابن عمر سئل

(١) المِقَاط : الحَبْل الصغير الشديد الفتل ، يكاد يقوم من شدة فتله . وجمعه مُقُط .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢٦] .

عنهم فقال : هم العاكفون . ورواه عبد بن حُمَيْد فى مسنده . وقد ثبت فى الصحيح[١] أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول ﷺ وهو عزب .

وفى الكشاف : يجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين . يعنى القائمين فى الصلاة . كما قال للطائفين والقائمين « والرُّكَّعِ السُّجُودِ » جمع راكع وساجد والمعنى للطائفين والمصلين . لأن القيام والركوع والسجود هيآت المصلى . ولتقارب الأخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما . وجمع صفتين جمع سلامة ، وأخريين جمع تكسير لأجل المقابلة . وهو نوع من الفصاحة . وأخر صيغة «فُعُول» على « فُعَّل » لأنها فاصلة. والمراد من الآية الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له . ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » فى ذلك تبكيت لهم وتنبيه على توبيخهم بترك دينه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا » أى الموضع الذى جعلت فيه بيتك وأمرتنى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٣٥ ـ باب الأمن وذهاب الروع فى المنام .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢٥] .

بأن أسكنته من ذريتي « بَلَداً » أي يأنس من يحل به « ءَامِناً » أي من الخوف . أي لا يُرْعَبُ أهله . وقد أجاب الله دعاءه. كقوله تعالى « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً »[1] وقوله « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ »[2] إلى غير ذلك من الآيات . وصحت أحاديث متعددة بتحريم القتال فيه . وفي صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول[3] : « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح » فهو آمن من الآفات ، لم يصل إليه جبار إلا قصمه الله . كما فعل بأصحاب الفيل . وقوله تعالى في سورة إبراهيم « هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً »[4] بتعريف البلد مع جعله صفة لهذا ، خلاف ماهنا ، إمّا أن يحمل على تعدد السؤال بأن تكون الدعوة الأولى المذكورة هنا ، وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدا . كأنه قال : اجعل هذا الوادي بلداً آمنا . لأنه تعالى حكى عنه أنه قال « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ »[5] فقال ، ههنا ، اجعل هذا الوادي بلدا آمنا . والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدا . فكأنه قال : اجعل هذا

---

(١) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧]

(٣) أخرجه مسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٩ (طبعتنا) .

(٤) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٣٧] ونصها : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

obeikandl.com

المكان الذى صيرته بلدا ذا أمن وسلامة. وإمّا أن يحمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر . فالظاهر أن المسؤول كلا الأمرين . وقد حكى ذلك هنا . واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن، اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال اجعل أفئدة الناس تهوى إليه ، هذا خلاصة ما حققوه .

وعندى أن السؤال والمسؤول واحد . إلا أنه تفنن فى الموضعين. فحذف من كلٍّ ماأثبته فى الآخر احتباكا . والأصل: رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا . وبه تتطابق الدعوتان على أبدع وجه وأخلصه من التكلف . على ما فيه من إفادة المبالغة . أى بلدًا كاملًا فى الأمن : كأنه قيل: اجعله بلدًا معلوم الاتصاف بالأمن مشهورا به كقولك : كان هذا اليوم يوما حارًا . وفى القاموس وشرحه التاج : البلد والبلدة علم على مكة، شرفها الله تعالى، تفخيماً لها . كالنجم للثريا . وكل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو غامرة خالية أو مسكونة . وفى النهاية : البلد من الأرض ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء . «وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ» إنما سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك، لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمر ، فاستجاب الله تعالى له ، فصارت يجبى إليها ثمرات كل شىء « مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » بدل « من أهله » ، بدل البعض ، يعنى : ارزق المؤمنين من أهله خاصة . وإنما خصّهم بالدعاء إظهارًا لشرف الإيمان ، واهتمامًا بشأن أهله ، ومراعاة لحسن الأدب فى المسألة . حيث ميّز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين ، فى باب الإمامة ، فى قوله « لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » بعد أن سأل، عليه السلام، جَعْلَهَا فى ذريته ، فلا جرم خصص المؤمنين بهذا الدعاء، وفيه ترغيب لقومه فى الإيمان ، وزجر عن الكفر « قَالَ » الله تعالى مُعْلما أن شمول الرحمانية بأمن الدنيا ورزقها لجميع عمرة الأرض « وَمَنْ كَفَرَ » أى أنيله أيضاً ما الهمتك من الدعاء بالأمن والرزق ، فهو عطف على مفعول فعل محذوف ، دلّ الكلام عليه . ويجوز أن تكون « مَنْ » مبتدأ موصولة أو شرطية . وقوله « فَأُمَتِّعُهُ » خبره أو جوابه . وعبر عن رزقه

بالمتعة التى هى الزاد القليل والبلغة، تخسيساً له ، وأكد ذلك بقوله « قَلِيلًا » تمتيعًا قليلًا ، أو زمانًا قليلًا « ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ » أى ألجئه إليه كما قال تعالى « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا »(١) و « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ »(٢) وقرئ فأمتعه قليلًا ثم اضطره ، بلفظ الأمر فيهما على أنهما من دعاء إبراهيم عليه السلام ، وفى « قال » ضميره « وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » النار أو عذابها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ » أى اذكر بناءهما البيت ورفعهما القواعدمنه . وصيغةالاستقبال لحكاية الحال الماضية ، لاستحضار صورتها العجيبة. والقواعد : جمع قاعدة ، وهى الأساس والأصل لما فوقه ، وقال الزجاج : القواعد : أساطين البناء التى تعمده « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا » على إرادة القول أى يقولان ، وترك مفعول « تقبل » ليعم الدعاء وغيره من القُرَبِ والطاعات ، التى من جملتها ما هما بصدده من البناء . كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية حالية « إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ » لدعائنا « الْعَلِيمُ » بضمائرنا ونياتنا . وفى صحيح البخارى(٣) عن ابن عباس فى حديث مجىء إبراهيم لتفقد إسماعيل عليهما السلام، ثم قال : يا إسماعيل ! إن الله قد أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟

---

(١) [٥٢ / الطور / ١٣] .

(٢) [٥٤ / القمر / ٤٨] ونصها : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٤٩ .

obeikandl.com

قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر ، فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ » مخلصين لك أوجهنا . من قوله : أسلم وجهه لله . أو مستسلمين ، يقال: أسلم له وسلم ، واستسلم ، إذا خضع وأذعن . والمعنى : زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك « وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا » واجعل من ذريتنا « أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ » و « من » للتبعيض ، أو للتبيين ، كقوله « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ »(١) وإنما خصّا الذرية بالدعاء ، لأنهم أحق بالشفقة ، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا» أى عرفنا متعبداتنا ، جمع منسك بفتح السين وكسرها ، وهو المتعبد ، وشرعة العبادة . يقع على المصدر والزمان والمكان ، من النسك مثلثة وبضمتين وهو العبادة والطاعة ، وكل ما تُقُرِّب به إلى الله تعالى . ومن المفسرين من حمل المناسك على مناسك الحج لشيوعها فى أعماله ومواضعه . فالإراءة حينئذ لتعريف تلك الأعمال والبقاع . وقد رويت آثار عن بعض الصحابة والتابعين تتضمن أن

(١) [٢٤/ النور/ ٥٥] ونصها: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

جبريل أرَى إبراهيمَ المناسك وأن الشيطان تعرض له ، فرماه عليه السلام . قالوا : وفى ذلك ظهور لشرف عمل الحج ، حيث كان متلقًّى عن الله بلا واسطة ، لكونه علماً على آتى يوم الدين ، حيث لا واسطة هناك بين الرب والعباد . والذى عول عليه أئمة اللغة ماذكرناه أولاً من حمل المناسك على ما يرجع إليه أصل هذه اللفظة من العبادة والتقرب إلى الله تعالى ، واللزوم لما يرضيه ، وجعل ذلك عامًّا لكل ما شرعه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام. أى علمنا كيف نعبدك وأين نعبدك ، وبماذا نتقرب إليك ، حتى نخدمك كما يخدم العبد مولاه ؟ « وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذا الدعاء استتابة لما فرط من التقصير . فإن العبد، وإن اجتهد فى طاعة ربه ، فإنه لا ينفك عن التقصير من بعض الوجوه ، إما على سبيل السهو والنسيان ، أو على سبيل ترك الأولى . فالدعاء منهما ، عليهما السلام، لأجل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » هذا إخبار عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، أى من ذرية إبراهيم ، وهم العرب من ولد إسماعيل . وقد أجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث فى ذريته رسولاً منهم ، وهو محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، إلى الناس كافة . وقد أخبر ﷺ عن نفسه أنه دعوة إبراهيم. ومراده هذه الدعوة . وذلك فيما خرجه الإمام أحمد[1] عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : إنى ، عند الله ، لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده . بالجزء الرابع بالصفحة رقم ١٢٧ (طبعة الحلبى) .

وسأنبئكم بأول ذلك : أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين. وأخرج أيضاً نحوه عن أبى أمامة(١) ، قال: قلت: يانبىّ الله ! ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام .

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره فى الناس إبراهيم عليه السلام ، ولم يزل ذكره فى الناس مشهورًا حتى أفصح باسمه عيسى ابن مريم ، عليهما السلام ، حيث قال « إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ »(٢) وهذا معنى قوله فى الحديث : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ابن مريم . وقوله فيه : ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منها قصور الشام . قيل : كان منها ما رأته حين حملت به ، وقصته على قومها ، فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة وإرهاصاً . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا يكون الشام فى آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم ـ إذا نزل بدمشق ـ بالمنارة الشرقية البيضاء منها . ولهذا جاء فى الصحيحين(٣) « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك » وفى صحيح البخارىّ « وهم بالشام »(٣) وقوله تعالى « يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ » هى إما الفرقان الذى أنزل على

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده . بالجزء الخامس بالصفحة رقم ٢٦٢ (طبعة الحلبىّ).

(٢) [٦١ / الصف / ٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(٣) يشير إلى حديث المغيرة بن شعبة . وهذه طرقه :

أخرج البخارىّ فى: ٦١ ـ كتاب المناقب، ٣ ـ باب حدثنى محمد بن المثنى عن المغيرة =

obeikandl.com

النبيّ ﷺ ، المتلوّ عليهم ، وإما الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته تعالى . ومعنى تلاوته إياها عليهم أنه كان يذكرهم بها ، ويدعوهم إليها ، ويحملهم على الإيمان بها . وقوله تعالى « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ » أي الكامل الشامل لكل كتاب وهو القرآن و« الْحِكْمَةَ » هي السنة ، فسرها بها كثيرون . وعن مالك : هي معرفة الدين ، والفقه فيه ، والاتباع له. وقوله تعالى « وَيُزَكِّيهِمْ » أي يطهرهم من الشرك ، وسائر الأرجاس ، كقوله « وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ »(١) .

= ابن شعبة عن النبيّ ﷺ قال « لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

ورواه في : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٠ ـ باب قول النبيّ ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ... الخ ونصه : عن المغيرة بن شعبة عن النبيّ ﷺ قال « لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

ورواه في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٩ ـ باب قول الله تعالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ .

ونصه : عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول « لا يزال من أمتي قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله » .

ورواه مسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٧١ . (طبعتنا)

ونصه : عن المغيرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس ، حتى يأتيهم أمر الله ، وهم ظاهرون » .

أما نص المؤلف فهو مطابق لنص حديث ثوبان الذي انفرد به مسلم وأخرجه في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة، حديث ١٧٠ . (طبعتنا)

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ =

ولما ذكر عليه السلام هذه الدعوات، ختمها بالثناء على الله تعالى فقال « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ، والعزيز ذو العزة وهي القوة ، والشدة ، والغلبة ، والرفعة . و « الحكيم » بمعنى الحاكم ، أو بمعنى الذي يحكم الأشياء ويتقنها ، وكلاهما من أوصافه تعالى .

قال الراغب : إن قيل ما وجه الترتيب في الآية ؟ قيل : أما الآيات فهي الآيات الدالة على معجز النبي ﷺ . وذكر التلاوة لما كان أعظم دلالة نبوته متعلقاً بالقرآن. وأما الترتيب، فلأن أول منزلة النبي ﷺ بعد ادعاء النبوة، الإتيان بالآيات الدالة على نبوته ، ثم بعده تعليمهم الكتاب ، أي تعريفهم حقائقه لا ألفاظه فقط ، ثم بتعليمهم الكتاب يوصلهم إلى إفادة الحكمة ، وهي أشرف منزلة العلم ، ولهذا قال « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا »(١) ثم بالتدرج في الحكمة يصير الإنسان مزكى أي مطهرًا مستصلحاً لمجاورة الله عز وجل . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » هذا إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم ، وهو ما جاء به محمد

= الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] ونصها : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ .

صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى ذلك تعريض بمعاندى أهل الكتاب والمشركين ، أى لا يرغب عن ملته الواضحة الغرّاء إلا من سفه نفسه ، أى حملها على السفه وهو الجهل .

قال الراغب : وسفه نفسه أبلغ من جهلها ، وذاك أن الجهل ضربان : جهل بسيط ، وهو أن لا يكون للإنسان اعتقاد فى الشىء . وجهل مركب وهو أن يعتقد فى الحق أنه باطل، وفى الباطل أنه حق . والسفه أن يعتقد ذلك ويتحرى بالفعل مقتضى ما اعتقده . فبيّن تعالى أن من رغب عن ملة إبراهيم ، فإن ذلك لِسَفَهِ نفسه ، وذلك أعظم مذمة ، فهو مبدأ كل نقيصة . وذاك أن من جهل نفسه ، جهل أنه مصنوع، وإذا جهل كونه مصنوعاً جهل صانعه ، وإذا لم يعلم أن له صانعاً، فكيف يعرف أمره ونهيه ، وما حسّنه وقبّحه ؟ ولكون معرفتها ذريعة إلى معرفة الخالق جل ثناؤه ، قال « وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[(١)] وقال « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ »[(٢)] .

وقوله تعالى « وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا » أى اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ، وتكثير الأنبياء من نسله ، وإعطاء الخلة ، وإظهار المناسك عليه ، وجعل بيته آمنا ، ذا آيات بينات إلى يوم القيامة . « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » الذين لهم الدرجات العلى، وفى هذا أكبر تفخيم لرتبة الصلاح ، حيث جعله من المتصفين بها ، فهو حقيق بالإمامة ، لعلو رتبته عند الله تعالى فى الدارين ، فنى ذلك أعظم ترغيب فى اتباع دينه ، والاهتداء بهديه . وأشدّ ذم لمن خالفه .

قال الراغب : إن قيل كيف وصفه بالاصطفاء فى الدنيا ، وبالصلاح فى الآخرة ، والنظر يقتضى عكس ذلك. فإن الصلاح وصف يرجع إلى الفعل، وذلك يكون فى الدنيا . والاصطفاء

(١) [٥١ / الذاريات / ٢١] .

(٢) [٥٩ / الحشر / ١٩] ونصها : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

حال يستحقه العبد بكونه صالحا ، فحقه أن يكون فى الآخرة ؟ قيـل : الاصطفاء ضربان ، أحدهما كما قلت ، والآخر فى الدنيـا ، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته بخصوصية فيه ، وهو المعنىّ بقوله « شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ »[١] ، والصلاح ، وإن اعتبر بأحوال الدنيا ، فمجازًى به فى الآخرة ، فبيّن تعالى أنه مجتبى فى الدنيا لما علم الله من حكمته فيه ، ومحكوم له فى الآخرة ، بصلاحه فى الدنيا ، تنبيهاً أن الثواب فى الآخرة لم يستحقه باصطفائه فى الدنيا ، وإنما استحقه بصلاحه فيها . ويجوز أن يكون قوله « فى الآخرة » أى فى أفعال الآخرة لمن الصالحين . ويجوز أنه عنى بقوله «فى الدنيا» حال بقائه، و «فى الآخرة» أى حال وفاته ، ويكون الإشارة بصلاحه إلى الثناء الحسن عليه ، الذى رغب إلى الله تعالى فيه بقوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »[٢] ويجوز أنه لما كان الناس ثلاثة أضرب : ظالم ، ومقتصد ، وسابق ، عبر عن السابق بالصالح ، فكل سابق إلى طاعة الله ورحمته صالح . انتهى .

وكل ذلك تذكير لأهل الكتاب بما عندهم من العلم بأمر هذا النبىّ الكريم ، وإقامة للحجة عليهم ، لأن أكثر ذلك معطوف على « اذكروا » فى قوله « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ »[٣] .

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢١] ونصها : شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٨٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٠] ونصها : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ .

و [٢ / البقرة / ٤٧] و [٢ / البقرة / ١٢٢] ونصهما : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

ولما ذكر إمامته عليه السلام ، ذكر ما يؤتم به فيه ، وهو سبب اصطفائه وصلاحه ، وذلك دينه ، وما أوصى به بنيه ، وما أوصى به بنوه بنيهم سلفاً عن خلف ، ولاسيما يعقوب عليه السلام المنوه بنسبة أهل الكتاب إليه فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

« إِذْ » أى اصطفيناه لأنه « قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ » أى لربك ، أى انقد له ، وأخلص نفسك له . أواستقم على الإسلام ، واثبت على التوحيد « قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وظاهر النظم الكريم أن القول حقيقىّ ، وليس فى ذلك مانع ، ولا ما جاء ما يوجب تأويله. وقول بعضهم : هو تمثيل ، والمعنى : أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلىالإسلام ـ ليس بشىء . ولا معنى لحمل شىء من الكلام على المجاز ، إذا أمكنت فيه الحقيقة بوجه ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

« وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ » شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره ، إثْرَ بيان كماله فى نفسه . والتوصية التقدم إلى الغير فى الشىء النافع المحمود عاقبته . والضمير فى « بها » إما عائد لقوله « أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » على تأويل الكلمة والجملة . ونحوه رجوع الضمير فىقوله « وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً »[١] إلى قوله « إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ »

(١) [٤٣/ الزخرف / ٢٨] ونصها : وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى »(١) وقوله « كلمة » دليل على أن التأنيث على تأويل الكلمة . وإما عائد إلى الملة فى قوله « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ » ، وأيد الأول بكون الموصى به مطابقاً فى اللفظ لأسلمت ، وقرب المعطوف عليه . ورجح القاضى الثانى لكون المرجع مذكوراً صريحاً . وردّ الإضمار إلى المصرح بذكره ، إذا أمكن ، أولى من رده إلى المدلول والمفهوم . ولكون الملة أجمع من تلك الكلمة . والكل حسن . وقوله تعالى « بَنِيهِ » تفيد صيغة الجمع أن لإبراهيم عليه السلام من الولد غير إسماعيل وإسحق. وقرأت فى سفر التكوين من التوراة(٢) أن إبراهيم عليه السلام تزوج ، بعد وفاة سارة أم إسحق ، امرأة أخرى اسمها قَطُورَةُ ، فولدت له : زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا ، فعلى هذا تكون بنوه عليه السلام ثمانية « وَيَعْقُوبُ » معطوف على إبراهيم ، ومفعوله محذوف تقديره : ووصى يعقوب بنيه . لأن يعقوب أوصى بنيه أيضا كما أوصى إبراهيم بنيه . ودليل ذلك قوله تعالى « إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى »(٣) كما سيأتى. وقرىء « ويعقوب » بالنصب عطفاً على بنيه ، ومعناه : ووصى بها إبراهيم بنيه ، ونافلته يعقوب . وقد ولد يعقوب فى حياة جده إبراهيم ، وأدرك من حياته خمس عشرة سنة ، كما يستفاد من سفر التكوين من التوراة ، فإن فيها أن إبراهيم عليه السلام ، ولد له اسحق ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٦ و٢٧] ونصهما : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح الخامس والعشرون ، ١ و٢ ونصهما : وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة . فولدت له زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا .

(٣) [٢ / البقرة / ١٣٣] ونصها : أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

وهو ابن مائة سنة[١] ، ومات وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة، وكان لإسحق، حين ولدله يعقوب وعيسو ، ستون سنة ، فاستفيد من ذلك ما ذكرناه . ولوجود يعقوب فى حياة جده يفهم سر ذكره فى قوله تعالى «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ»[٢] وفى آية أخرى « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً »[٣]. « يَا بَنِيَّ » أى قال كل من إبراهيم ويعقوب ، على القراءة الأولى . وعلى الثانية: قال إبراهيم: يا بَنِيَّ «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ» أعطاكم الدين الذى هو صفوة الأديان ، وهو دين الإسلام ، الذى لا دين غيره عند الله تعالى « فَلَا » أى فتسبب عن ذلك أنى أقول لكم: لا « تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » وفى هذه الجملة إيجاز بليغ. والمراد : الزموا الإسلام ، ولا تفارقوه حتى تموتوا . وهذا الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال، أى لا تموتوا على حالة إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام . فالنهى فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، لأنه هو المقدور . فلا يقال : صيغة النهى موضوعة لطلب الكف عما هو مدلولها ، فيكون المفهوم منه النهى عن الموت على خلاف حال الإسلام ، وذا ليس بمقصود ، لأنه غير مقدور . وإنما المقدور فيه هو الكون على خلاف حال الإسلام ، فيعود النهى إليه ، ويكون المقصود النهى عن الاتصاف بخلاف

(١) سفر التكوين ، الأصحاح الحادى والعشرون ، ٥

(٢) [٦ / الأنعام / ٨٤] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

و [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٧٢] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ .

حال الإسلام وقت الموت ، لما أن الامتناع عن الاتصاف بتلك الحال يتبع الامتناع عن الموت فى تلك الحال. فإما أن يقال : استعمل اللفظ الموضوع للأول فى الثانى ، فيكون مجازاً . أو يقال : استعمل اللفظ فى معناه لينتقل منه إلى ملزومه ، فيكون كناية .

قال الزمخشرىّ : ونظير ذلك قولك : لا تصلّ إلا وأنت خاشع ، فلا تنهاه عن الصلاة ، ولكن عن ترك الخشوع فى حال صلاته . والنكتة فى إدخال حرف النهى عما ليس بمنهىّ عنه ، هو إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام ، موت لا خير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم . كما تقول فى الأمر : مت وأنت شهيد . فليس مرادك الأمر بالموت ، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات . وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته ، وإظهاراً لفضلها على غيرها ، وإنها حقيقة بأن يُحَثّ عليها . هذا . وقد قرر سبحانه بهذه الآيات بطلان ما عليه المتعنتون من اليهودية والنصرانية ، وبرأ خليله والأنبياء من ذلك . ولما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه بالغ فى وصية بنيه بالدين والإسلام، ذكر عقبيه أن يعقوب وصى بنيه بمثل ذلك تأكيداً للحجة على اليهود والنصارى ومبالغة فى البيان بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

«أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ» أى ما كنتم حاضرين حينئذ ، فـ « أم » منقطعة مقدّرة بـ « بل » والهمزة ، وفى الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ . والشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر ، وحضور الموت حضور مقدماته « إِذْ قَالَ » أى يعقوب

« لِبَنِيهِ » وهم[١] : رَأُوبَيْن ، وشِمْعُون ، ولَاوِي ، ويَهُوذَا ، ويَسَّاكَر ، وزَبُولُون ، ويُوسُف ، وبَنْيَامِينُ ، ودَانُ ، ونَفْتَالِي ، وجَادُ ، وأَشِيرُ ، وهم الأسباط الآتى ذكرهم « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي » أى أىّ شيء تعبدونه بعـد موتى ، وأراد بسؤاله تقريرهم على التوحيد والإسلام ، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما « قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ » عطف بيان لآبائك . وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه . لأن العم أب والخالة أم ، لانخراطهما فى سلك واحـد ، وهو الأخوّة ، لا تفاوت بينهما . ومنه حديث الترمذىّ عن علىّ كرم الله وجهه ، رفعه[٢] « عم الرجل صنو أبيـه » أى لا تفاوت بينهما ، كما لا تفاوت بين صنوى النخلة . وفى الصحيحين عن البراء ، رفعه[٣] « الخالة بمنزلة الأم » ؛ وروى ابن سعد عن محمد بن علىّ مرسلاً « الخالة والدة » .

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاح الخامس والثلاثون ، ٢٣ـ٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ٢٨ ـ باب مناقب العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه . ونصه : عن علىّ ؛ أن النبىّ ﷺ قال لعمر ، فى العباس « إن عم الرجل صنو أبيه » وكان عمر تكلم فى صدقته .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٣ ـ كتاب الصلح ، ٦ ـ باب كيف يكتب : هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان .

ونصه : . . . فخرج النبىّ ﷺ (من مكة) فتبعتهم ابنة حمزة : يا عم ! يا عم ! فتناولها علىّ فأخذ بيدها . وقال لفاطمة عليها السلام : دونك ابنة عمك ، احمليها . فاختصم فيها علىّ وزيد وجعفر . فقال علىّ : أنا أحق بها وهى ابنة عمى . وقال جعفر : ابنـة عمى وخالتها تحتى . وقال زيد : ابنة أخى . فقضى بهـا النبىّ ﷺ لخالتها ، وقال « الخالة بمنزلة الأم » . . . .

ولم أجده فى صحيح مسلم .

« إِلَٰهًا وَاحِدًا » بدل من إله آبائك ، كقوله تعالى « بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ »(١) أو على الاختصاص ، أى نريد بإله آبائك إلهاً واحداً ، وفى ذلك تحقيق للبراءة من الشرك، للتصريح بالتوحيد . ثم أخبروا بعد توحيدهم بإخلاصهم فى عبادتهم ، بقولهم « وَنَحْنُ لَهُ » أى وحده لا لأب ولا غيره « مُسْلِمُونَ » أى مطيعون خاضعون ، كما قال تعالى « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا »(٢) والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ »(٣) والآيات فى هذا كثيرة، والأحاديث . ومنها قوله ﷺ(٤) « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » وقد اشتمل نبأ وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لبنيهما على دقائق مرغبة فى الدين . منها أنه تعالى لم يقل « وأمر إبراهيم بنيه » بل قال « ووصاهم » ، ولفظ الوصية أوكد من الأمر ، لأن الوصية عند الخوف من الموت ، وفى ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم ، فدل على الاهتمام بالوصى به ، والتمسك به . ومنها تخصيص بنيهما بذلك ، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم ، فلما خصّاهم بذلك فى آخر عمرهما علمنا أن اهتمامهما

---

(١) [٩٦ / العلق / ١٥و١٦] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٣] ونصها : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب واذكر فى الكتاب مريم ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة والأنبياء أخوة لِعَلّات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٤٣و١٤٤و١٤٥ (طبعتنا)

بذلك كان أشد من اهتمامهما بغيره . ومنها أنهما ، عليهما السلام ، مامزجا بهذه الوصية وصية أخرى . وهذا يدل على شدة الاهتمام أيضاً . إلى دقائق أخرى أشار إليها الفخر ، عليه الرحمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ » إشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين « أُمَّةٌ » أى جيل وجماعة « قَدْ خَلَتْ » أى سلفت ومضت « لَهَا مَا كَسَبَتْ » فى إسلامها من الاعتقادات والأعمال والأخلاق « وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ » أى مما أنتم عليه من الهوى خاص بكم ، لا يسألون هم عن أعمالكم « وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » والمعنى أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً . فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا ، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم . فما اقتص عليكم أخبارهم ، وما كانوا عليه من الإسلام والدعوة إليه ، إلا لتفعلوا ما فعلوه ، فتنتفعوا . وإن أبيتم ، لم تنتفعوا بأعمالهم .

قال الرازىّ : الآية دالة على بطلان التقليد ، لأن قوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ » يدل على أن كسب كل أحد يختص به ، ولا ينتفع به غيره ، ولو كان التقليد جائزاً ، لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع ، فكأنه قال : إنى ماذكرت حكاية أحوالهم طلباً منكم أن تقلدوهم، ولكن لتنبهوا على مايلزمكم، فتستدلوا وتعلموا أن ما كانوا عليه من الملة هو الحق. انتهى.

ومعلوم أن اتباع الأنبياء عليهم السلام ، والإيمان بهم ، لا يسمى تقليداً ، لخروجه عن حده المقرر فى كتب الأصول .

ثم أخبر تعالى أنهم اعتاضوا عن الاهتداء بالأصفياء من أسلافهم ، بأن صاروا دعاة إلى الكفر ، مع بيان بطلان ماهم عليه من كل وجه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَقَالُوا » أى الفريقان من أهل الكتاب « كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ » نتبع « مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » ونستن بسنته لا نحول عنها كما تحولتم « حَنِيفًا » أى مستقيماً أو مائلاً عن الباطل إلى الحق ، لأن الحنف ، محركة ، يطلق على الاستقامة ، ومنه قيل للمائل الرِّجل : أحنف . تفاؤلًا بالاستقامة كما قالوا للديغ : سليم . وللمهلكة : مفازة . ويطلق على ميل فى صدر القدم ، واعوجاج فى الرجل ، فالحنيف المستقيم على إسلامه لله تعالى ، المائل عن الشرك إلى دين الله سبحانه .

ولما أثبت إسلامه بالحنيفية نفى عنه غيره بقوله « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » وفيه تعريض بأهل الكتاب ، وإيذان ببطلان دعواهم اتباعَه عليه السلام ، مع إشراكهم بقولهم: عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله . وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محض ضلال وارتكاب بطلان ، وأن الدين المرضىّ عندالله الإسلام ، وهو دعوةالخلق إلى توحيده تعالى ، وعبادته وحده ، لاشريك له .

ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم بعث الله نبيه محمدا خاتم النبيين لدعوة الناس جميعاً إلى هذا الأصل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (قُولُوا ءامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

« قُولُوا » أى يا أيها الذين آمنوا . وفيه إظهار لمزية فضل الله عليهم حيث يلقنهم ولا يستنطقهم فيقصروا فى مقالهم « ءامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا » أى من الكتاب الذى تقدم إنه الهدى « وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » من الأحكام التى كانوا متعبدين بها، مما اشتملت عليه صحف أبيهم إبراهيم عليه السلام ومن الوحى إليهم خاصة. والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر المتقدم ذكرهم. جمع سبط وهو الحافد. سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق . « وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ » من التوراة والإنجيل « وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ » مما ذكر، وغيرهم . « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » فى الإيمان فلا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » منقادون .

وقد روى البخارىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال[١] : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا » .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١١ ـ باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« فَإِنْ ءَامَنُوا » أى أهل الكتاب الذين أرادوا أن يستتبعوكم « بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ » أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصّل . على أن المثل مقحم . وقد قرأ ابن عباس وابن مسعود بما آمنتم به . وقرأ أُبَىّ : بالذى آمنتم به « فَقَدِ اهْتَدَوْا » إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم. عكس ما قالوا : كونوا مثلنا تهتدوا « وَإِن تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن الإيمان بما آمنتم به . « فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ » أى فما هم إلا فى خلاف وعداوة وليسوا من طلب الحق فى شىء .

قال القاضى : ولا يكاد يقال فى المعاداة على وجه الحق أو المخالفة التى لا تكون معصية إنه شقاق . وإنما يقال ذلك فى مخالفة عظيمة توقع صاحبها فى عداوة الله وغضبه ولعنه ، وفى استحقاق النار . فصار هذا القول وعيداً منه تعالى لهم ، وصار وصفهم بذلك دليلًا على أن القوم معادون للرسول ، مضمرون له السوء ، مترصدون لإيقاعه فى المحن ، فمند هذا أمنه الله تعالى من كيدهم وأمن المؤمنين من شرهم ومكرهم فقال « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » تقوية لقلبه وقلب المؤمنين لأنه تعالى إذا تكفل بالكفاية فى أمر حصلت الثقة به . وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم[(١)]

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٠ ـ باب مرجع النبىّ ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومقاتلته إياهم .

عن أبى أمامة قال : سمعت أبا سعيد الخدرىّ رضى الله عنه يقول : نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ . فأرسل النبىّ ﷺ إلى سعد . فأتى على حمار . فلما دنا من المسجد قال للأنصار « قوموا إلى سيدكم » أو « خيركم » فقال « هؤلاء نزلوا على حكمك » فقال : تَقتُلُ مقاتلتهم وتَسبِى ذراريّهم . قال « قضيتَ بحكم الله » وربما قال « بحكم الملك » .

وإجلاء بني النضير[(١)] « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أتبع وعده بالنصر والكفاية ، بما يدل على أن ما يسرون وما يعلنون من أمرهم لا يخفى عليه تعالى . فهو يسبب لكل قول وضمير منهم ما يردّ ضرره عليهم . فهو وعيد لهم ، أو وعدٌ لرسول الله ﷺ . أي يسمع ما تدعو به ، ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق . وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (صِبْغَةَ اللهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)

« صِبْغَةَ اللهِ » مصدر مؤكد منتصب عن قوله « آمنا بالله » كذا قاله سيبويه . فهو بمثابة فعله . كأنه قيل صبغنا الله صبغة . أي صبغ قلوبنا بالهداية والبيان صبغة كاملة لا ترتفع بماء الشبه ، ولا تغلب صبغةُ غيره عليها . والصبغة كالصبغ (بالكسر فيهما لغة) مايصبَغ به وتلون به الثياب . ووصف الإيمان بذلك لكونه تطهيرًا للمؤمنين من أوضار الكفر ، وحلية تزينهم بآثاره الجميلة ، ومتداخلًافي قلوبهم. كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك. ويقال : صبغ يده بالماء غمسها فيه. وأنشد ثعلب :

دع الشر وانزل بالنجاة تحرزا إذا أنت لم يصبغك في الشر صابغ

وقال الراغب : الصبغة إشارة من الله عز وجل إلى ما أوجده في الناس من بداية العقول

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ١٤ ـ حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: حاربت النضير وقريظة . فأجلى بني النضير وأقرّ قريظة ومنّ عليهم. حتى حاربت قريظة . فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين. إلا بعضهم لحقوا بالنبيّ ﷺ فآمنهم وأسلموا . وأجلى يهود المدينة كلهم : بني قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ، ويهود بني حارثة ، وكلّ يهود المدينة .

التى ميزنا بها من البهائم، ووشحنا بها لمعرفته ومعرفة حسن العدالة وطلب الحق ، وهو المشار إليه بالفطرة فى قوله « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ »[1] الآية والمعنى بقوله عليه السلام : كل مولود يولد على الفطرة[2] ... الخبر . وتسمية ذلك بالصبغة من حيث إن قوى الإنسان التى ركب عليها، إذا اعتبرت بذاته ، تجرى مجرى الصبغة التى هى زينة المصبوغ . ولما كانت اليهود والنصارى، إذا لقنوا أولادهم اليهودية والنصرانية، يقولون: قد صبغناه ــ بيّن تعالى أن الإيمان بمثل ما آمنتم به هو صبغة الله وفطرته التى ركزها فى الخلق. ولا أحد أحسن صبغة منه .

(ثم قال) وقول الحسن وقتادة ومجاهد : إن الصبغة هى الدين ، وقول غيرهم : إنها الشريعة ، وقول من قال : هو الختان ــ إشارة إلى مغزى واحد . « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً » الاستفهام للإنكار والنفى . أى لا صبغة أحسن من صبغته تعالى. لأنها صبغة قلب لا تزول . لثباتها بما تولاها الحفيظ العليم ، فلا يرتد أحد عن دينه سخطة له بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه . والجملة اعتراضية مقررة لما فى « صبغة الله » من معنى الابتهاج « وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ » شكراً لتلك النعمة ولسائر نعمه . فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نؤكدها بالعبادة ، وهى تزيل رَيْن القلب فينطبع فيه صورة الهداية . وهو عطف على آمنا ، داخل معه تحت الأمر .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ونصها : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى:٢٣ ــ كتاب الجنائز، ٩٣ ــ باب ماقيل فى أولاد المشركين. ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه . كمثل البهيمة تنتج البهيمة . هل ترى فيها جدعاء؟ »

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾

« قُلْ » منكرا لمحاجتهم وموبخًا لهم عليها « أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ » أى أتناظروننا فى توحيد الله والإخلاص له واتباع الهدى وترك الهوى « وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ » المستحق لإخلاص العبودية له وحده لا شريك له ، ونحن وأنتم فى العبودية له سواء « وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » أى نحن برءاء منكم ومما تعبدون ، وأنتم برءاء منا . كما قال فى الآية الأخرى « وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ »[١] . وقال تعالى « فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ »[٢] الآية . « وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ » فى العبادة والتوجه ، لا نشرك به شيئًا وأنتم تشركون به عُزَيْرًا والمسيح والأحبارَ والرهبانَ. ولمَّا بقى من مباهتاتهم ادعاؤهم أن أسلافهم كانوا على دينهم ، أبطلها سبحانه بقوله :

---

(١) [١٠ / يونس / ٤١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ » خليل الله « وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » ابنيه « وَيَعْقُوبَ » ابن إسحق « وَالْأَسْبَاطَ » أولاد يعقوب « كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ » أى على ملتهم . إما اليهودية وإما النصرانية « قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ » أى الذى له الإحاطة كلها أعلم . فلا يمكنهم أن يقولوا : نحن . وإن قالوا : الله ، فقد برأ الله إبراهيم ومن معه من ذلك . فبطل ما ادعوا . وثبت أنهم ، عليهم السلام ، كانوا على الحنيفية مسلمين مبرَّئين عن اليهودية والنصرانية . هذا مع أن ردّ قولهم هذا أظهرُ ظاهرٍ من حيث إنه لايعقل أن يكون السابقُ على نسبةٍ للاحق ، ما حدثت إلا بعده بمدد متطاولة . وسيأتى النص الصريح بإبطال ذلك فى آل عمران . ولما كان العلم عندهم عن الله بأن الخليل ومن ذكر معه ، عليهم السلام ، على دين الإسلام وكانوا يكتمون ماعندهم من ذلك . مع تقرير الله لهم به واستخبارهم عنه ونهيه لهم عن كتمانه وما يقاربه بقوله « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ »(١) الآية ـ أشار إلى أشد الوعيد فى كتمان ذلك بقوله « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً » موجودة ومودعة « عِندَهُ مِنَ اللَّهِ » وهو كتمان العلم الذى هو الإخبار بما أنزل الله . والاستفهام إنكار لأن يكون أحدٌ أظلَم من أهل الكتاب حيث كتموا شهادته تعالى لهم ، عليهم السلام ، بالحنيفية والبراءة من الفريقين .

(١) [٢ / البقرة / ٤٢] ونصها : وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

قال التقيّ ابن تيمية : سمى تعالى ماعندهم من العلم شهادة كما قال « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ »(١) الآية كأنه قال : خبرًا عنده ، ديناً عنده من الله ، وبياناً عنده من الله ، وعلماً عنده من الله ، فإن كان قوله «من الله» متعلقاً بـ« كتم » فإنه يعم كل الشهادات . وإن كان متعلقاً بـ « عنده » ، وهو الأوجه ، أو بشهادة ، أو بهما ، فإن الأمر فى ذلك واحد. أى شهادة استقرت عنده من جهة الله . فهو كتمان شهادات العلم الموروث عن الأنبياء . فسمى الإخبار به شهادة .

ثم قال : وكذلك الأخبار النبوية إنما يراد بالشهادة فيها الإخبار . « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » تهديد ووعيد شديد. أى أن علمه محيط بكم وسيجزيكم عليه .

قال الرازيّ : هذا هو الكلام الجامع لكل وعيد . ومن تصور أنه تعالى عالم بسره وإعلانه ، ولا يخفى عليه خافية ، وأنه من وراء مجازاته ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ـ لا يمضى عليه طرفة عين إلا وهو حذر خائف . ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعدّ عليه الأنفاس ، لكان دائم الحذر والوجل ، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر ، فكيف بالرب الرقيب الذى يعلم السر وأخفى ، إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ » فلا يسألون عن أعمالكم

---

(١) [٢ / البقرة / ١٥٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .

«وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» لما ذكر تعالى حسن طريقة الأنبياء المتقدمين، ولم يدع لهم متمسكاً من جهتهم ، أتبع ذلك الإشارة إلى أن الدين دائر مع أمره فى كل زمان . وأنه لاينفعهم إلا ما يستجدّونه بحكم ما تجدد من المُنَزَّل المعجز لكافة أهل الأرض ، أحمرهم وأسودهم .. أى فعليكم بترك الكلام فى تلك الأمة . فلها ما كسبت . وانظروا فيما دعاكم إليه خاتم النبيين محمد ﷺ فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم . ولا تُسألون إلا عن عملكم.

قال الراغب : إعادة هذه الآية من أجل أن العادة مستحكمة فى الناس ، صالحهم وطالحهم أن يفتخروا بآبائهم ويقتدوا بهم فى متحرياتهم . سيما فى أمور دينهم. ولهذا حكى عن الكفار قولهم « إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ »(١) . فأكد الله تعالى القول فى إنزالهم عن هذه الطريقة . وذكر فى أثر ما حكى من وصية إبراهيم ويعقوب بنيه بذلك ، تنبيهاً أن الأمر سواء على ماقلت أو لم يكن . فليس لكم ثواب فعلهم ولا عليكم عقابه. وفى الثانى لما ذكر ادعاءهم اليهودية والنصرانية لآبائهم أعاد أيضاً تأكيداً عليهم تنبيها على نحو ما قال « وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ »(٢) ، وقوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »(٣) ، وقوله « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ »(٤) ولما جرت به عادتهم وتفردت به معرفتهم : كل شاة تناط برجليها .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٢] ونصها : بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٣] ونصها: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . . .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » روى البخارىّ فى صحيحه(١) عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا . وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت . وأنه صلى أول صلاة صلاها ، صلاة العصر وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبىّ ﷺ قِبَلَ مكة . فداروا ، كما هم ، قِبَلَ البيت .

وروى مسلم(٢) عن البراء رضى الله عنه نحو ما تقدم ولفظه : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، ثم صرفنا نحو الكعبة .

وروى الشيخان(٣) عن ابن عمر قال : بينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن. وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . (اللفظ لمسلم)

والأحاديث فى تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة متوافرة . وفيما ذكرنا كفاية .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٢ ـ باب سيقول السفهاء من الناس. . .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٢ . (طبعتنا)

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٣٢ ـ باب ما جاء فى القبلة .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث١٣ . (طبعتنا)

وقد أعلم الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن فريقاً من النـاس سينكرون تغيير القبلة وسماهم سفهاء ، جمع سفيه. وهو الخفيف الحلم والأحمق والجاهل . قال أبوالسعود : أى الذين خفّت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن التدبر والنظر. انتهى . ومعنى قوله «ماولاهم» أى أىّ شىء صرفهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، أى ثابتين على التوجه إليها، وهى بيت المقدس. ومدار الإنكار ، إن كان القائلون هم اليهود ، كراهتهم للتحويل عنها لأنها قبلتهم . وإن كان غيرهم ، فمجرد القصد إلى الطعن فى الدين والقدح فى أحكامه . وقد روى عن ابن عبـاس : أن القائلين هم اليهود ، وعن الحسن أنهم مشركو العرب . وعن السدّىّ أنهم المنافقون .

قال الراغب : ولا تنافى بين أقوالهم فـكلٌّ قد عابوا ، وكلٌّ سفهاء .

(تنبيه) ظاهر قوله تعالى « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ » الخ أنه إخبار بقولهم المذكور . ثم إن الإخبار قبل وقوعه . وفائدته توطين النفس وإعداد ما يبكتهم ، فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد . والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أردّ ، مع مافيه من دلائل النبوة حيث يكون إخباراً عن غيب ، فيـكون معجزا « قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » جواب عن شبهتهم . وتقريره أن الجهات كلها لله ملكاً . فلايستحق شىء منها لذاته أن يكون قبلة . بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة . فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى أخرى . وما أَمَرَ به فهو الحق . « يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فيه تعظيم أهل الإسلام وإظهار عنايته تعالى بهم وتفخيم شأن الـكعبة . كما فخمه بإضافته إليه فى قوله تعالى « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ »[1] .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٢٦] ونصها : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« وَكَذَٰلِكَ » أى كما هديناكم إلى قبلة هى أوسط القبل وأفضلها « جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدولا ، خياراً. وقوله تعالى « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » تعليل للجَعْل المنوه به الذى تمّتْ المنة به عليهم . واعلم أن أصل الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة . إما بالبصر أو بالبصيرة . قال الرازىّ : الشهادة والمشاهدة والشهود هو الرؤية ، يقال شاهدت كذا إذا رأيته وأبصرته ، ولما كان بين الإبصار بالعين وبين المعرفة بالقلب مناسبة شديدة ، لاجرم قد تسمى المعرفة التى فى القلب مشاهدة وشهوداً ، والعارف بالشىء شاهدا ومشاهداً . ثم سميت الدلالة على الشىء شاهداً على الشىء لأنها هى التى بها صار الشاهد شاهدا . ولما كان المخبر عن الشىء والمبيّن لحاله جارياً مجرى الدليل على ذلك ، سمى ذلك المخبر أيضاً شاهداً . وبالجملة ، فكل من عرف حال شىء وكشف عنه كان شاهدا عليه . انتهى .

والشهيد أصله الشاهد والمشاهد للشىء والمخبر عن علم حصل بمشاهدة بصرٍ أو بصيرة . وهو ، بالمعنى الثالث ، من النعوت الجليلة . ولذلك وصف به النبيون والسادة والأئمة. كما ترى فى هذه الآية وفى آية « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ

هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »(١) وآية « وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ »(٢) « وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ »(٣) ثم إن فى اللام فى قوله تعالى « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » وجهين (الأول) إنها لام الصيرورة والعاقبة . أى فآل الأمر بهدايتكم وجعلكم وسطا أن كنتم شهداء على الناس. وهم أهل الأديان الأخر . أى بصراء على كفرهم بآيات الله وما غيروا وبدلوا وأشركوا وألحدوا. مما قص عليكم فى الآيات قبل ، حتى أحطتم به خبرا . فعرفتم حق دينهم من باطله، ووحيه من مخترعه . يعنى : وإذا شهدتم ذلك منهم وأبصرتم فاشكروا مولاكم على ما أولاكم ، وعافاكم مما ابتلى به سواكم، حيث وفقكم للمنهج السوىّ وهداكم للمهيع الرضىّ . وكذلك صار الرسول عليكم شهيدا بأنكم عرفتم الحق من الباطل والهدى من الضلال والنور من الظلمات ، بما بلغكم من وحيه وأراكم من آياته . فعظمت المنة لله عليكم إذ أصبحتم مهتدين بعد الضلالة ، علماء بعد الجهالة . ففيه إشارة إلى تحذير المؤمنين من أن يزيغوا بعد الهدى ، كما زاغ أولئك الذين نعى عليهم ضلالتهم ، فتقوم عليهم الحجة كما قامت على أولئك. (الوجه الثانى) أن تكون اللام للتعليل ، على أصلها . والمعنى: جعلناكم أمة خيارا لتكونوا شهداء على الناس، أى رقباء قوّاما عليهم بدعائهم إلى الحق وإرشادهم إلى الهدى وإنذارهم مما هم فيه من الزيغ والضلال . كما كان الرسول شهيدا عليكم بقيامه عليكم بما بلغكم وأمركم ونهاكم وحذركم وأنذركم . فتكون الآية نظير آية « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا .

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »[١] وربما آثر هذا المعنى من قال: خير مافسّر القرآن بالقرآن. لتماثل الآيتين بادىء بدء . فإن الوسط بمعنى الخيار. وقد صرح به فى قوله « خَيْرَ أُمَّةٍ » وإلى هذا المعنى يشير قول مجاهد فى الآية : لتكونوا شهداء لمحمد عليه السلام على الأمم اليهود والنصارى والمجوس : أى شهداء على حقية رسالته . وذلك بالدعوة إليها والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو قطب الدعوة وروحها .

وبعد كتابة هذا رأيت السمرقندىّ فى تفسيره نقل خلاصة ما قلناه . وعبارته : وللآية تأويل آخر « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدولا « لتكونوا شهداء على الناس » الخ يقول : إنكم حجة على جميع من خالفكم . ورسول الله عليه السلام حجة عليكم . والشهادة فى اللغة هو البيان . ولهذا سمى الشاهد بينة لأنه يبيّن حق المدعى . يعنى إنكم تبينون لمن بعدكم ، والنبىّ ، عليه السلام ، يبين لكم . انتهى .

وأوضح ذلك الراغب الأصفهانىّ بأسلوب آخر فقال : إن قيل : على أى وجه شهادة النبىّ ﷺ على الأمة وشهادة الأمة على الناس ؟ قيل: الشاهد هو العالم بالشىء المخبر عنه مثبتا حكمه . وأعظم شاهد من ثبت شهادته بحجة . ولما خص الله تعالى الإنسان بالعقل والتميز بين الخير والشر ، وكمله ببعثة الأنبياء ، وخصّ هذه الأمة بأتم كتاب ، كما وصفه بقوله «مَافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ»[٢] وقوله «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ»[٣]

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] ونصها : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٦/الأنعام/٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ =

فأفادناه عليه السلام وبينه لنا ـ صار حجة وشاهدا أن يقولوا «مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ»[١]. وجعل أمته ، المتخصصة بمعرفته ، شهودا على سائر النـاس . (إن قيل) هل أمته شهود كلهم أم بعضهم ؟ (قيل) كلهم ممكن من أن يكونوا شهداء . وذلك بشريطة أن يزكوا أنفسهم بالعلم والعمل الصالح ، فمن لم يزك نفسه لم يكن شاهدا ومقبولا . ولذلك قال تعـالى « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا »[٢] وعلى هذا قال « يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ »[٣] فالقيام بالقسط مراعاة العدالة . وهى ، بالقول المجمل ، ثلاث : عدالة بين الإنسان ونفسه ـ وعدالة بينه وبين الناس ـ وعدالة بينه وبين الله عز وجل . فمن رعى ذلك فقد صار عدلًا شاهدا لله عز وجل. (إن قيل) فهل هم شهود على بعض الأمة أم على الناس كافة؟ (قيل) بل كلٌّ شاهد على نفسه وعلى أمته وعلى الناس كافة. فإن من عرف حكمة الله تعالى وجوده وعدله ورأفته ، علم أنه لم يغفل تعالى عنه ولا عن أحد من الناس ، ولا بخل عليهم ولا ظلمهم ، ومن علم ذلك فهو شاهد لله على مَن فى زمانه وعلى

= مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(١) [٥ / المائدة / ١٩] ونصها : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٩١ / الشمس / ٩] .

(٣) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

مَن قبله ومَن بعده . وعلى هذا الوجه ماروى فى الخبر أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على الأمم. انتهى كلام الراغب . والخبر الذى أشار إليه رواه البخارىّ[(١)] عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب . فيقول : هل بلغتَ ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك؟ فيقول : محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا. فذلك قوله جل ذكره « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » وقد روى مرفوعا عن جابر . أخرجه الطبرىّ[(٢)] . وعن ثلة من التابعين من قولهم .

وأقول: قد بينا مرارا ، أن مثل هذا الخبر وكل مايروى مرفوعا أو غير مرفوع فى تأويل هذه الآية ، فكله يفيد أن للآية عموماً يشمل ماذكر . لا أنها خاصة به لايستفاد منها غيره . كما أوضحناه فى المقدمة فى قولهم : نزلت الآية فى كذا . وعليه ، فلا تنافى بين ما يفهم من سياق الآية أو ما يتقاضاه معناها لغة ، من حيث عمومها ، أو ما يحمل عليها من نظائرها فى التنزيل الكريم ، وبين ما يروى فى تفسيرها . فمآل ما يتعدد من سبب النزول فى آية ما ، أو ما يكثر من الآثار فى وجوهها ، كله من باب تفسير العامّ ببعض ما يتناوله لفظه . ولذلك يكثر فى بعض طرق الروايات : ثم تلا النبىّ ﷺ قوله تعالى . أو ثم قرأ . أو اقرؤا إن شئتم . مما يدل على أنه ذكرت الآية حجة لما أخبر به ، لأنه مما يندرج فيها . فاحرص على ذلك .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٣ ـ باب وكذلك جعلناكم أمة وسطا .

(٢) تفسير الطبرىّ ، حديث رقم (٢١٨٢) طبعة المعارف .

(تنبيهات)

(الأول) . استدل بالآية على أن الإجماع حجة . لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة . والعدل هو المستحق للشهادة وقبولها . فإذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به لزم قبوله ، فإجماع الأمة حق . لا تجتمع الأمة ، والحمد لله، على ضلالة . كما وصفها الله بذلك فى الكتاب فقال تعالى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »(١) وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . كما وصف نبيهم صلى الله عليه وسلم بذلك فى قوله « الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ »(٢) وبذلك وصف المؤمنين فى قوله « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »(٣) فلو قالت الأمة فى الدين بما هو ضلال، لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك، ولم تنه عن المنكر فيه . وقد جعلهم الله شهداء على الناس . وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول . وقد ثبت فى الصحيح(٤) عن عبد العزيز بن صهيب قال . سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه فيقول : مرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « وجبت » ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال « وجبت » .

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٨٣ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٥٩ .

(٣) [٩ / التوبة / ٧١] ونصها : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٦ ـ باب ثناء الناس على الميت .

فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما وجبت ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار . أنتم شهداء الله فى الأرض .

وعند الحاكم أنه قرأ هذه الآية : وكذلك جعلناكم ... إلى آخرها .

فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء، لم يشهدوا بباطل . فإذا شهدوا أن الله أمر بشىء ، فقد أمر به . وإذا شهدوا أن الله نهى عن شىء فقد نهى عنه . ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطإ لم يكونوا شهداء الله فى الأرض . بل زكاهم الله فى شهادتهم ، كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق ، وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا الحق .

هذه نبذة من كلام الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى الإجماع ، من بعض رسائله .

(الثانى) مما يتعلق أيضاً بهذا المقام ، ما قاله أيضا هذا الإمام فى رسالته إلى جماعة عدىّ ابن مسافر . ونصه : فعصم الله هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ، وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة . ولهذا كان إجماعهم حجة ، كما كان الكتاب والسنة حجة . ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة بالسنة والجماعة ، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ، ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين ؟ وقد روى عن النبىّ ﷺ من وجوه متعددة ، رواها عنه أهل السنن والمسانيد ، كالإمام أحمد[1] ،

(١) الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده . الجزء الثانى ص ٣٣٢ (طبعة الحلبىّ) .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة . وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

وفى الجزء الثالث ص ١٢٠ : (طبعة الحلبىّ) .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن بنى إسرائيل قد افترقت على ثنتين وسبعين فرقة . وأنتم تفترقون على مثلها . كلها فى النار إلا فرقة » .

وأبي داود[١] ، والترمذيّ[٢] وغيرهم ، أنه قال : ستفترق هذه الأمة على ثنتين وسبعين فرقة ، كلها في النار ، إلا واحدة ، وهي الجماعة . وفي رواية : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم ، وأصحابي . وهذه الفرقة الناجية أهل السنة . وهم وسط في النِّحل ، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل . فالمسلمون وسط في أنبياء الله ، ورسله ، وعباده الصالحين ، لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى فـ« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ »

(١) سنن أبي داود في : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١ ـ باب شرح السنة ، حديث ٤٥٩٦.

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة . وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » .

وحديث ٤٥٩٧ :

عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال « ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين : ثنتان وسبعون في النار . وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة » .

(٢) جامع الترمذيّ في : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٨ ـ باب ماجاء في افتراق هذه الأمة

عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو ثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى على مثل ذلك . وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل ، حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية ، لكان في أمتي من يصنع ذلك . وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »[١] ولا جفَوْا عنهم ، كما جفت اليهود ، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس[٢] ، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً ، وقتلوا فريقاً[٣] . بل المؤمنون آمنوا برسل الله ، وعزروهم ، ونصروهم ، ووقّروهم ، وأحبوهم ، وأطاعوهم ، ولم يعبدوهم ، ولم يتخذوهم أرباباً . كما قال تعالى « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »[٤] .

ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا فى المسيح ، فلم يقولوا : هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ثالث ثلاثة . كما تقوله النصارى . ولا كفروا به ، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً ، حتى جعلوه ، ولدَ غيّة ، كما زعمت اليهود . بل قالوا : هذا عبدالله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، وروح منه . وكذلك المؤمنون وسط فى شرائع دين الله ، فلم يحرّموا على الله أن ينسخ ما شاء ، ويمحو ما شاء ويثبت . كما قالته اليهود . كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا »[٥] وبقوله

---

(١) [٩ / التوبة / ٣١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

(٣) [٥ / المائدة / ٧٠] ونصها : لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ .

(٤) [٣ / آل عمران / ٧٩ و ٨٠] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٤٢] ونصها : سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ =

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ»(١) ولا جوّزوا لأكابر علمائهم وعبّادهم أن يغيروا دين الله، فيأمروا بما شاؤوا وينهوْا عما شاؤوا . كما يفعله النصارى . كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »(٢) .

قال عديّ بن حاتم رضي الله عنه(٣) : قلت : يارسول الله ماعبدوهم ؟ قال : ما عبدوهم ، ولـكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم . والمؤمنون قالوا: لله الخلق والأمر(٤) ، فـكما لا يخلق غيره ، لا يأمر غيره . وقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأطاعوا

= قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(١) [٢ / البقرة / ٩١] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٨٩ .

(٣) جامع الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

عن عديّ بن حاتم قال: أتيت النبيّ ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب . فقال « ياعديّ ، اطرح عنك هذا الوثن » وسمعته يقرأ في سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم. ولـكنهم كانوا إذا أحلوا شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه » .

(٤) [٧ / الأعراف/ ٥٤] ونصها: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

كل ما أمر الله به . وقالوا : إن الله يحكم ما يريد[١] . وأما المخلوق ، فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ، ولو كان عظيماً . وكذلك فى صفات الله تعالى ، فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة ، فقالوا : هو فقير ونحن أغنياء[٢] . وقالوا يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ[٣] . وقالوا : إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت[٤] . إلى غير ذلك . والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به . فقالوا : إنه يخلق ويرزق ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ، ويثيب ويعاقب . والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى . ليس له سمىٌّ ولا ندٌّ . «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ[٥]» و«وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»[٦] فإنه رب العالمين ، وخالق كل شيء . وكل ما سواه عباد له ، فقراء إليه .

(١) [٥ / المائدة / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨١] ونصها : لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . . .

(٤) سفر التكوين ، الأصحاح الثانى ، ٢و٣

(٥) [١١٢ / الإخلاص / ٤] .

(٦) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

obeikandl.com

« إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا »(١) ومن ذلك : أمر الحلال والحرام . فإن اليهود كما قال الله تعالى « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »(٢) فلا يأكلون ذوات الظفر مثل الإبل والبط . ولا شحم الثَّرب (الثَّرْب : شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء . وجمعه ثروب) والكليتين . ولا الجدى فى ابن أمه . إلى غير ذلك ، مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرها . حتى قيل : إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا . والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمراً . وكذلك شدد عليهم فى النجاسات حتى لا يواكلوا الحائض ، ولا يجامعوها فى البيوت . وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات ، وباشروا جميع النجاسات ، وإنما قال لهم المسيح «وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »(٣) . ولهذا قال تعالى «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »(٤) . وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به فى قوله « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

---

(١) [١٩ / مريم / ٩٣ـ٩٥] .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٠] ونصها : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٥٠] ونصها : وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ .

(٤) [٩ / التوبة / ٢٩] .

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(١).

وهذا باب يطول وصفه . وهكذا أهل السنة والجماعة في الفرق . فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته، وسط بين أهل التعطيل ، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته ، ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه حتى يشبهونه بالعدم والموات . وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات . فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه ، وما وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم . من غير تحريف ولا تعطيل . ومن غير تكييف وتمثيل . وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله ، الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شيء . وبين المفسدين لدين الله . الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولاقدرة ولاعمل فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب . فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا « لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ »(٢) فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير . فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم . وإنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . فلا يكون في ملكه مالا يريد . ولا يعجز عن إنفاذ مراده . وإنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات . ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل . وأنه مختار . ولا يسمونه مجبورا . إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره . والله سبحانه جعل العبد مختاراً لما يفعله . فهو مختار مريد . والله خالقه وخالق اختياره . وهذا ليس له نظير .

---

(١) [٧/ الأعراف / ١٥٦و١٥٧] وأول الآية الأولى: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ . . .

(٢) [٦ / الأنعام/ ١٤٨] ونصها : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ.

فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار ، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية . ويكذبون بشفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وبين المرجئة الذين يقولون : إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء . والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان . ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية . فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فسّاق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله . وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذى يستوجبون به الجنة . وأنهم لا يخلدون في النار بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ، أو مثقال خردلة من إيمان . وأن النبيّ ﷺ ادّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته . وهم أيضا في أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم ، وسط بين الغالية الذين يغالون في عليّ رضى الله عنه فيفضلونه على أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما ، وأن الصحابة ظلموا وفسقوا ، وكفروا الأمة بعدهم كذلك ، وربما جعلوه نبياً أو إلهاً . وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان رضى الله عنهما ، ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما . ويستحبون سب عليّ وعثمان ونحوهما . ويقدحون في خلافة عليّ رضى الله عنه وإمامته . وكذلك في سائر أبواب السنة هم وسط . لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . انتهى .

« وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا » أى ما شرعنا القبلة ، كقوله تعالى « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ »[1] أى ما شرعها . و« الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا » ليس بصفة للقبلة إنما هو ثانى مفعوليْ « جعل » أى وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها أى في مكة تستقبلها قبل

(١) [٥ / المائدة / ١٠٣] ونصها : مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

al-maktabeh.com

الهجرة وهي الكعبة . يعني : وما رددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء . أو « كُنْتَ عَلَيْهَا » بمعنى صرت عليها الآن . كقوله تعالى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ »[1] . أو بمعنى كنت على تطلبها ، أي حريصا عليه . وراغبا فيه . كما يفصح عنه قوله تعالى بعدُ « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ »[2] الآية .

وعلى هذه الأوجه، فتكون الآية بيانا للحكمة في جعل الكعبة قبلة . أو معنى التي « كنت عليها » : قبل وقتك هذا وهي بيت المقدس . أي إنما شرعنا لك التوجه أولا إليه ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ، حيثما توجهت ، من غيره . فتكون الآية بيانا للحكمة في جعل بيت المقدس قبلة أوّلا .

ثم اعلم أن الحكمة هو التمييز بين الناس بقوله « إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ » في كل ما يؤمر به، فيثبت عند تقلب الأحكام بما في قلبه من صدق التعلق بالله والتوجه له أيّانَ مَا وجهه « مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ » أي يرتد عن دينه فينافق أو يكفر ممن كان يظهر الاتباع . وأصل المنقلب على عقبيه : الراجع مستدبرا في الطريق الذي قد كان قطعه منصرفاً عنه . استعير لكل راجع عن أمر كان فيه من دين أو خير . قال ابن جرير : قد ارتد ، في محنة الله أصحابَ رسوله في القبلة ، رجالٌ ممن كان قد أسلم . وأظهر كثير من المنافقين من

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] ونصها : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ ءامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٤] ونصها : قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

أجل ذلك نفاقهم . وقالوا : ما بال محمد يحوّلنا مرة إلى ههنا ومرة إلى ههنا ؟ وقال المسلمون فيمن مضى من إخوانهم المسلمين وهم يصلون نحو بيت المقدس: بطلت أعمالنا وأعمالهم وضاعت. وقال المشركون : تحيّر محمد فى دينه . فكان ذلك فتنة للمؤمنين وتمحيصاً للمؤمنين. انتهى .

(لطيفة) العقبين تثنية عقب وهو مؤخر القدم . والانقلاب عليهما استعارة تمثيلية . وهذه الاستعارة نظير قوله تعالى «ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ»[1] وكقوله « كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ»[2] .

(تنبيه) قال الراغب رحمه الله : ما وجه قوله « إلا لنعلم » وذلك يقتضى استفادة علم . ولم يزل ، تعالى ، عالماً بما كان وبما يكون ؟ (قيل) : إن ذلك من الألفاظ التى لولا السمع لما تجاسرنا على إطلاقها عليه تعالى . ومجاز ذلك على أوجه : (الأول) أن اللام فى مثل ذلك تقتضى شيئين: حدوث الفعل فى نفسه وحدوث العلم به . ولما كان علم الله لم يزل ولا يزال ، صار اللام فيه مقتضياً حدوث الفعل لا حدوث العلم . (والثانى) أن العلم يتعلق بالشىء على ما هو به . والله تعالى عَلِمَهُمْ ، قبل أن يتبعوه ، غير تابعين . وبعد أن تبعوه عَلِمَهُمْ تابعين. وهذا الجواب هو فى الحقيقة الأول . لأن التغيير داخل فى المعلوم لا فى العلم. (والثالث) معناه ليعلم غيرنا بنا . فنسب ذلك إلى نفسه . كقوله تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»[3]

---

(١) [٧٤ / المدثر / ٢٣] .

(٢) [٢٠/طه/٤٨] ونصها: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ.

و [٧٥ / القيامة / ٣٢] ونصها : وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

و [٩٢ / الليل / ١٦] ونصها : الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

و [٩٦ / العلق / ١٣] ونصها : أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وفى موضع آخر « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ »[١] وقال تعالى « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ »[٢] وإنما علّمه بملائكته . (والرابع) معناه لنجازى . وذلك متعارف . نحو قولك : سأعلم حسن بلائك . أى سأجزيك على حسب مقتضى علمى قبل . فعبّر عن الجزاء بالعلم لما كان هو سببه . (والخامس) أن عادة الحليم إذا أفاد غيره علما أن يقول : تعالَ حتى نعلم كذا . وإنما يريد إعلام المخاطب . لكن يُحلّ نفسه محل المشارك للمتعلم على سبيل اللطف . انتهى .

والوجه الثالث هو الذى اختاره الإمام ابن جرير قال : أما معناه عندنا : وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا ليعلم رسولى وحزبى وأوليائى : من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه (قال) وكان من شأن العرب إضافة ما فعلته أتباع الرئيس، إلى الرئيس . وما فعل بهم، إليه . نحو قولهم : فتح عمر بن الخطاب سواد العراق وجبى خراجها ، وإنما فعل ذلك أصحابه ، عن سببٍ كان منه فى ذلك . وكالذى رُوِىَ فى نظيره عن النبى ﷺ أنه قال[٣] « يقول الله

---

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] ونصها : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١١٣] ونصها : وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَىْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

ونصه : عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يقول ، يوم القيامة: يا ابن آدم ! مرضتُ فلم تعدنى . قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمنى . قال: يارب ! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ =

جل ثناؤه : مرضت فلم يعدنى عبدى . واستقرضته فلم يقرضنى » فأضاف ، تعالى ذكره ، الاستقراض والعيادة إلى نفسه ، وقد كان ذلك بغيره ، إذ كان ذلك عن سببه .

قد حكى عن العرب سماعا : أجوع فى غير بطنى ، وأعرى فى غير ظهرى . بمعنى جوع أهله وعيـاله وعُرْى ظهورهم . فـكذلك قوله « إلا لنعلم » بمعنى : يعلم أوليائى وحزبى اه .
« وَإِنْ كَانَتْ » أى التولية إليهـا أو الجملة أو التحويلة « لَكَبِيرَةً » أى ثقيلة شاقة . لأن مفارقة الإلف، بعد طمأنينة النفس إليه ، أمر شاق جدا. «إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ» قلوبهم . فأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيـه . وأن الله يفعل مايشاء ويحكم مايريد . فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ مايشاء . وله الحـكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر، أحدث لهم شكا. كما يحصل، للذين آمنوا، إيقانٌ وتصديقٌ . كما قال تعالى « وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ »(١) وقال تعالى « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا »(٢) . وقوله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » هذا تطمين لمن صلى إلى بيت المقدس من المسلمين ومن أهل الـكتاب قبل النسخ .

= قال : أما علمتَ أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عنـدى ؟ يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقنى . قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدتَ ذلك عندى » .

(١) [٩ / التوبة / ١٢٤و١٢٥] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

وبيان أنهم يثابون على ذلك. وقد روى البخارى[١] من حديث أبي إسحق المتقدم عن البراء : وكان الذى مات على القبلة ، قبل أن تحوّل قِبَل البيت ، رجال قتلوا . لم ندر ما نقول فيهم . فأنزل الله «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ»[٢] أى صلاتكم . وإنما عدل إلى لفظ الإيمان، الذى هو عام فى الصلاة وغيرها ، ليفيدهم أنه لم يضع شىء مما عملوه ، ثم يصح عنهم ، فيندرج المسئول عنه اندراجا أوليا، ويكون الحكم كليا . وذكر بلفظ الخطاب دون الغائب ، ليتناول الماضين والباقين ، تغليباً لحكم المخاطب على الغائب فى اللفظ ، وفى تتمة الآية إشارة إلى تعليل عدم الإضاعة ، بما اتصف به من الرأفة المنافية لما هجس فى نفوسهم من الإضاعة .

ولما انطوى ضمير النبىّ ﷺ على إرادة التوجه إلى الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم ومفخرة العرب ومزارهم ومطافهم ، ولمخالفة اليهود ـ أجابه الحق إلى ذلك بقوله :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٢ ـ سيقول السفهاء من الناس . . . ونصه :

عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا . وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت . وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر . وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون . قال : أشهد بالله لقد صليت مع النبىّ ﷺ قِبَل مكة . فداروا كما هم قبل البيت . وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحوّل قِبَل البيت رجال قُتلوا ، لم ندر ما نقول فيهم. فأنزل الله : وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » أى تردد وجهك وتصرّف نظرك فى جهة السماء تشوفا لنزول الوحى بالتحويل .

قالوا : وفى ذلك تنبيه على حسن أدبه حيث انتظر ولم يسأل . وهذا ألطف مما قيل : إن تقلب وجهه كناية عن دعائه ، ولا مانع أن يراد بتقلب وجهه صلى الله عليه وسلم بالتحويل ، ففيه إعلام بما جمله تعالى من اختصاص السماء بوجه الداعى . وهذه الآية وإن كانت متأخرة فى التلاوة ، فهى متقدمة فى المعنى . فإنها رأس القصة . « فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » أى لنمطينك أو لنوجهنك إلى قبلة تحبها وتميل إليها . ودل على أن مرضيّه الكعبة ، بفاء السبب فى قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى نحوه وجهته . والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » أى حيثما كنتم فى بر أو بحر فولوا وجوهكم فى الصلاة تلقاء المسجد . وأما سرّ الأمر بالتولية خاصا وعاما ، فقال الراغب : أما خطابه الخاص فتشريفاً له وإيجاباً لرغبته . وأما خطابه العام بعده ، فلأنه كان يجوز أن يعتقد أن هذا أمر قد خص ، عليه السلام ، به . كما خص فى قوله « قُمِ اللَّيْلَ »[١] ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطر ، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك أبلغ وليكون لهم فى ذلك تشريف . ولأن فى الخطاب العام

(١) [٧٣ / المزمل / ٢] ونصها : قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا .

تعليق حكم آخر به . وهو أنه لا فرق بين القرب والبعد فى وجوب التوجه إلى الكعبة .
« وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » قال الفخر : الضمير فى قوله « أنه الحق » راجع إلى مذكور سابق. وقد تقدم ذكر الرسول، كما تقدم ذكر القبلة . فجاز أن يكون المراد أن القوم يعلمون أن الرسول مع شرعه ونبوته حق . فيشتمل ذلك على أمر القبلة وغيرها . ويحتمل أن يرجع إلى هذا التكليف الخاص بالقبلة ، وأنهم يعلمون أنه الحق . وهذا الاحتمال الأخير أقرب ، لأنه أليق بالمساق . ثم ذكر من وجوه علمهم لذلك: أنهم كانوا يعلمون أن الكعبة هى البيت العتيق الذى جعله الله تعالى قبلةً لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وأنهم كانوا يعلمون نبوة محمد ﷺ لما ظهر عليه من المعجزات . ومتى علموا نبوته فقد علموا لا محالة أن كل ما أتى به فهو حق . فكان هذا التحويل حقا .

قلت : وثم وجه آخر أدق مما ذكره الفخر فى علمهم حقيّة ذلك التحويل وأنه من أعلام نبوته ﷺ . وبيانه أن أمره تعالى للنبىّ ﷺ ، ولكافة من اتبعه ، باستقبال الكعبة، من جملة الاستعلان فى فاران المذكور فى التوراة إشارةً لخاتم النبيين وبشارة به . فقد جاء فى الأصحاح الثالث والثلاثين(١) من سفر التثنية (ويقال الاستثناء) هكذا: وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجلُ الله بنى إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سَعِيرَ وتلألأ من جبل فارانَ .

وهذه البشارة تنبه على موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم . لأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى فى طور سيناء والإنجيل على عيسى فى جبل سعير . لأنه عليه السلام كان يسكن أرض الخليل من سعير بقرية تدعى الناصرة . وتلألؤه من جبل فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى جبل فاران . وفاران هى مكة . لا يخالفنا فى ذلك أهل الكتاب . ففى الأصحاح(٢) الحادى والعشرين من سفر التكوين فى حال إسماعيل

(١) سفر التثنية ، الأصحاح الثالث والثلاثون ، ١و٢ .

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح الحادى والعشرون ، ٢٠و٢١ .

عليه السلام هكذا : وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن فى البرّية وكان ينمو رامىَ قوس. وسكن فى برِّية فارانَ .

ولا شك أن إسماعيل، عليه السلام، كان سكناه فى مكة وفيها مات وبها دفن .

وقال ابن الأثير : وفى الحديث ذكر جبل فاران اسم لجبال مكة بالعبرانىّ . له ذكر فى أعلام النبوة . وألفه الأولى ليست بهمزة. « وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » قرىء بالياء والتاء . فيه إنباء بتماديهم على سوء أحوالهم . ولما بين تعالى أنهم يعلمون أن هذه القبلة حق، أعلم أن صفتهم لا تتغير فى الاستمرار على المعاندة بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى من اليهود والنصارى « بِكُلِّ ءَايَةٍ » أى برهان قاطع أنّ التوجه إلى الكعبة هو الحق « مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ » أى هذه التى حوّلت إليها . لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة . إنما هو عن مكابرة وعناد . مع علمهم بما فى كتبهم من نعتك أنك على الحق. وقوله تعالى « وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ » هذا حسم لأطماعهم فى العود إليها . أو للمقابلة . يعنى ماهم بتاركى باطلهم وما أنت بتارك حقك. « وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ » فلا اتفاق بين فريقيهم، مع كون الكل من بنى إسرائيل. قال الزمخشرىّ : أخبر تعالى عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه . فالمحق منهم لا يزلّ عن مذهبه لتمسكه بالبرهان . والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته فى عناده . وفيه إراحة للنبىّ ﷺ من التطلع إلى هدى بعضهم .

(فوائد)

الأولى : قال الراغب : إن قيل كيف أعلم بأنهم لا يتبعون قبلته وقد آمن منهم فريق ؟ قيل : قال بعضهم : إن هذا حكم على الكل دون الأبعاض . وهذا صحيح . بدلالة أنك لو قلت : ما آمنوا ولكن آمن بعضهم ، لم يكن منافياً . وقيل : عنى به أقوام مخصوصون .

الثانية : قال الراغب : في قوله تعالى « وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ » إشارة إلى أن من عرف الله حق معرفته ، فمن المحال أن يرتد . ولذا قيل : ما رجع من رجع إلا من الطريق : أي ما أخل بالإيمان إلا من لم يصل إليه حق الوصول .

إن قيل : فقد يوجد من يحصل له معرفة الله ثم يرتد (قيل) إن الذي يقدر أنه معرفة، هو ظن متصور بصورة العلم . فأما أن يحصل له العلم الحقيقي ثم يعقبه الارتداد ـ فبعيد . ولم يعن بهذه المعرفة ما جعله الله تعالى للإنسان بالفطنة . فإن تلك كشررة تخمد إذا لم تتوقد .

الثالثة : قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، في بدائع الفوائد : قبلة أهل الكتاب ليست بوحي وتوقيف من الله . بل بمشورة واجتهاد منهم . أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق . وهم يقرّون بأن قبلة المسيح قبلة بني إسرائيل . وهي الصخرة . وإنما وضع لهم أشياخهم هذه القبلة . فهم مع اليهود ، متفقون على أن الله لم يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبدا . والمسلمون شاهدون عليهم بذلك الأمر . وأما اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة ، البتة . وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلّون إليه من حيث خرجوا . فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلّوا إليه . فلما رفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة . وقوله « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله «وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ » كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير . بمعنى : ولئن اتبعتهم، مثلا، بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر « إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أي المرتكبين الظلم الفاحش .

وفى ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ، ويتبع الهوى . وتهييجٌ وإلهاب للثبات على الحق . أفاده الزمخشريّ .

(تنبيهات)

الأول : قال الراغب : حذر تعالى نبيه عن اتباع أهوائهم . ونبه أن اتباع الهوى بعد التحقق بالعلم يدخل متحريه فى جملة الظلمة . وقد أكثر الله تحذيره من الجنوح إلى الهوى حتى كرر ذلك فى عدة مواضع . وقول من قال : الخطاب للنبيّ ﷺ ، والمعنيّ به الأمة ، فلا معنى لتخصصه . فإن الله تعالى يحذر نبيه من اتباع الهوى أكثر مما يحذر غيره . فذو المنزلة الرفيعة إلى تحذير الإنذار عليه أحوج ، حفظاً لمنزلته وصيانة لمكانته اهـ. وهو كلام نفيس جدا .

(الثانى) فى الآية تنويه بشأن العلم . حيث سمى أمر النبوات والدلائل والمعجزات باسم العلم . فذلك ينبّه على أن العلم أعظم المخلوقات شرفا ومرتبة .

(الثالث) دلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم . لأن قوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » يدل على ذلك . ذكره الرازيّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

« الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » أى يعرفون رسول الله ﷺ معرفة لا امتراء فيها ، كما لا يمترون فى معرفة أولادهم من بين أولاد الناس . وهذه المعرفة مستفادة من الكتاب . كما أخبر تعالى عن نعته فيه بقوله « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »[1] يعني يعرفونه بالأوصاف المذكورة في التوراة والإنجيل بأنه هو النبيّ الموعود بحيث لا يلتبس عليهم . كما يعرفون أبناءهم ، ولا تلتبس أشخاصهم بغيرهم . فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية ، بالمعرفة الحسيّة في أن كلا منهما يقينيّ ، لا اشتباه فيه .

وقد روى عن عمر[2] أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته . وإني لا أدري ما كان من أمه . فقبّل عمر رأسه . « وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ » أي أهل الكتاب ، مع ذلك التحقق والإيقان العلميّ « لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ » أي يخفونه ولا يعلنونه « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أي الحق ، أو عقاب الكتمان ، أو أنهم يكتمون . قال الراغب : لم يقل يكتمونه . لأن في كتمان أمره كتمان الحق جملة . وزاد في ذمهم بقوله « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » فإنه ليس المرتكب ذنباً عن جهل ، كمن يرتكبه عن علم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » أي الحق من الله ، لا من غيره . يعني أن الحق ماثبت أنه من الله ، كالذى أنت عليه . وما لم يثبت أنه من الله ، كالذى عليه أهل الكتاب ، فهو الباطل . أي

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٢) هذا النص نقله ابن كثير في تفسيره عن القرطبيّ . ج أول ص ١٩٤ .

هذا الذى يكتمونه هو الحق من ربك . وقرأ علىّ رضى الله عنه «الحقّ» بالنصب على الإبدال من الأول ، كما فى الكشاف . أو المفعولية لـ « يعلمون » ، كما قاله أبو البقاء . « فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » الشاكّين فى كتمانهم الحق مع علمهم . أو فى الحق الذى جاءك من ربك ، وهو ما أنت عليه . ومعلوم أن الشك غير متوقع منه . ففيه تعريض للأمة . وقال الراغب : ليس هذا بنهى عن الشك لأنه لايكون بقصد من الشاكّ ، بل هو حث على اكتساب المعارف المزيلة للشك واستمالها . وعلى ذلك قوله « إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ »(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ » أى لكل أمة أو لكل نبىّ قبلة أو شرعة ومنهاج «هُوَ مُوَلِّيهَا» وجهَه . أى مائل إليها بوجهه ، تابع لها . لأنها حُبِّبت إليه وزُيِّنت له . وقال أبو معاذ : موليها بمعنى متوليها . أى تولاها ورضيها واتبعها « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » أى ابتدروها بالمسابقة إليها . وهذا أبلغ من الأمر بالمسارعة ، لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق . والمراد بالخيرات جميع أنواعها مما ينال به سعادة الدارين « أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً » قال الراغب : أى أىّ شغل تحريتم ، وحيثما تصرفتم ، وأى معبود اتخذتم ، فإنكم مجموعون ومحاسبون عليها « إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تعليل لما قبله. أى هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

(تنبيه) تشير الآية إلى أن الناس على مذاهب عديدة وأديان متنوعة . وأن على العاقل أن يستبق إلى ما كان خيرها وأرقاها . وقد اتفق العقلاء قاطبة والفلاسفة أن دين الإسلام أرقى الأديان كلها لما حوَى من حاجيات الكمال البشرىّ ، ووفى بشؤون الاجتماع، وأسباب

(١) [١١ / هود/٤٦] ونصها : قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ...

العمران وذرائع الرقيّ وطرق السعادتين . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ »[1] وقوله « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »[2] .

ثم إنه تعالى أكد حكم التحويل وبيّن عدم تفاوت أمر الاستقبال فى حالتى السفر والحضر بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ » أى ومن أيّ بلد خرجت للسفر « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » إذا صليت «وَإِنَّهُ» أى هذا الأمر « لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » قرئ بالياء فهو وعيد للكافرين، وبالتاء فهو وعد للمؤمنين. ولما عظُم فى شأن القبلة انتشارُ أقوال السفهاء وتنوع شغبهم وجدالهم، كان الحال مقتضياً لمزيد تأكيدٍ لأمرها، تعظيما لشأنها وتوهية لشبههم ، فقال تعالى :

---

(١) [٢٢ / الحج / ٦٧] ونصها : لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٨] ونصها : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » وقوله تعالى « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ » أى لئلا يحتج عليكم أحد فى التولى إلى غيره . ولتنتفى مجادلتهم لكم . كقول اليهود مثلا : يجحد ديننا ويتبع قبلتنا ! وقول غيرهم : يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته ! فإذا صليتم إليه لا تكون لهم عليكم حجة .

قال الراغب : وأشار بقوله « وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » إلى تحقيق ما قدمه . فبيّن أنه إذا كانت الحكمة تقتضى أن يكون لكل صاحب شرع قبلة يختص بها ، وأنت صاحب شرع ، فتغيير القبلة لك حق من ربك . (ثم قال) إن قيل : لِمَ كرّر قوله « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » ؟ قيل : حثّ بإحداها على التوجه نحو القبلة بالقلب والبدن فى أى مكان حصل للإنسان ، نائياً كان عنها أو دانياً منها . وذلك مآل الاختيار والتمكن . وحثّ بالآخر على التمكن بالقلب وحده عند اشتباه القبلة . وفى النافلة فى حال اليسر على الراحلة والسفر . « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » فإنهم يظهرون فجورًا ولددًا فى ذلك ، بالعناد . وهم : إما اليهود المعبرعنهم بأهل الكتاب قبلُ ، أو المنافقون أو المشركون ، كما حكى قبل فى « السفهاء » . وكان من قول اليهود ، فيما حكاه قتادة : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه . ومن قول المشركين ، فيما حكاه مجاهد : قد رجع إلى قبلتكم فيوشك

obeikandi.com

أن يرجع إلى دينكم. وتقدم قول المنافقين . وبالجملة فالكل عابوا وخاضوا « فَلَا تَخْشَوْهُمْ » تخافوا جدالهم « وَاخْشَوْنِي » فلا تخالفوا أمرى « وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ » بالتوجه إلى أكمل الجهات المتضمنة للآيات البينات والأمن « وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » للصراط المستقيم بالتوجه إليها، فتهتدون بهذه القبلة هداية كاملة.

قال الحرالىّ : وفى طيه بشرى بفتح مكة ، واستيلائه على جزيرة العرب كلها ، وتمكينه بذلك من سائر أهل الأرض ، لاستغراق الإسلام لكافة العرب الذين فتح الله بهم له مشارق الأرض ومغاربها، التى انتهى إليها ملك أمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ » وقوله تعالى « فِيكُمْ » المراد به العرب . وكذلك قوله « مِنْكُمْ » .

وفى إرساله فيهم ومنهم نعم عظيمة عليهم لما لهم فيه من الشرف . ولأن المشهور من حال العرب الأَنفة الشديدة من الانقياد للغير . فبعثه الله تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول أقرب « يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا » يقرأ عليكم القرآن الذى هو من أعظم النعم . لأنه معجزة باقية . ولأنه يتلى فتتأدى به العبادات ويستفاد منه جميع العلوم ، ومجامع الأخلاق الحميدة ، فتحصل من تلاوته كل خيرات الدنيا والآخرة « وَيُزَكِّيكُمْ » أى يطهركم من الشرك وأفعال الجاهلية وسفاسف الأخلاق « وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ » وهو القرآن . وهذا ليس بتكرار . لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم « وَالْحِكْمَةَ » وهى العلم بسائر الشريعة التى يشتمل القرآن على تفصيلها . ولذلك قال الشافعىّ رضى الله عنه : الحكمة هى

سنة الرسول . وقوله « وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » تنبيه على أنه تعالى أرسل رسوله على حين فترة من الرسل ، وجهالة من الأمم ، فالخلق كانوا متحيرين ضالين فى أمر أديانهم . فبعث الله تعالى النبىّ بالحق . حتى علمهم ما احتاجوا إليه فى دينهم . فصاروا أعمق الناس علماً وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفاً وأصدقهم لهجة . وذلك من أعظم أنواع النعم . قال تعالى «لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ »(١) الآية . وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ »(٢) قال ابن عباس يعنى ، بنعمة الله ، محمدا ﷺ . ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره . وقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ)

« فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » قال ابن جرير : أى اذكرونى أيها المؤمنون بطاعتكم إياى فيما آمركم به وفيما أنهاكم عنه ، أذكركم برحمتى إياكم ومغفرتى لكم . وقد كان بعضهم يتأول ذلك أنه من الذكر بالثناء والمدح . وقال القاشانىّ : اذكرونى بالإجابة والطاعة ، أذكركم بالمزيد والتوالى . وهى بمعنى ما قبله . وقوله « واشكروا لى » قال ابن جرير : أى اشكروا لى فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذى شرعته . وقوله « وَلَا تَكْفُرُونِ » أى لا تجحدوا إحسانى إليكم فأسلبكم نعمتى التى أنعمت عليكم .

قال السمرقندىّ : أى اشكروا نعمتى: أن أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة . ولا تجحدوا هذه النعمة ، ويقال : النعمة، فى الحقيقة . هى العلم . وماسواه فهو تحول من راحة إلى راحة . وليس بنعمة . والعلم

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .
(٢) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

لا يمل منه صاحبه . بل يطلب منه الزيادة . فأمر الله تعالى بشكر هذه النعمة ، وهى نعمة بعثه رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة . كما قصه الحرالى . ولما كان للعرب ولع بالذكر لآبائهم ولوقائعهم ، جعل ، تعالى ذكره ، لهم عوض ما كانوا يذكرون . كما جعل كتابه عوضا من أشعارهم . وهز عزائمهم لذلك بما يسرهم به من ذكره لهم .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول ﷺ [١] « يقول الله عز وجل : أنا مع عبدى حين يذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ هم خير منهم . وإن اقترب إلىّ شبرا اقتربت إليه ذراعا . وإن اقترب إلىّ ذراعا اقتربت إليه باعا . فإن أتانى يمشى أتيته هرولة . صحيح الإسناد أخرجه [٢] البخارىّ أيضا .

وروى [٣] مسلم عن أبى سعيد الخدرىّ وأبى هريرة : أنهما شهدا على النبىّ ﷺ أنه قال : لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

والآثار فى فضل الذكر متوافرة ، ويكفى فيه هذه الآية الكريمة .

(تنبيه) قال النووىّ رحمه الله تعالى : اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة فى التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوهما . بل كل عامل لله تعالى بطاعة ، فهو ذاكر لله تعالى .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جزء ثان ص ٢٥١ (طبعة الحلبىّ) ورقم ٧٤١٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٥ ـ باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه ، حديث رقم ٢٥٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٣٩ (طبعتنا) .

كذا قاله سعيد بن جبير رضى الله عنه ، وغيره من العلماء . وقال عطاء رحمه الله : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام . كيف تشترى وتبيع ، وتصلى وتصوم ، وتنكح وتطلق . وأشباه هذا . وقال النووىّ أيضاً : إن الأذكار المشروعة فى الصلاة وغيرها ، واجبةً كانت أومستحبة، لايحسب شىء منها ولا يعتد به حتى يتلفظ به بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع ، لا عارض . وقد صنف ، فى عمل اليوم والليلة ، جماعة من الأئمة كتباً نفيسة . ومن أجمعها للمتأخرين (كتاب الأذكار للنووىّ) وممن جمع زبدة ما روى فيها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى (زاد المعاد) . وقال فى طليعة ذلك : كان النبىّ ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله عز وجل . بل كان كلامه كله فى ذكر الله وما والاه . وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله . وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له . وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتسبيحه ذكرا منه له . وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له . وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه . فكان ذكر الله فى كل أحيانه وعلى جميع أحواله . وكان ذكره لله يجرى مع أنفاسه قائماً وقاعدا ، وعلى جنبه ، وفى مشيه وركوبه ومسيره ، ونزوله وظعنه وإقامته . انتهى .

وأما الأذكار المحدثة والسماعات المبتدعة ، سماع الكف والدف ، فلم يكن الصحابة ، والتابعون لهم بإحسان ، وسائر الأكابر من أئمة الدين ، يجعلون هذا طريقا إلى الله تبارك وتعالى . ولايعدّونه من القرب والطاعات بل يعدونه من البدع المذمومة . حتى قال الشافعىّ: خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير) يصدّون به الناس عن القرآن . وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك . ويعلمون أن للشيطان فيه نصيبا وافراً . ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم . ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله ، كان نصيب الشيطان فيه أكثر . فسماع الغناء والملاهى من أعظم ما يقوى الأحوال الشيطانية . وهو

سماع المشركين . قال الله تعالى « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً »[(١)] قال ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ، وغيرهما من السلف : التصدية ، التصفيق باليد . والمكاء مثل الصفير . فكان المشركون يتخذون هذا عبادة . وأما النبىّ ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية . ولم يجتمع النبىّ ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط . لا بكف ولا بدف ولا تواجد . وكان أصحاب النبىّ ﷺ ، إذا اجتمعوا ، أمروا واحداً منهم أن يقرأ . والباقون يستمعون . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لأبى موسى الأشعرىّ : ذكرنا ربنا . فيقرأ وهم يستمعون . ومر النبىّ ﷺ بأبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال له[(٢)] : مررت بك البارحة

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٥] ونصها : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٣٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ لأبى موسى « لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة ، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » .

وقال الحافظ فى الفتح عند الكلام على الحديث ٢٠٩٧ ما نصه :

كذا وقع عنده مختصرا من طريق بريد . وأخرجه مسلم من طريق طلحة بن يحيى عن أبى بردة بلفظ (وساق نصه ، كما مر) ثم قال :

وأخرجه أبو يعلى من طريق سعيد بن أبى بردة عن أبيه ، بزيادة فيه : أن النبىّ ﷺ وعائشة مرّا بأبى موسى وهو يقرأ فى بيته . فقاما يستمعان لقراءته . ثم إنهما مضيا . فلما أصبح لقى أبو موسى رسولَ الله ﷺ فقال : يا أبا موسى ! مررت بك ، فذكر الحديث . فقال : أما أنى لو علمت بمكانك لحبّرته لك تحبيرا .

وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك. فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا. أى لحسنته لك تحسينا . كما قال النبيّ ﷺ(١) : زينوا القرآن بأصواتكم . وقال ﷺ(٢) : لله أشد أذنا (أى استماعا) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به، من صاحب القينة إلى قينته.

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لى النبيّ ﷺ(٣) « اقرأ علىّ » قلت : يا رسول الله : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال « نعم » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا»(٤) قال: حسبك الآن . فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه فقال « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا »(٥) وقال تعالى فى أهل المعرفة « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ « الماهر بالقرآن مع البررة الكرام وزينوا القرآن بأصواتكم » .

وقال الحافظ فى الفتح : هذا الحديث من الأحاديث التى علقها البخاريّ ولم يصلها فى موضع آخر من كتابه . وقد أخرجه فى كتاب (خلق أفعال العباد) من رواية عبد الرحمن ابن عوسجة عن البراء بهذا . وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائىّ وابن ماجه والدارمىّ ، وابن خزيمة وابن حبان ، فى صحيحيهما من هذا الوجه .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ١٧٦ ـ باب فى حسن الصوت بالقرآن ، حديث ١٣٤٠ (طبعتنا) ، عن فضالة بن عُبَيْد .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٣٣ ـ باب قول المقرئ للقارئ : حسبك . حديث رقم ١٩٩٠

(٤) [٤ / النساء / ٤١] .

(٥) [١٩ / مريم / ٥٨] .

obeikandl.com

تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ »[١] ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ »[٢] وقال تعالى « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا »[٣] بخلاف هذا السماع، من الباطل الذى نهى عنه . ولذلك لم يفعله القرون الثلاثة التى أثنى عليها النبىّ ﷺ ، ولا فعله أكابر المشايخ. فليُفِقْ من كان من الفريق الأدنى فى سلوك فقره . وليصحب من هو من الرفيق الأعلى إلى حلول قبره ، وليُدَاوِ جراحات اجتراح بدعته ، باتباع هدى النبىّ ﷺ ولزوم سنته .

واعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته ، فيتولد منه الهيبة والإجلال . وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن . وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ، ولذلك قيل : ذكر النعمة شكرها . وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العِبَر . فحق المؤمن أن لا ينفك أبدا عن ذكره تعالى على أحد هذه الأوجه . وقوله تعالى «وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» فيه أمر بشكره على نعمه وعدم جحدها (فالكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب) . وقد وعد تعالى على شكره بمزيد الخير فقال « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ »[٤] قال ابن عطية : اشكروا لى واشكرونى بمعنى واحد . و« لى » أفصح وأشهر مع الشكر .

---

(١) [٥ / المائدة / ٨٣] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٢] .

(٤) [١٤ / إبراهيم / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » أرشد تعالى المؤمنين ، إثر الأمر بالشكر فى الآية قبل ، بالاستعانة بالصبر والصلاة . لأن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها . أو فى نقمة فيصبر عليها . كما جاء فى الحديث[١] : عجبا للمؤمن لا يقضى له قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له . وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له . وبيّن تعالى أنّ أجود ما يستعان به على تحمل المصائب فى سبيل الله ، الصبر والصلاة . كما تقدم فى قوله « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »[٢] وفى الحديث[٣] : أن رسول الله ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أمر صلّى . ثم إن الصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثانى أكثر ثوابا . لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضا واجب . كالاستغفار من المعائب .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٤ (طبعتنا) ما نصه : عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ « عجباً لأمر المؤمن . إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له » .

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده جزء خامس ص ٢٤ (طبعة الحلبىّ) مانصه : عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئاً إلا كان خيرا له » .

(٢) [٢ / البقرة / ٤٥] .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده بالجزء الخامس بالصفحة ٣٨٨ (طبعة الحلبى) عن حذيفة .

وقال الإمام ابن تيمية فى كتابه (السياسة الشرعية) وأعظم عون لولىّ الأمر خاصةً ، ولغيره عامةً ثلاثة أمور : أحدها الإخلاص لله ، والتوكل عليه بالدعاء وغيره . وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن . والثانى الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة . والثالث الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب . ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ »(١) وكقوله تعالى «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ »(٢) وقوله « فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا »(٣) وأما قرانُهُ بين الصلاة والزكاة فى القرآن فكثير جدا . فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية . إذا عرف الإنسان ما يدخل فى هذه الأسماء الجامعة ، يدخل فى الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفى الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع: من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الشر والبطر. انتهى .

« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » قال الإمام ابن تيمية (فى شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى كتاب الله جاء عامًا كما فى قوله تعالى « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ »(٤) وفى قوله

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] .

(٢) [١١ / هود / ١١٤و١١٥] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٣٠] ونصها : فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ .

(٤) [٥٧/الحديد/٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ =

« مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »[١] إلى قوله « وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا » وجاء خاصا كما فى قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »[٢] وقوله « إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى »[٣] وقوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »[٤] فلو كان المراد بذاته مع كل شىء لكان التعميم يناقض التخصيص . فإنه قد علم أن قوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوّهم من الكفار ، وكذلك قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، فلفظ المعية ليست فى لغة العرب ولا فى شىء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى

= ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

(٣) [٢٠ / طه / ٤٦] ونصها : قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

obeikandl.com

الذاتين بالأخرى . كما فى قوله « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ »(١) وقوله « فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ »(٢) وقوله « اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »(٣) وقوله « وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ »(٤) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله «وَهُوَ مَعَكُمْ» يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق . وقد بسط الكلام عليه فى موضع آخر وبيّن أن لفظ المعية فى اللغة، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة ، فهو ، إذا كان مع العباد، لم يناف ذلك علوه على عرشه . ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان . ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد . انتهى مختصرا .

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٦] ونصها : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٣) [٩ / التوبة / ١١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ .

(٤) [٨ / الأنفال / ٧٥] ونصها : وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

وقوله تعالى « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » ينهى تعالى عباده المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتا . بمعنى الذين تلفت نفوسهم وعدموا الحياة . وتصرمت عنهم اللذات . وأضحوا كالجمادات . كما يتبادر من معنى الميت . ويأمرهم سبحانه بأن يقولوا لهم: الأحياء . لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. كما قال تعالى فى آل عمران « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ »(١) فقوله فى هذه الآية « عِنْدَ رَبِّهِمْ » يفسر المراد من حياتهم . أى إنها لأرواحهم عنده تعالى. وقوله « وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » أى بحياتهم الروحية بعد موتهم . إذ لم يظهر منها شىء فى أبدانهم، وإن حفظ بعضها عن التلف . كما ترون النيام همودا لا يتحركون . فلا نخر أعظم من ذلك فى الدنيا، ولا عيش أرغد منه فى الآخرة .

قال الحرالى : فكأنه تعالى ينفى عن المجاهد منال المكروه من كل وجه . حتى فى أن يقال عنه: ميت. فحماه من القول الذى هو عندهم من أشد غرض أنفسهم، لاعتلاق أنفسهم بجميل الذكر. انتهى. ولذا قال الأصم: يعنى لا تسموهم بالموتى، وقولوا لهم الشهداء الأحياء. وقال الراغب الأصفهانى : الحياة على أوجه . وكل واحد منها يقابله موت (الأولى) هى القوة النامية التى

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٩ـ١٧١] .

بها الغذاء ، والشهوة إليه . وذلك موجود فى النبات والحيوان والإنسان . ولذلك يقال : نبات حىّ . (والثانية) فى القوة الحاسة التى بها الحركة المكانية . وهى فى الحيوان دون النبات (والثالثة) القوة العاملة العاقلة . وهى فى الإنسان دون الحيوان والنبات . وبها يتعلق التكليف . وقد يقال للعلم المستفاد والعمل الصالح : حياة . وعلى ذلك قوله تعالى « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »[1] وقيل: المحسن حىّ وإن كان فى دار الأموات . والمسىء ميت وإن كان فى دار الأحياء (قال) ونعود إلى معنى الآية فنقول : قد أجمعوا على أنه لايثبت لهم الحياة التى بها النموّ والغذاء ، ولا الحياة التى بها الحس. فإن فقدانهما عن الميت محسوس ومعقول . فبعض المفسرين اعتبر الحياة المختصة بالإنسان . وقال : إن هذه الحياة مخصصة بالقوة المسماة تارة الروح وتارة النفس . قال : والموت المشاهد هو مفارقة هذه القوة ، التى هى الروح ، البدنَ . فمتى كان الإنسان محسنا كان منعّما بروحه مسروراً لمكانه إلى يوم القيامة . وإن كان مسيئاً كان به معذبا . وإلى هذا ذهب الحكماء ودلوا عليه بالبراهين والأدلة . وهو مذهب أصحاب الحديث . ويدل على صحته الأخبار والآيات المروية عن النبىّ ﷺ . بل إليه ذهب أصحاب الملل كلها . ومما دل على صحته خبَرَا[2] « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وما روى عن أمير المؤمنين رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال[3] « إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبىّ ﷺ يقول . . .حديث ١٥٧٦

(٣) لم أهتد إلى هذا الحديث .

بألفى عام » وروى[١] أنه لما قتل من قتل من صناديد قريش ـ يوم بدر ـ وجمعوا فى قَلِيبٍ ، أقبل النبىّ ﷺ فخاطبهم بقوله : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » قيل : يا رسول الله ! أتخاطب جيفاً ؟ فقال « ما أنتم بأسمع منهم ، ولو قدروا لأجابوا » إلى غير ذلك من الأخبار . وقال تعالى فى آل فرعون « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » وهذا يعنى به قبل يوم القيامة ، لأنه قال فى آخر الآية « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »[٢] انتهى .

وفى البيضاوىّ وحواشيه : «إن إثبات الحياة للشهداء فى زمان بطلان الجسد ، وفساد البنية ؛ ونَفْىَ الشعور بها ـ دليل على أنّ حياتهم ليست الجسد ، ولا من جنس حياة الحيوان ، لأنها بصحة البنية ، واعتدال المزاج . وإنما هى أمر يُدرك بالوحى لا بالعقل » انتهى .

وقد جاء الوحى ببيان حيـاتهم ـ كما أسلفنا ـ قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعـالى فى كتاب (الروح) : وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذه حياة أرواحهم ، ورزقها دارٌّ ، وإلّا فالأبدان قد تمزّقت . وقد فسّر رسول الله ﷺ هذه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٧٧ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا . ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال « يا أبا جهل بن هشام ! يا أمية بن خلف ! يا عتبة بن ربيعة ! يا شيبة بن ربيعة ! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا » .

فسمع عمر قول النبىّ ﷺ فقال : يارسول الله ! كيف يسمعوا وأنّى يجيبوا وقد جيّفوا ؟ قال « والذى نفسى بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولـكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » .

ثم أمر بهم فسحبوا . فألقوا فى قليب بدر .

(٢) [٤٠ / غافر / ٤٦] .

الحياة : بأنّ أرواحهم[1] فى جوف طير خضر لها قناديل معلّقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربّهم اطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أىّ شىء نشتهى ؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ..! ففعل بهم ذلك ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يُتركوا مِن أَنْ يُسألوا ـ قالوا: ياربِّ! نريد أن تردّ أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرةً أخرى ..! فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا. وصحّ عنه ﷺ[2] « إن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلُق من ثمر الجنة » (وتعلق بضم اللام ـ أى : تأكل العلقة) وهذا صريح فى أكلها ، وشربها ، وحركتها ، وانتقالها ، وكلامها ..! انتهى.

قال الطيبىّ : قوله ﷺ «أرواحهم فى جوف طير خضر » أى : يخلق لأرواحهم، بعد مافارقت أبدانهم، هيا كل على تلك الهيئة ، تتعلق بها وتكون خلفاً عن أبدانهم ، فيتوسلون بها إلى نيل مايشتهون من اللذات الحسية . وقال ابن القيم فى كتاب (الروح) : « إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها. وركب هذا الإنسان من بدن ونفس. وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواحُ تبع لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه . وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدانُ

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ (طبعتنا) .
عن مسروق قال : سألنا عبد الله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . قال : أما إنّا قد سألنا عن ذلك . فقال . . . الخ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى جامعه فى : ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ١٣ ـ باب ماجاء فى ثواب الشهداء . عن ابن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال . . . الخ

تبع لها . فكما تبعت الأرواح الأبدانَ فى أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها ، والتذت براحتها ، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب ـ تبعت الأبدانُ الأرواح فى نعيمها وعذابها. والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم ، فالأبدان هنا ظاهرة ، والأرواح خفية . والأبدان كالقبور لها . والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية فى قبورها . فتجرى أحكام البرزخ على الأرواح . فترى إلى أبدانها نعيمًا وعذاباً . كما جرى أحكام الدنيا على الأبدان فترى إلى أرواحها نعيمًا وعذاباً . فَأَحِطْ بهذا الموضع علماً واعرفه كما ينبغى ، يَزُلْ عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج. وقد أرانا الله سبحانه، بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك. أنموذجاً فى الدنيا من حال النائم . فإن ماينعم به ، أو يعذب فى نومه ، يجرى على روحه أصلًا، والبدن تبع له . وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيرًا مشاهدًا ، فيرى النائم أنه فى نومه ضُرِبَ ، فيصبح وآثار الضرب فى جسمه . ويرى أنه قد أكل وشرب ، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه . ويذهب عنه الجوع والظمأ . وأعجب من ذلك أنك ترى النائم، ثم يقوم من نومه ، ويضرب ويبطش ويدافع ، كأنه يقظان ، وهو نائم لا شعور له بشىء من ذلك . لأن الحكم ، لما جرى على الروح ، استعانت بالبدن من خارجه . ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحسّ . فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ، ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا فى البرزخ ، بل أعظم . فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى ، وهى متعلقة ببدنها ، لم تنقطع عنه كل الانقطاع . فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم ، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً . ومتى أعطيتَ هذا الموضع حقه تبيّن لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقه وسعته ، وضمه ، وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة ـ مطابق للعقل . وأنه حق لا مرية فيه . وأن من أشكل عليه ذلك ، فمن سوء فهمه ، وقلة علمه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾

[١٥٦] ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

وقوله تعالى :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ » خطاب لمن آمن مع النبيّ ﷺ ، خصّوا به ، وإن شمل من ماثلهم ، لأنهم المباشرون للدعوة والجهاد ، ومكافحة الفجّار . وكل قائم بحق ، وداع إليه ، معرّض للابتلاء بما ذكر ، كله أو بعضه . والتنوين للتقليل . أى : بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطَرَف منه . وإنما قلّل ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان ، وإن جل ، ففوقه ما يقل إليه . وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم فى كل حال لا تزايلهم . وإنما أخبر به قبل الوقوع ، ليوطّنوا عليه نفوسهم ، ويزداد يقينهم ، عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به . وليعلموا أنه شيء يسير ، له عاقبة حميدة « مِنَ الْخَوْفِ » أى خوف العدو والإرجاف به « وَالْجُوعِ » أى الفقر ، للشغل بالجهاد ، أو فقد الزاد ، إذا كنتم فى سرية تجاهدون فى سبيل الله . وقد كان يتفق لهم ذلك أياماً يتبلغون فيها بتمرة « وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ » أى لانقطاعهم بالجهاد عن عمارة بساتينهم ، أو لافتقاد بعضها بسبب الهجرة ، وترك شيء منه فى البلدة المهاجَر منها « وَالْأَنْفُسِ » بقتلها شهيدة فى سبيل الله ، أو ذهاب أطرافها فيه « وَالثَّمَرَاتِ » أى بأن لا تغلّ الحدائق كعادتها ، للغيبة عنها فى سبيل الله ، وفقد من يتعاهدها ، وخصت بالذكر لأنها أعظم أموال الأنصار الذين هم أخص الناس بهذا الذكر ، لاسيما فى وقت نزول هذه الآيات . وهو أول زمان الهجرة . فكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده كما قال

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ»(١) . قال الراغب : هذه الآية مشتملة على محن الدنيا كلها : أى إذا نظر إلى عموم كل فرد مما ذكر فيها ، وقطع النظر عن خصوص حال المخاطبين فيها ، بما يدل عليه سابقه .

ثم بيّن تعالى ما للصابرين عنده بقوله « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ » مكروه ، اسم فاعل من أصابته شدة : لحقته . أى كهذه البلايا « قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ » أى ملكا وخلقا ، فلا ينبغى أن نخاف غيره ، لأنه غالب على الكل . أو نبالى بالجوع ، لأن رزق العبد على سيده ، فإن مُنِع وقتاً ، فلابد أن يعود إليه . وأموالنا وأنفسنا وثمراتنا ملك له ، فله أن يتصرف فيها بما يشاء « وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » فى الدار الآخرة . فيحصل لنا عنده ما فوّته علينا . لأنه لا يضيع أجر المحسنين . فالمصاب يهون عليه خطبه ، إذا تسلّى بقوله هذا ، وتصور ما خلق له ، وأنه راجع إلى ربه ، وتذكر نعم الله عليه ، ورأى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه . قال الراغب : وليس يريد بالقول اللفظ فقط ، فإن التلفظ بذلك مع الجزع القبيح وتسخط القضاء ، ليس يغنى شيا . وإنما يريد تصور ما خلق الإنسان لأجله والقصد له ، والاستهانة بما يعرض فى طريق الوصول إليه . فأمر تعالى ببشارة من اكتسب العلوم الحقيقية وتصورها وقصد هذا المقصد ووطن نفسه عليه .

(ثم قال) إن قيل : ولِمَ قلتَ : إن الأمر بالصبر يقتضى العلم ؟ قيل : الصبر فى الحقيقة إنما يكون لمن عرف فضيلة مطلوبه .

---

(١) [٤٧ / محمد / ٣١] ونصها : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت « عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ » قال الراغب : الصلاة ، وإن كانت فى الأصل الدعاء ، فهى من الله البركة على وجهٍ ، والمغفرة على وجهٍ . وقال الرازىّ : الصلاة من الله هى الثناء والمدح والتعظيم . قال الراغب : وإنما قال « صلوات » على الجمع ، تنبيها على كثرتها منه وأنها حاصلة فى الدنيا توفيقا وإرشاداً ، وفى الآخرة ثوابا ومغفرة « وَرَحْمَةٌ » عظيمة فى الدنيا عوض مصيبتهم « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » أى إلى الوفاء بحق الربوبية والعبودية ، فلابد أن يوفى الله عليهم صلواته ورحمته .

(تنبيه) ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، عند المصائب ، وفى أجر الصابرين ، أحاديث كثيرة . منها ما فى صحيح مسلم (١) عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أْجُرْنى فى مصيبتى وأَخْلِف لى خيرا منها ، إلا أَجَرَهُ الله فى مصيبته وأخلف له خيرا منها .

قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت : من خيرٌ من أبى سلمة : صاحب رسول الله ؟ ثم عزم الله لى فقلتها . قالت : فتزوجت رسول الله ﷺ .

وروى الإمام أحمد (٢) عن الحسين بن علىّ عليهما السلام عن النبىّ ﷺ قال : ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها ، وإن طال عهدها ، فيحدث لذلك استرجاعا ، إلا جدد الله له عند ذلك ، فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٤و٥ (طبعتنا) .

(٢) مسند الإمام أحمد جزء أول صفحة ٢٠١ (طبعة الحلبىّ) حديث رقم ١٧٣٤ (طبعة المعارف) .

وروى الإمام أحمد(١) بسنده عن أبى سنان قال : دفنت ابناً لى . وإنى لفى القبر إذ أخذ بيدى أبو طلحة (يعنى الخولانىّ) فأخرجنى وقال : ألا أبشرك ؟ قال قلت : بلى . قال : حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال رسول ﷺ : قال الله تعالى: يا ملك الموت ، قبضت ولد عبدى ، قبضتَ قرة عينه وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم . قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع . قال ابنوا له بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد .

ورواه الترمذىّ وقال : حسن غريب .

وروى البخـارىّ(٢) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: من يرد الله به خيرا يصب منه .

وروى الشيخان(٣) عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفرالله بها من خطاياه .

ورويا أيضا(٤) عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : مامن مسلم يصيبه أذى من مرض

---

(١) المسند جزء رابع صفحة ٤١٥ والترمذىّ فى : ٨ ـ كتاب الجنائز ، ٣٦ ـ باب حدثنا سويد بن مضر .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ١ ـ باب ماجاء فى كفارة المرض.

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ١ ـ باب ماجاء فى كفارة المرض .

ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ٣ ـ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول (ثم الأمثل فالأمثل) ونصه : حديث ٢٢٤١

عن عبـد الله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك . فقلت : يا رسول الله ! إنك توعك وعكا شديدا . قال « أجل . إنى أوعك كما يوعك رجلان =

obeikandl.com

فما سواه إلا حطّ الله به عنه من سيئاته . كما تحط الشجرة ورقها .

والأحاديث فى ذلك متوافرة معروفة فى كتب السنة .

وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام، رحمه الله تعالى، كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا. قال عليه الرحمة: للمصائب والبلايا والمحن والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس.

أحدها : معرفة عز الربوبية وقهرها .

والثانى : معرفة ذلة العبودية وكسرها . وإليه الإشارة بقوله تعالى : « الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »(١) اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه وتقديره لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه .

والثالثة : الإخلاص لله تعالى إذ لا مرجع فى رفع الشدائد إلا إليه . ولا معتمد فى كشفها إلا عليه « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ »(٢) « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »(٣) .

= منكم » قلت : ذلك أن لك أجرين . قال « أجل . ذلك كذلك . ما من مسلم يصيبه أذى ، شوكة فما فوقها ، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٤٥ (طبعتنا) .

(١) [٢ / البقرة / ١٥٦] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و [١٠ / يونس / ١٠٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] ونصها : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ .

الرابعة : الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه « وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ »(١) .

الخامسة: التضرع والدعاء «وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا»(٢). «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ»(٣). «بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ »(٤). «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(٥) » .

السادسة : الحلم ممن صدرت عنه المصيبة « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »(٦) « إِنَّا

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٨] ونصها : وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٢] ونصها: وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٦٧] ونصها: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا .

(٤) [٦ / الأنعام / ٤١] .

(٥) [٦ / الأنعام / ٦٣] .

(٦) [٩ / التوبة / ١١٤] ونصها : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ .

نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ »[١]. إن فيك لخصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة[٢] . وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب فى صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم.

السابعة : العفو عن جانيها «وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ»[٣]. «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ »[٤] والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو .

الثامنة: الصبر عليها. وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه « وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ»[٥] «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[٦]» وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر[٧] .

---

(١) [١٥ / الحجر / ٥٣] ونصها : قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٥و٢٦ (طبعتنا)
من حديث طويل لما قدم أناس من عبد القيس على رسول الله ﷺ ، قاله للأشج ، أشج عبد القيس .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٣٤] ونصها : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٤٠] ونصها : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

(٥) [٣ / آل عمران / ١٤٦] ونصها : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

(٦) [٣٩ / الزمر / ١٠] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(٧) أخرجه البخارىّ فى: ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٥٠ ـ باب الاستعفاف عن المسئلة =

التاسعة : الفرح بها لأجل فوائدها . قال عليه الصلاة السلام[1] : والذى نفسى بيده ! إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء . وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : حبذا المكروهان الموت والفقر . وإنما فرحوا بها إذ لا وقع لشدتها ومرارتها بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها ، كما يفرح من عظمت أدواؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها ، مع تجرعه لمرارتها .

العاشرة : الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها . كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه ، المانع من شهواته ، لما يتوقع فى ذلك من البرء والشفاء .

الحادية عشرة : تمحيصها للذنوب والخطايا « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »[2] ولا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الهم يهمه

= ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده . فقال : ما يكون عندى من خير فلن أدّخره عنكم . ومن يستعفف يُعفه الله . ومن يستغن يغنه الله . ومن يتصبر يصبره الله . وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر . حديث رقم ٧٨١

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢٣ ـ باب الصبر على البلاء ، حديث ٤٠٢٤ (طبعتنا) ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ قال : دخلت على النبىّ ﷺ وهو يوعك . فوضعت يدى عليه . فوجدت حرّه بين يدىّ ، فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ! ما أشدها عليك ! قال : إنا كذلك . يضعّف لنا البلاء ويضعّف لنا الأجر . قلت : يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء . قلت : يا رسول الله ! ثم من ؟ قال : ثم الصالحون . إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر ، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحوّيها . وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء .

فى الزوائد إسناده صحيح . رجاله ثقات .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

والشوكة يشاكها إلّا كفر به من سيئاته(١) .

الثانية عشرة : رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم . فالناس معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واشكروا الله تعالى على العافية(١) . وإنما يرحم المشاق من عشق .

الثالثة عشرة : معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها . فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها .

الرابعة عشرة : ما أعده الله تعالى على هـذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها .

الخامسة عشرة : ما فى طيها من الفوائد الخفية « فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »(٣) . «وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٦ ـ كتاب الكلام، حديث رقم ٨ (طبعتنا). إنه بلغه أن عيسى ابن مريم كان يقول: لاتكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم. فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب . وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد . فإنما الناس مبتلًى ومعافًى . فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

(٣) [٤ / النساء / ١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

(٤) [٢ / البقرة / ٢١٦] ونصها : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

obeikandi.com

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »[1] .

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم[2] كان فى طىّ تلك البلية أن أخدمها هاجر ، فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فكان من ذرية إسماعيل خاتمُ النبيين . فأعظِم بذلك من خير كان فى طىّ تلك البلية ، وقد قيل :

كم نعمة مطوية   لك بين أثناء المصائب

---

(١) [٢٤ / النور / ١١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا . حديث ١١١٣

ونصه : عن أبى هريرة قال : لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كَذَبات . ثنتين منهن فى ذات الله عز وجل . قوله : إنى سقيم . وقوله : بل فعله كبيرهم هذا .

وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة . فقيل له : إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها فقال : مَن هذه ؟ قال : أختى . فأتى سارة قال: ياسارة ! ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك . وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذّبينى .

فأرسل إليها. فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأُخذ . فقال: ادعى الله ولا أضرك. فدعت الله فأُطلق . ثم تناولها الثانية . فأُخذ مثلها أو أشدّ . فقال: ادعى الله لى ولا أضرك. فدعت فأُطلق .

فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتونى بإنسان، إنما أتيتمونى بشيطان. فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلى. فأومأ بيده: مهيا. قالت: رد الله كيد الكافر (أو الفاجر) وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة : تلك أمكم يابنى ماء السماء !

وقال آخر :

رب مبغوض كريه فيه لله لطـائف

السادسة عشرة : إن المصـائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيـلاء والتـكبر والتجبر ، فإن نمرود ، لو كان فقيرا سقيماً ، فاقد السمع والبصر ، لما حاجّ إبراهيم في ربه ، لـكن حمله بطرُ الملك على ذلك . وقدعلل الله سبحانه وتعالى محاجته بإتيانه الملك ، ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى»[١] . «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ»[٢] «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى»[٣] . «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ»[٤] «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ»[٥] . «لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ»[٦] . «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ

(١) [٧٩ / النازعات / ٢٤] .

(٢) [٩ / التوبة / ٧٤] ونصها : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

(٣) [٩٦ / العلق / ٦و٧] .

(٤) [٤٢/ الشورى / ٢٧] ونصها: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

(٥) [١١ / هود / ١١٦] ونصها : فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ .

(٦) [٧٢/الجن/١٦] ونصها : وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا.

مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ»[١].

والفقراء والضعفاء هم الأوليا وأتباع الأنبياء. ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء[٢] الأنبياء. ثم الأمثل فالأمثل. نسبوا إلى الجنون[٣] والسحر[٤] والكهانة[٥] واستهزىء بهم[٦] وسخر منهم[٧] «فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا»[٨]. وقيل لنا «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ»[٩].

---

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٤] .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ٣ ـ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

(٣) [١٥/الحجر/٦] ونصها : وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

(٤) [٥١ / الذاريات / ٥٢] ونصها : كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .

(٥) [٥٢ / الطور / ٢٩] ونصها : فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ .

(٦) [١٥ / الحجر / ١١] ونصها: وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

(٧) [٦ / الأنعام / ١٠] ونصها : وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

(٨) [٦ / الانعام / ٣٤] ونصها : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ .

(٩) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »[١] « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا »[٢]. كالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وتغربوا عن أوطانهم وكثر عناهم . واشتدّ بلاهم وتكاثر أعداهم . فغلبوا في بعض المواطن ، وقتل منهم بأُحُد[٣] وبئر مَعُونَةَ[٤] من قتل . وشُجَّ[٣] وجه رسول الله ﷺ . وكسرت[٣] رباعيته . وهشمت[٣] البيضة على رأسه . وقُتِل أعزاؤه ومُثِّل بهم . فشمتت أعداؤه واغتم أولياؤه . وابتلوا يوم الخندق[٥] . وزلزلوا زلزالا شديدا. وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . وكانوا في خوف دائم وعرى لازم . وفقر مدقع . حتى شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع . ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز بُرّ في يوم مرتين . وأوذي بأنواع الأذية حتى قذفوا أحب[٦] أهله إليه . ثم ابتلى في آخر الأمر

---

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٦] .

(٣) اقرأ عن غزوة أُحُد وما تم فيها، في صحيح البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ١٧ ـ باب غزوة أحد ، إلى ٢٦ ـ باب من قتل من المسلمين يوم أحد .

(٤) اقرأ عن بئر معونة في صحيح البخاريّ في: ٦٤ ـ كتاب المغازي، ٢٨ ـ باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة ... الخ

(٥) اقرأ في صحيح البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي، ٢٩ ـ باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب .

(٦) اقرأ في صحيح البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٣٤ ـ باب حديث الإفك .

بمسيلمة[١] وطُلَيحة[٢] والعَنسى[٣] . ولقى هو وأصحابه فى جيش العسرة[٤] ما لقوه. ومات ودرعه[٥] عند يهودىّ على آصع من شعير . ولم تزل الأنبياء والصالحون يتمهدون بالبلاء الوقت بالوقت (يبتلى الرجل[٦] على قدر دينه فإن كان صلبا فى دينه شدد فى بلائه . ولقد كان أحدهم يوضع[٧] المنشار على مفرقه فلا يصده ذلك عن دينه) . وقال عليه الصلاة والسلام:

(١) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٧٠ ـ باب وفد بنى حنيفة وحديث ثمامة بن أثال ، وفيه قدوم مسيلمة الكذاب و ٧١ ـ باب قصة الأسود العنسىّ .

(٢) انظر : الإصابة رقم ٤٢٨٣

(٣) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٧١ ـ باب قصة الأسود العنسىّ .

(٤) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٢٨ ـ باب غزوة تبوك وهى غزوة العسرة .

(٥) صحيح البخارىّ فى: ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٨٩ ـ باب ما قيل فى درع النبىّ ﷺ :
عن عائشة رضى الله عنها قالت : توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودىّ بثلاثين صاعا من شعير .

(٦) الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٥٧ ـ باب ما جاء فى الصبر على البلاء .
عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه . وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض، ما عليه من خطيئه .

(٧) اقرأ فى صحيح مسلم قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام .
فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد ، حديث ٧٣ (طبعتنا) .

obeikandl.com

(مثل المؤمن[(١)] مثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء) . وقال عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمن[(٢)] كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح ، تصرعها مرة وتعدلها مرة حتى تهيج) فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله عز وجل . وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ »[(٣)] فلأجل ذلك تقللوا فى المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك . ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى عز وجل والإقبال عليه .

السابعة عشرة : الرضا الموجب لرضوان الله تعالى . فإن المصائب تنزل بالبرّ والفاجر . فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة ، ومن رضيها فله الرضا . والرضا أفضل من الجنة وما فيها . لقوله تعالى « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ »[(٤)] أى من جنات عدن ومساكنها الطيبة .

---

(١) جامع الترمذىّ فى : ٤١ ـ كتاب الأدب ، ٧٩ ـ باب ماجاء فى مثل المؤمن القارئ للقرآن، وغير القارئ :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الرياح تفيئه ، ولايزال المؤمن يصيبه بلاء . ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لاتهتز حتى تستحصد .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣١ ـ باب فى المشيئة والإرادة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : مثل المؤمن كمثل خامة الزرع ، يفيء ورقه من حيث أتتها الريح تكفّئها . فإذا سكنت اعتدلت . وكذلك المؤمن يُكفَّأ بالبلاء . ومثل الكافر كمثل الأرزة . صمّاءُ معتدلةٌ ، حتى يقصمها الله، إذا شاء .

(٣) [١٠ / يونس / ١٢] .

(٤) [٩/ التوبة/ ٧٢] ونصها : وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي =

فهذه نبذة مما حضرنا من فوائد البلوى ، ونحن نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فلسنا من رجال البلوى .

وفقنا الله تعالى لما يحب ويرضى وعافانا من المحن والرزايا بمنّه وكرمه . آمين .

تمّ الجزء الثاني من محاسن التأويل . ويليه المجلّد الثالث وأوّله في الكلام على آية « إن الصفا والمروة » .

وافق الفراغ من تحريره في العشر الأول من شوال سنة ١٣١٧ في دارنا ، على يد جامعه جمال الدين القاسميّ غفر الله له .

* * *

بحمده تعالى أعدت النظر على هذا الجزء . وضممت إليه ماجدّ العثور عليه من الفوائد ، في أوقات متفرّقة ، كان آخرها في ٣ ربيع الأول سنة (١٣٢٩) وكتبه جامعه الفقير جمال الدين القاسميّ عفي عنه .

= مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .